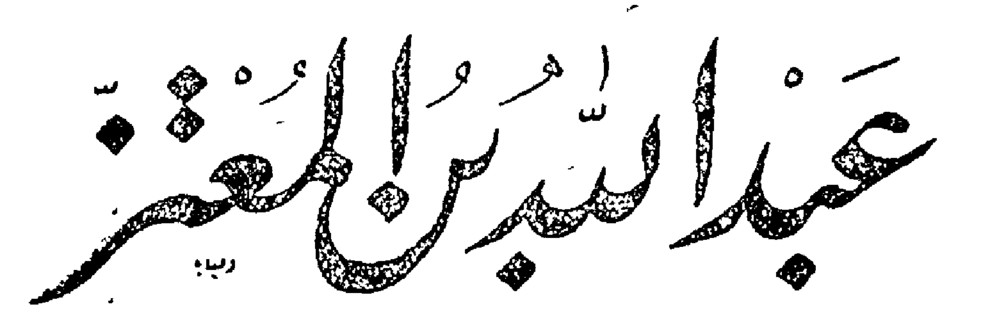
عبد العزيز سيد الأهل

المفتش بوزارة المعارف المصرية والمنتدب للتدريس في الكلية



أدبه وعلمه

مقدمة

نشرتُ على الناس منذ عامين قصة ما كان حول خلافة ابن المعتز في كتابي «يوم وليلة» ، ولن اجاوز الحق والوفاء اذا ذكرت نعمة الله علي في تلك القصة حين انفردت في تصوير حادث ابن المعتز بها أوسع تصويرٍ واصدقه فتهافت عليها القراء من اقطار الارض بما هدّأ جنبي وأفرح قلبي.

على ان تلك القصة كانت آخر ما كتبت عن ابن المعتز ، أما ما كتبت أولا فهو هـذا الكتاب ، ودراسة ابن المعتز فيه دراسة مستفيضة مضنية كان لهـا الفضل في تعريفي بالرجل حتى استطعت أن أصوره كما رأى القراء في قصة خلافته .

وحين عدتُ إلى ما كتبتُ أولا رأيت أن أنقّيه من سيرته وتاريخه إلا فيما يتصل بانتاجه العلمي أو الادبي ، ورأيت ان أعرضه في هذه الفصول :

١ - العصر العباسي المتوسط : وقد بحثت فيه بيئة العصر من الناحيتين

العامة والخاصة ليرى القارىء المؤثرات التي صنعتْ أدب الرجل وعلمه .

٢ ـ مذهبه الشعري : وقد ابرزت فيه النواحي التي امتاز بها شعره .

٣ ـ فنون شعره : وإن كان هذا العرض قد أصبح تقليديا إلا أنني بذلت في هـــذه الفنون اجتهادا مرضياً وبينت فيها كثيرا من أسراره ونواحي تجديده .

٤ ـ الأراجيز : وقد افردت هذه ببحث خاص لعلو نَفَس ابن المعتز في أراجيزه ، وأتبعتها بكلام في التوشيح ولم أفرد له فصلا مستقلا لأن ابن المعتز لم تكن له موشحة .

٥ ـ النقد والبلاغة : وفي هذا الفصل تبين عبقرية ابن المعتز واتساع افقه ونفوذ ادراكه .

٦ ـ انواع نثره : وقـــد قسمتها الى قسمين : علمي وادبي ، وسيرى القارىء رأياً جديداً في كتابته التي سماها « الفصول القصار » .

٧ ـ صفته واخلاقــه : وقد جعلته في آخر الكتاب ليصل اليه القارىء وقد عرف عن الرجل ما يقنعه برأينا فيه .

وقد دللت على مراجعي التي رجعت اليها حين الدراسة في ثلاثة : فما كنت محتاجاً فيه الى نص جعلته في اثناء الكتاب ، وما كنت محتاجاً فيه الى اشارة جعلته في ذيول الصفحات ، وعدت في آخر الكتاب فذكرت المراجع كلها مرتبة على احرف الهجاء .

وسيقدر القارىء انني ارتحلت الى آثار ابن المعتز رحلة شاقة طويلة المدى ، وحسب المنصف ان يُقرّ بجهد الغواص وان لم يظفر باحدى لآليه .

عبد العزيز سيد الاهل

العصر العباسي المتوسط

البيئة العامة

التخلخل العام

شغَلَتْ حياة ابن المعتز جزءاً غير قصير من العصر العباسي المتوسط ، ذلكم العصر الذي يبدأ بحكم المعتصم في سنة ٢١٨ ﻫ وينتهي باستمكان حكم المقتــدر سنة ٢٥٠ ﻫ . وكان هذا العصر قنطرة امتدت نحو خمسين عاما عقَّبَتْ على عصر الصعود في اول الدولة ، ومهّــدتْ لعصر الهبوط في أواخرهــا .

أما التخلخل والانحلال فقد كانا باديين على كل أركان الدولة من أعلى قمتها إلى أدنى القدم منها :

الخــلافة

فالخلافة قد ضاعت هيبتها بغلّ يد الخلفاء عن كل ما يطلبون ، وبالغدر

بكبارهم وصغارهم كما شاء الترك الذين انتقلت الى أيديهم أزِمّة الأمور ، وحتى الوزراء الذين لم يكونوا من جنس الترك اضطروا لمسايرتهم والخضوع لقوتهم وأهوائهم . وقد تبع ذلك ازديادُ التقلقل والارتجاف في مناصب الوزرء والولاة على العمالات والكتّاب والقضاة .

المال والجند

وكان المال والجند ـ وهما عصَب الدولة ـ على أتم الاضطراب والتخلخل ، فالجند موفور العدد والعدة ، وقد تمت لديه الشجاعة لانحداره من عناصر الترك الرعاة ، واما العرب فلم يعودوا جنداً ، وإنما انصرفوا عن الجندية منذ قَتَل الأمويون وقَتَل الحجاج بن يوسف عصبيتهم ، ومنذ أتم العباسيون قتلها بغضّهم من أعنّة بني هاشم ، ومعاداتهم لبني عمهم الطالبيين . ومع وفرة العدد والعدة وتمام الشجاعة لدى الجند الترك فقد كان متشعب الأهواء ، محباً للمال ، نهما إلى زيادة الأعطية ، وكانت الثورة أهون عنده وأمرأ على نفسه من لذيذ الطعام وشهيّ الشراب . ومع أن الدولة كانت كثيرة الموارد ، والمال يفد إلى خزائنها على كُثُر من العمالات ، والجواهر النفيسة محتشدة في الخزائن مع ارتفاع أثمانها ارتفاعاً عظيماً فإن كل ذلك المال وكل تلك الجواهر كان ينفق حيناً قليلاً في وجهه وأحياناً كثيرة في غير وجهه ، فيبدده الخلفاء ونساؤهم ووزراؤهم وغلمانهم بلا روية ولا إشفاق ، وكثيراً ما أشرفت خزائن الدولة على الافلاس .

قانون المصادرات

واستيقظت في هذا المعترك مطامع النساء وشهواتهن ، وفغرت الفتنة فمها فابتلعت عدالة القضاة ، فأفتوا بما يعين على نكث العهود والغدر بالمؤمنين واصطلام الأرواح ، وانتصب قائماً على الناس قانون المصادرات ليطبّق عند أوهى الاسباب لسدّ حاجات القصور والجند ، فاضطرب لذلك

المال اضطراباً آخر في أيدي الاغنياء والتجار ، إذ كان ينمو نمواً عجيباً ثم تُفتح عليه العيون فيصادَر أو يدفَع به الى مخابىء تقصيه عن سوق التجارة ، وما كان أحد يأمن على ماله مهما تقرب من الخلفاء .

ولم يكن هناك أدنى تفكير في مثل ما نسميه نحن اليوم بالعدالة الاجتماعية ، فقد أقصي جيل العرب جملة عن مناصب الدولة الكبرى ، وجفّت الأرزاق في أيدي الأكفاء ، ولم تقم ضمانة من احترام الدولة أو القانون لحقوق الناس . ويبدو لي أن قانون المصادرات لم يكن إلا نتيجة محتومة لاستيلاء غير الاكفاء على الثروات من وجوه غير مشروعة ، وإنما خفّف وقع هذه الكارثة التاريخية التي أصابت الشعب العربي كله في أرجاء مساكنه أفعال فردية من الخير والمروءة جرت على يد من أحيت الكارثة قلوبهم . ومن العجب أنْ كان عمل الخير من الحاكم نفسه — ولو في حدود واجباته — يعدّ في باب الفضل والاحسان الذي يستحق عليه مُوليه جزاءً عاجلاً او آجلاً * .

الترف والجمود

ومع هذا الاضطراب والتخلخل في مناصب الخلفاء والوزراء وفي الأمن والأموال ، فقد تردد الناس بين الترف والجمود ، فانغمس في الترف القادرون عليه ، وبنوا القصور والخانات والحدائق والبرك ، وغالوا في أثمان الجواهر والتحلي بها ، واتخذوا الرياش والاثاث والملابس والأطعمة ، ومالوا الى الدعة والراحة والتطرّح في الاديرة وعلى الشطآن والحدائق ، وانهمكوا في الملذات ، وزاد اللهو بالغناء والالحان فأقبل عليهما الخلفاء والامراء اقبال القيان والمغنين ، وأغري كثيرون بهذه الصناعة ، فاقبل عليها من ليس له عرق فيها من النساء والرجال .

واما الذين لم يقدروا على الترف من الجماهير فقد تطرفوا فكبتوا

---

* انظر كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف المشهور بابن الداية .

انفسهم ، وتشددوا على غيرهم في امور الدين ، واسرعوا في تقويض ما يكرهون من الآراء والقصور المبنية والمدن المشيدة .

الامراض

وانصرفت الدولة في هذا الخضم المائج عن النظر في امور العباد ، فاجترفت الخلائق تيارات جارفة من الامراض والطواعين والسرقات . كان حقاً هناك بيمارستانات يتباهى بها من ينشئها او ينفق عليها ، ولكنها كانت في قصبات البلدان دون ريفها وقراها ، ولم تكن تتسع الا لعدد قليل من المرضى ، ولأنواع خاصة من الأدواء .

وهكذا صرنا نسمع لهذا العصر اصوات بكاء ، كما كنا نسمع له صيحات غناء ، يتعادلن معاً بل يزيد الشقاء ، وشاعت اخلاق الرهبة والخوف واليأس والجمود والانحراف .

المذاهب

واهتزت آراء الناس بين التزمت والاباحة والتقيد والانطلاق في امور الدين والدنيا ، وطغت فتن عديدة من المحافظة والالحاد ، واخذت المذاهب الدينية تتعادى في عنف وشدة ، وواجهت فتاوى المتشددين ضلالات المجان والمتطرحين والمنجمين . وكان من اثر طغيان هذه الفتن ان وضعت اصول الفقه والاحكام ، ومهدت الطريق لاستقرار المذاهب ، ولا سيما مذاهب اهل السنة ، وساعد على استقرارها اقفال باب الاجتهاد عندهم ، واكبر الظن ان ذلك قد حدث لان خلفاء ذلك العصر ارادوا ان يكتموا انفاس الخلافات الدينية سواء أكان منشؤها سياسياً ام دينياًخالصاً ، فوضعوا القُدُم الحابسة على فوّهات الانطلاق . وبات اسعد المذاهب حظاً مذهب ابي حنيفة لانه ظفر باقراره مذهباً رسمياً للدولة .

المعتزلة

وقد ساد ايضاً مذهب الاعتزال ، او استمر سائداً ، لتشديد أصحابه في المسئولية الشخصية التي تشد من أزر العقوبات . وكان مذهب النـّظام في الجدل قد استمكنت طريقته من العقول ، وغذته الفلسفة اليونانية التي نضجت بشكل متوسط بين العقلين الغربي والشرقي على ضفافي دجـلة والفرات ، وامتاز هذا الجدل بالعمق واستيعاب الادلة ، وهي طريقة تعين على المغالاة في حبّ النصرة وسدّ مذاهب الطريق على الخصوم ، وقـد كثر أتباع هذا المذهب حينئذ في سامرا وبغداد .

العلم والادب

ويبدو لك جلياً أن الاضطراب الذي ساد في هذا العصر قد أدى الى أوخم العواقب في السياسة والتدين ، وخلـّف من مواريثه هذه الخلافات القائمة بين المذاهب الاسلامية في حدودها الواسعة والضيقة على سواء ، لأن الأمرين من السياسة او التدين لا يحتملان التأرجح أو ما يسمى بالاعتدال ، فاما الى هذه الناحية واما الى تلك .

أما أن هذا الاضطراب قد أدى الى العلم والأدب جميلاً فذلك ما لا مرية فيه ، فقد ظل العلم – إذا لم يدسّ يـده في أمور السياسة دساً ظاهراً – مصون الجانب ، وظل العلماء والادباء في أماكنهم الرفيعـة نسبياً ، وكأنهم كوفئوا من الدولة بذلك لتبعد خطرهم ، كما حدث في الدولة الأموية للشعراء ، وقد أحدث هذا الامن بين صفوفهم ، وهـذا التقدير للعلم والأدب حركة مباركة ، فكثرت الطرق والوسائل والآراء ، وذلك ما يزيد به العلم والأدب فراهة واتساعاً .

العلوم الحديثة

ولم يكن هناك بد وقد أقبلت الفلسفة * والمنطق والرياضيات والفلك

---

* لم تكن للفلسفة في ذلك العصر حدود عند العرب ، وإنما كان أغلب ما يأتي

والكيمياء من ان تغشى معسكرات العلوم القديمة ، وإن ظلت هذه مدة من الزمن وهي تظن أنها لا تنزلق مع الجديد الى الأمام ، فتأثرت العقول القديمة بالجديد عن رغبتها او برغمها واضطرارها .

ومع خطر العلوم الحديثة وتأثيرها في الفكر تأثيراً قوياً ، واشتغال العلماء في البحث والتنقيب والتقليب بين المواد للعثور على الخصائص ، فقد ظلت في الطبقة الثانية من العلم ، وتركت للعلوم العربية اللسانية مكانها الاول من إقبال المتعلمين . ولعلنا لا نخطىء إذا عددنا ذلك جموداً من الدولة ، او تمهيداً لطور الجمود الذي جاء من بعد . ولعل الأمة العربية لو كانت أحلّت تلك العلوم في المكان الاول لكان الحال في المشرق غيره اليوم ، وليس يخفى الأمر على ذي بال !

الشعر والشعراء

أما الادب والشعر فقد تبلبلت آراء الناس فيهما كذلك ، فما الجيد وما الرديء ؟ وماذا يصلح للدراسة منهما وما الذي لا يصلح ؟ وأقبل الناس على مثل هذه الدراسة إقبالاً منقطع النظير في مجالس المنادمة والمناظرات وبين أيدي المعلمين ، وخلفوا لنا من آرائهم الشيء الكثير .

ولم تكن الآراء الادبية في الحقيقة بمعزل عن السياسة والاجتماع والدين ، بل كان للهوى والنزعة الدينية حكمٌ على ما يدرس من الاقوال ، وكان الادب الذي يتعصب لغير بني العباس لا يجد له مكاناً من الدرس او من الشيوع الا في أوساط أهله .

ومن أطرف ما أثر عن العصر أنه شاع أن أبا تمام لا يصلي ، فكان ذلك سبباً كافياً لئلا يَدْرس شعره أبو العباس المبرد لتلاميذه ، بل لا يطالع

عن اليونان يدخل تحت هذا الاسم ، فعلل التاريخ والفلك ومظاهر الكون والحياة كان يسمى عندهم فلسفة ، وكانت العداوة لهذه العلل شديدة ، وقد حاولت الآراء القديمة أن تثبت أمامها بالجدل العقيم فاضاع الجدل كثيراً من الحقائق (انظر ديوان المعاني لأبي هلال في صفة السحاب والمطر) .

عليه هو ليدرس ما يجري حوله ، وظل كذلك جافياً له حتى حُرِّض على دراسة شعره واستحسان مذهبه .

وقد امكن من الاختلاف في الآراء الادبية كذلك ان يُعثر على قوانين عادلة في وزن الكلام ، ومن ثم فتح طريق البلاغة والنقد على مصراعيه .

طارق جديد

ولعل اهم ما حدث للأدب والشعر خاصة ذلك الطارق الجديد الذي هز موقف القدماء والمحدثين هزاً عنيفاً ، وكان الطارق (ابا تمام) ، وايسر ما يقال في شعره انه الفاظ عربية في صور ومعان جديدة تخالف ما اعتاد القدماء ان يسمعوا وان يدرسوا فيستحسنوا او يستقبحوا ، فاذا لم يكن كلاماً عربياً فكيف وسعت ألفاظ اللغة واساليبها صور ابي تمام ومعانيه ؟

ويسهل ان ندرك شعور اولئك الناس امام تجديد ابي تمام حين نعرف شعورنا نحن نحو الذين يجددون اليوم في صور الشعر واساليبه متأثرين بالآداب الغربية المستحدثة كل التأثر ، ولقد ازداد نفور بعضنا يوماً ما من مناهج الادب الرمزي * ، فهذه الحال كتلك سواء بسواء .

وكان لابد اذن من دراسة اللغة من جديد ، او بالاحرى دراسة لغة المحدثين ، وترك ما يتسع له صدر اللغة من سعة وحرية ان يقال . وخليق

* الأدب الرمزي : ليس المقصود به ان يكنى عن شيء بشيء آخر كالتكنية عن الحبيبة بالظبية وعن المرأة بالنخلة وليس هو الشعر الصوفي ولا الادعية الرمزية ولا الالغاز والاحاجي والتلميحات ولكنه مذهب جديد نشأ في اوربة في اواخر القرن التاسع عشر ويمتاز بهذه الاصول :
(١) يعبر عن الروابط الخفية بين المحسوسات ونفوس الشعراء تعبيراً مبهماً كالموسيقى . (٢) لايعنى بالانسجام بين اللفظ والمعنى كما كان يعنى القدماء . (٣) ينطلق من القيد والترتيب والقافية واهم عناصره المفاجأة . (٤) هو كالفلسفة يجمع بين اجزاء العالم وتفصيلاته في شعور واحد . (انظر كتاب الشريف الرضي للدكتور محفوظ طبعة بيروت سنة ١٩٤٤) .

بعلماء اللغة والادب ان تزيد صدورهم لهذه السعة والحرية سعة وانفساحاً .
ولقد كان ذلك . فأقبل الناس على دراسة سليمة عاقلة ، وازدادت الرحلة الى المعلمين في بغداد من كل الآفاق ، واخذ هؤلاء ينهجون منهج التوسعة في البسط والشرح والنقد والتطويل بما عاد على الادب جملة بالخير الوفير .

وبلغ اهتمام الناس جميعاً بالشعر مبلغاً عجيباً ، توهموه كضياء النهار او هبات الهواء لايخلو منها مكان . وكان ولع الخلفاء والدهماء به كولع العلماء ، حتى انهم رووا منه للمعتمد والمعتز ، ورووا منه للبزاز والعجان والخباز والمجنون اقوالا بلغت غاية الجودة او كادت .

ولعمري ، لو كان هناك مَلِك اجمع الكل على تقديسه لما كان غير الشعر ، ومكان الشعر في ذلك العصر يصوره ابو تمام بقوله :

ولولا سبيل سنها الشعر ما درى بغاة الندى من اين تؤتى المكارم
يُرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويُرضى بما يقضي به وهو ظالم

ويصوره ابن الرومي بقوله :

أرى الشعر يحيي الناس والمجد بالذي تبقّيه أرواح له عطرات
وما المجد لولا الشعر الا معاهد وما الناس الا اعظم نخرات

ومن ناحية اخرى فقد قلّت هبات الشعراء من الخلفاء والوزراء ، ولو حسبنا هذا القول من ابي تمام وابن الرومي اغراء على الاعطاء فانه لا يفقد الدلالة على ان الشعر قد صار غرضاً معبوداً لذاته عند الشعراء .

المغايرة

وتأثر الشعر في عمومه بالبلبلة التي اصابت كل شيء ، وكان تأثر اسلوبه بهذه البلبلة طريفاً اذ اعترته حال كالسوفسطائية سماها البديعيون بالمغايرة ، تنظر الى الشيء الواحد من جهاته المختلفة ولا سيما خيره وشره ونفعه وضره ، وهي شيء يشبه تمام المشابهة تكافؤ الادلة

عند المتكلمين، وصارت المغايرة في اساوب الشعر فناً جديداً يرفع من شأن الشاعر الذي يقدر عليه فوق الشاعر الذي لايقدر عليه .

وصار هناك بهذه المغايرة فرق ظاهر بين تعبير الشعر في هـذا العصر والعصور التي سبقته، فإن التعبير صار لا يهتم الا بجلية الكذب والافراط وحسن التعليل . أما قبل فقد كان تعبيراً صادقاً مفرطـاً في الصدق، فالجاهلية مثلاً يؤثر شعراؤها كلهم القوة ويمقتون الضعف، فيمدحون القوي ويهجون الضعيف . والاسلام آثر شعراؤه الاعتدال لامتزاجهم بروحه، فمدحوا الاعتدال وهجوا التطرف، أما هذا العصر فقد صار متردداً بـين القوة والضعف، مستحسناً الايمان والالحاد، وموغـلاً في السوفسطائية، فتنظر كل عين الى الشيء من الوجه الذي يروقها، وكثيراً ما ينظر الشاعر الى الشيء الواحـد نظرتين متضادتين فيمدح ما هجا ثم يعود فيهجو ما مدح .

وكما حدث الاختلاف بين الفقهاء على مسألة النبيذ حدث الاختلاف بين الشعراء على مسائل الحـلال والحرام، وتردد الشعراء في عقائـدهم، فيوماً الى هذا النجد ويوماً آخر إلى النجد الآخر، وصار منهم مسرفون في الايمان والتزمت، ومسرفون في اللذة والشهوات، ومترددون بين هذا وذاك .

تحول الأغراض

وقد أخذ الشعر يحور عن أغراضه القديمة وإن كان لم يخرج عن دائرة الشعر الغنائي، لان هذا العصر كان مبدأ رجوع الشعراء عن الاختصاص بأبواب الملوك والامراء، وصارت الحال أشبه بما نحن عليه اليوم، فليس لملك من ملوك العرب ولا لرئيس من رؤسائهم شاعر يلزم بابه، اللهم الا قليلاً فانصرف الشعراء الى التوسع في الاغراض التي ليس لها صلة إلا بأنفسهم أو بدراساتهم، كالشعر التعليمي وشعر الزهـد والمواطف ومصنوعات

الانسان ومظاهر الطبيعة وزيادة اللهو بالصيد والخمر والنساء ، وسقط الى الدرجة الثانية شعر المدح والرثاء .

باب الوصف

وانفتح للشعر حين وقف على هذه الاغراض باب التشبيه لانه أداة الوصف الأولى ، وصار التشبيه فناً يدرس ويُهتم به ويوجّه اليه من المعلمين ، ولم يُترك منه وجه إلا خاضوا فيه ، حتى التشبيه العددي الذي يشبّه فيه الشاعر أشياء باشياء في بيت واحد او في بيتين .

وعُني الوصف بالتصوير الشعري عناية فائقة ، يجري الشاعر وراءه يتصيده حذراً لانه سيحاسب على تشبيهاته وتصويراته من نقاد الشعر ، فقد صارت المفاضلة بين تشبيهات الشعراء من أهم مباحث النقاد .

المنهج التطبيقي

ثم أتاحت مجالس المنادمة والمناظرة ، والاطالة في الشرح والبسط والنقد للشعراء أن يسلكوا المنهج التطبيقي في الشعر والكلام ، وذلك أن يُعرض المعنى القديم ويُدرس وتحصى عيوبه ثم يقال في ذلك المعنى شعرٌ يخلو من عيوب القدامى ، فيسلم المعنى حين ذلك سلامة لا ينقص أطرافها عيب .

شعر الصنعة

وكان بحسب الشاعر القديم أن يجيد في غرض أو غرضين متصلين وليس عليه ألا يجيد في غير ذلك ، فقد فُضل زهير بالمدح والحكمة ، وفضل الفرزدق بالفخر وحده ، ولم يعرف ابن أبي ربيعة غير الغزل ، وتلك كانت طبيعة القدماء حين كان الشعر سليقة الشعراء ، أما وقد أصبح الشعر صنعة وفناً معبوداً ، لا سبيلاً مؤدية ، فأولى بالشاعر القدير أن يسلك بشعره كل باب وأن يخوض به في كل فن . وكذلك أصبح على الشاعر أن يجرب حظه في بحور الخليل كلها ويطيل فيها ، ولا عليه إذا تحرر من الرويّ ومن التصريع .

وكما كان العصر عصر القصائـد الطوال كان عصر المقطوعات القصيرة المسرفة في القصر حتى تصل الى بيتين او بيت واحد تتركز فيهما الفكرة ، وأنشئت المقطوعات من بحور الشعر ومجزوءاتها جميعاً ، وقـــد كان ذلك خاصاً ببحر الرجز من قبل ، وذلك لانصراف كثير من الادباء الى الحياة الادبية الخالصة وازدهار المجالس بالمناظرات والغناء ، ومن طبيعة المقطوعات أن تكون أليق بالمجالس لخفتها وصلاحيتها لان تحل محل النكتة والنادرة مع امتيازها بجمالها الفنيّ .

ويمتاز شعر المقطوعات بأنه أدلّ على الحياة الشاعرية الدائمة أكثر من دلالة شعر القصائد ، إذ يجوز لشعراء القصائد أن يباعدوا بـــين القصيدة والقصيدة في الانشاد . حتى تأذن المناسبة للانشاد من جديد ، أما المقطوعات فانها تصلح أن تكون لسان الحياة العادية في أمور الدين والدنيا كلهـا صغيرها وكبيرها ، والمنصرف اليها صارفٌ حياته كلها الى الشعر .

وكان لها شأن كبير في تصوير الحياة السياسية في قوة وعنف مؤثرين ، ولقد شاع قولها ، وأتيح لبعض الخلفاء كالمعتمد والمعتز أن يعبروا بها عن حالهم التي وصلوا اليها ، ثم أحسنوا في إنشادها لانهـا لم تكن تحتاج إلى جهد كبير .

وهناك شعراء في هذا العصر تخصصوا في قول المقطوعات ، فلم تعرف لهم قصائد طويلة ، وقد لذّعهم النقاد باللوم لانهم انصرفوا إلى هـــذا الفن الذي قصّر بهم عن القصيد كعلي بن بسام . ومهما يكن فقد كان أسلوباً للشعر شائعاً مألوفاً .

شعر النجوم

ومع ازدياد اهتمام الشعر بوصف الطبيعة والبساتين والازهـار والثمار فقد برز من بـــين شعر الوصف شعر خاص بصفات النجوم وتنقلهـا

ومظاهرها المختلفة في صفحة السماء ، فسمّي لذلــك شعر السماء واقبل عليه الشعراء إقبالاً عجيباً .

وكانت البادية اكثر اطلاعاً على النجوم لتحديد الامكنة ومعرفــة الازمنة ، ولم يغب اهتمام الناس بمواقعها في ايامنا نحن الا لسهولة معرفة الزمن بالساعات الدقاقة ، وسهولة معرفة أجزاء الارض بالتخطيط والاحاطة ، وقد ترك الناس للمراصد معرفة مواقع النجوم لانها أبصر بها من عيونهم وأدق حساباً ، وكانت كل هذه الاسباب داعية لئلا يدرس الناس عن النجوم شيئاً اللهم إلا من يدرسون الفلك في عيون المراصد .

وكنت تجد أثر هذا الاهتمام الضروريّ بالنجوم في البادية وفي شعر البدو الاقدمين . ثم قل الاهتمام بها يوماً فيوماً نزولاً من العصور القديمة الى العصور العباسية ، ومن العجيب أن يحيا هذا الفن فجأة في هـــذا العصر الذي نتحدث عنه ، وينتقل اهتمام البادية القديم به الى أهل المدن المستقرين على حفافي النهرين ، والعالمين بمواقــع البلاد وأجزائها ، وكان مبعث هذا الاهتمام أمور ، أهمها :

(١) الاهتمام بدراسة الفلك كعلم طارىء على العرب من اليونانيــة والهنديــة .

(٢) الايغال في وصف المرئيات والاشياء الدقيقـة واستيعاب القريب منها والبعيد .

(٣) شيوع الرحلة في أطراف الليل وجنه وراء اللذة والصيد ، ولا سيا للقادرين على عدة الطرَد من الخيل والخدم والكلاب وطيور الصيد .

وقد دفعت هذه الامور بالشعراء الى الاكثار من وصف نجوم السماء وكواكبها ، وتتبّع مواقعها اتفاقاً واختلافاً ، حتى أصبحت جملة الشعر التي قيلت في السماء صالحة لان تكون باباً مستقلاً من أبواب الشعر العربي .

وامتاز شعر السماء بالمقطوعات القصيرة . وقد يصوّر المنظر في بيتين او بيت واحد ، وذلك لانه لا يحتمل المقطوعات الطويلة ولا القصائد ،

ثم امتاز بأنه وصف للمرئيات ، فلا عيب فيه إلا انه لا يمس الروح دائماً ، وإنما هو كما تصور اليد منظراً مطابقاً لما تراه العين ، وقد يجيء المنظر نابضاً بالحياة او ناضباً منها ، كما امتاز بدقة الالفاظ وإحكامها ليكون التصوير محكماً بديعاً .

وتستطيع أن تعد من شعراء السماء كثيرين في القرنين الثالث والرابع . ومن الغريب أن تستمر هذه العناية بهذا الفن في القرون التالية ، وكأنما صار القول فيه أمراً تقليدياً حتى لمن لا يعرفون مواقع النجوم ، بل حتى لمن لم يروها كأبي العلاء .

ومن الممكن أن يقال إن عصرنا هذا الذي نعيش فيه قد اهتم هو ايضاً بمظاهر السماء ، ولكن مع فرقين هامين : (أولهما) : أنه مهتم بها جملة ، وأكثر اهتمامه بألوانها العامة لا أجزائها ، فهو يتحدث في الضوء والضحى والمساء والفجر والشفق والنجوم جملة . (وثانيهما) : أن الشعراء في عصرنا يخلطون وصف هذه المظاهر بالخيال والعواطف النفسية ، امـا في ذلك العصر العباسي المتوسط فقد كان الوصف فيه للنجوم وصفاً خالصاً .

البيئة الخاصة

مولد ابن المعتز

كان مولد الامير أبي العباس عبدالله بن المعتز على القول الشائع في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٢٤٩ هـ ، وولد لأبيه بعد مقتل جده المتوكل بعامين على القول الأصح . وكان عام مولده عاماً حافلاً بالمصائب العظام والأهوال الشداد ، فقد عاث الترك فيه فساداً بالمدينتين سامرا وبغداد ، وتحرك زلزال شديد نفض كثيراً مما على ظهر الأرض من منازل وأبنية ، ودفن الناس تحت ردمها ، ثم أصاب العراق طاعون مجتاح جرف في تياره خلائق لا تحصى ، وكذلك ترى مولده مولداً مشؤوماً

إذ جاء في عجلة زوبعة طحون ، وعاش ومات ولم يخرج من دائرة ذلك الأعصار المدمر .

وأصدق الظن أن ابن المعتز ولد في قصر (الكامـل) الذي شاده أبوه والذي كان من أعظم ما شادت يد الانسان في ذلك الزمان * ، وكان ذلك في خلافة المستعين ** ، ولم يتول أبوه المعتز الخلافـة إلا بعده.

تنشئته

وكانت جرت عادة الخلفاء والامراء من الاموية والعباسية ان يدفعوا بابنائهم الصغار الى اهل الفضل من المؤدبين ليتولوا ابناءهم بالتحفيظ والترقيق والملاينة ، فمن احسن التولي من هؤلاء المؤدبين فاز بأوفر العطايا واعظم الهبات ، وعلى سنة اولئك السلف جرى الامر في تربية عبد الله بن المعتز فتولاه أول من تولى محمد بن عمر الضبي ، وقد بذل الضبي في العنـــاية بالامير اكثر ما يقدر عليه من ضروب الاخذ والملاينة ، وايقظ بديهته ، وعلمه التأني وحسن التبصر لتسلم العاقبة ، وقد كافأه الخليفة المعتز ذات مرة بعشرة آلاف درهم حين أجابه ابنه بجواب حسَن لقنه له المؤدب . وقد جاوبت طبيعة ابن المعتز جهود مؤدبه على عجل ، فجعل يأخـــذ المؤدبين في بعض الاحيان بما كان يجب ان يسبقوا اليه :

قال محمد بن ظفر الصقلي : بلغني أن أبا العباس عبـــد الله بن المعتز نطق بالحكمة صغيراً ، فكان مما حفظ عنه في صباه أن مؤدبه قال له : لقد هممت بتأديبك لشيء كان منك ثم رأيت التجاوز عنك اولى ! فقال له عبد الله : اصلحك الله ! انك تراد للتأديب لا للتجـاوز ، وانه يلزم الحازم قبل ان ينبه على عفوه أن ينبه المسيء على اساءته ، ليتجافى عن

---

* انظر صفة هذا القصر صفحة ١٢ في كتاب يوم وليلة للمؤلف طبعة بيروت .

** أكثر آراء المؤرخين على هذا ولكن الدكتور طه حسين يرجح أنـه ولد في ظل جـده المتوكل وولد قبل مقتل جده باربعين يومـاً (انظر كتاب حديث الشعر والنثر لطه حسين) .

اشباه زلته ، وينزل العفو بمنزلته ! »

وقيل : ان مؤدبه سأله ان يكتب كتاب شفاعة لانسان يعز عليه ، فجعل يتباطأ في كتابته ويطلب التأمل ، فقال له مؤدبه : اكتب على ما خيّلتْ فلستَ ممن يُتفقد له * فقال ابن المعتز ، كلا ، ان عقل الكاتب في قلمه !

وقد عنى الخليفة المعتز بابنه هـذا وخصه بكثير من عطفه ، فضرب الدنانير باسمه وهو طفل صغير ، ولكنه لم يلبث ان قتل وابنه يدنو من الثامنة او هو قد خطا فيها اياماً ، فلحق الامير الصغير بجدته صبيحة ، ثم صحبها الى منفاهـا في مكة ، ومعها اسماعيل بن المتوكل وعبد الوهاب بن المنتصر ، بأمر من صالح بن وصيف بعـد ان صادر اموالها وجواهرها .

وظل الامير بمكة حتى افضت الخلافة الى المعتمد فبعث بحمله وحمل جدته والمنفيين معهم من الامراء الى العراق ، فعاد ابن المعتز مع جدته وفي رعايتها وقد اكتملت حداثته ، ونزل معها في دارهـا على الصراة في كرخ بغداد **

معلموه

رأت جدته صبيحة بعد عودتها الى العراق ان تدفعه الى اعلام عصره من المؤدبين والمعلمين من ذوي النظر والاهتمام بالعلوم القديمة ، لأن هذه العلوم في الطبقة الاولى كما حدثنا من قبل ، ولأنها أليق بالامير من الحساب والكيمياء ، وحاطته بخالص حبها وعنايتهـا لتبعده عن الخوض مع الخائضين في شئون القصور من قرب او من بعد ، وحسبها ان تدفعه الى هذا الجانب الآمن من الحياة ، فقد باتت كل جوانبها ممتلئة بالخوف والاضطراب .

وقد افلح معلموه في تأديبه والانتقال بنظره وقلبه من ذلك المضيق المضطرب حوله الى محيط لا نهاية له ولا سكون لاضطرابه ، هو محيط العلماء خارج دور الخلفاء ، وهو هذا الكون كله في هيئته الساكنة والمتحركة ، وفي علمه ودينه ، ومظاهره وخفاياه ، وبسائطه وعقده ، ومبدئه وغايته ، لا كما يفهم الفلاسفة ، ولكن كما تفهم هذه المدارس القديمة وكما تدرك متأثرة بالفكر العربي الخالص وغير الخالص من غير قصد ، ولم يلبث ابن المعتز غير قليل حتى صار واحداً من هؤلاء الامراء اهل العلم والبيان كما كان واحداً من وحدان الامراء ورثة التيجان والصولجان .

اصبح الامير بعد اكتمال حداثته بين ايدي جلة من علماء ذلك العصر واعلامه فقهاً وتفسيراً وتاريخاً وكلاماً وادباً ولغة ، ثم في صحبة علماء وادباء من ذوي الرأي والفضل من غير المعلمين ، فكان لا يجد نفسه اذا انتقل او اقام ، واذا حدّث او سمع ، واذا هدأ او ثار الا في حلبة هؤلاء العلية يأنس اليهم ويلوذ بصحبتهم .

البلاذري

فاذا اراد القرآن والتفسير رغب في مجلس ابي جعفر احمد بن يحيي بن جابر المشهور بالبلاذري تلميذ ابن سعد والمدائني ، فيأنس له ويطمئن اليه ، لان البلاذري يهتم بالقصص والتاريخ : تاريخ العالم عامة والاسلام خاصة : يسمعه منه ابن المعتز عربياً اسلامياً نقياً حيناً ، ومختلطاً بالاسرائيليات والمسيحيات وغيرهما حيناً آخر .

والبلاذري كان احد النقلة من اللسان الفارسي الى اللسان العربي فهو متأثر بالفارسية ايضاً ، وكان التاريخ الاسلامي محبوباً حب الناس لسماع القصة اياً كان نوعها ، ومحبوباً لكثرة صور البطولة والمروءات فيه ، ولانه حين ذلك كان فرعاً من تفسير القرآن والحديث ، وحسبك بهذا ترغيباً في دراسته وتحبيبا .

الدمشقي

فاذا ما روِي الامير من هذا القصص وملأت جوانبه العظة والعبرة مال من مجلس البلاذري الى آخر قد اتخذه مؤدبه فلا يكاد يفارقه ، هو احمد بن سعيد الدمشقي ، فيتحلل عنده من قيود الفقـــه وقوانينه ووقار مجلس العلم الديني والحديث ، فيسمع فنون الشعر ومسالك الشعراء وفنون الادب وخواطر الادباء ، ويتعلم الحجة المتأثرة بالفلسفة النابتة في ارض العراق خليطاً مشوبا من الاسلامية والكتابية والوثنية ، ثم يخلص من كل ذلك الى تثبيت العقيدة الاسلامية في نفسه ، والى نصرة مذهب اهله الذين اختاروه ، وطريقهم الذي اتبعوه ، وهما مذهب اهل السنة وطريق ابي حنيفة النعمان .

ثعلب والمبرد

وقد اولع ابن المعتز بمعلمين آخرين غير هذين ، اولع بهما كما اولع بهما جميع اهل عصره والعصور التي تلت ، وكثر تلاميذهما يحجون اليهما من كل الآفاق ، أحدهما ابو العباس ثعلب ، وثانيهما ابو العباس المبرد .

كان هذان المعلمان متفقين ومختلفين ، اتفقـا في الفضل وقدر العلم ، واختلفا في النهج والطباع ، فثعلب يسلك مذهب المعلمين فلا يعطي اكثر مما يطلب منه ، والمبرد يفيض ويزيد ، وثعلب يروغ من المبرد لانـه يغلبـــه اذا تنازعا ، والمبرد يبحث عنه لينازعه فيفوز بحكم الناس له بالغلب في مجالس المباحثة التي كانت تعقد في بيوت العلية والكبراء للنظر بين الفقهاء والمتكلمين في انواع العلوم العقلية والسمعية أصولها وفروعها ، ولكنهما برغم ذلك ليبيان يتواضعان للعلم ويتعاليان على العامة من الناس .

ويجلس ابن المعتز الى هذا مرة والى هذا أخرى ، ثم يجمعهما مرة ثالثة ليفكـه نفسه بنزاعهما ويصير حكـماً بينهما .

وإذا جلس الى ثعلب وجد فيه صورة صادقة لابن الاعرابي في النحو

تمزج بين رأي أهل الكوفة ورأي أهل البصرة ، وتخلص إلى صورة جديدة جامعة تؤلف بينهما ، ووجد فيه بحر علم ممتد الآفاق قد وسع حفظه الشعر العربي القديم ، وألمّ بمسائل اللغة وطرائفها وزوايا النحو ودقائقه ، ثم رأى فيه معلماً متزمتاً ذا جدّ ، يجب أن يكون له وقار المعلم وسمته في كل مجلس وأمام كل عين حتى لو كانت عيون الامراء ، وهو رجل صادق اللهجة دائماً ، وهو أصدق لهجة حينما يعلو في أسلوبه لابن المعتز .ويعرض عليه فيه صوراً شتى من فصيح كلام العرب وقواعد شعرهم ونحوهم ، ثم يعطف على أخبار العرب ومعاني القرآن ، ويخص ديواني زهير والأعشى بالرواية والعناية والشرح والتفصيل ، ثم يعرّج به على شعر النابغة وطفيل والطرّماح ، وقالوا إنه كان يعرج به على شعر له ايضاً فقد كان ثعلب شاعراً * ولكنه ظن بعيد .

حتى إذا انتهى الامير من درس ثعلب شمر عن ساعده الى البحر الطامي محمد بن يزيد المبرد الذي انتهى اليه نحو البصرة بعد طبقة الجرمي والمازني ، فيجده ممتد الآفاق كذلك ، كثير الحفظ عالماً بدقائق النحو واللغة والعروض ، واسع العلم في الأدب والبلاغة والقرآن . وكان كثير الأنس بهذا المعلم لما رآه فيه من التدفق وحسن العبارة وفصاحة اللسان ، ولما رآه فيه من قبول الجدل والمحاجّة وعدم الزهو بالفوز إن غلب ، والنزول على رأي مخاصمه في رضاً وتواضع إن كان الحق للخصم فانتصر ، ولما رآه فيه من مطاوعة البديهة والقدرة على إملاء علمه في المجلس على طلابه الكثيرين في ثقة من علمه واعتزاز .

---

* حكوا عن ثعلب أنه وصف قطائف قدمت له بين يدي الخليفة المكتفي بقوله :

قطائف قد حشيت باللوز ... وسكر الماذي حشو الموز
تسبح في آذي دهن الجوز ... سررت لما وقعت في حوزي
سرور عباس بقرب فوز

والأرجح أن ثعلباً تمثل بهذه الأبيات وليست له وإنما هي لابي يحيى بن أبي منصور المنجم . والماذي = العسل . والآذي = الموج . وعباس هو ابن الأحنف . وفوز معشوقته .

وقد دامت آصرة المودة بينهما ، واستشفع الناس بالمبرّد لدى ابن المعتز فما رد استشفاعه :

قالوا : غضب ابن المعتز يوماً على أحد وكلائه ، فصار الوكيل إلى المبرد يسأله أن يشفع له لدى الامير . فكتب اليه المبرد : أنت والله كما قال مسلم بن الوليد في جدك الرشيد :

بأبي وامي أنت ما أندى يدا … وأبر ميثاقاً وما أزكاكا
يغدو عدوك خائفاً فاذا رأى … أن قد قدرت على العقاب رجاكا

فذهب غضب ابن المعتز على وكيله .

وأعظم أثر تركه المبرد في تلميذه كان توجيهه للتشبيه ، فاشتغل به طول حياته ، لأنه كان حين يعرض الحسن والرديء من أقوال الشعراء القدامى وبعض المحدثين يمضي فيها فيشرح روعتها ويبين جمالها ، ولا يكتفي بنقد التشبيهات وجودتها وتبيين المعنى المبتكر او المسروق ، ولكنه كان يتعرض للشعراء ومذاهبهم الشعرية وأكثرهم تشبيهاً وأندرهم ، ويعلل ويستشهد ويعقب برأيه في كل ما يورد استحساناً او استهجاناً .

وثعلب والمبرد أفضل اثنين لقيهما ابن المعتز من المعلمين ، بل انهما إماما عصرهما في العلم واللغة جميعاً ، حجّ اليهما الطلاب من العراق والاطراف وسجستان وأغدقوا عليهما الاموال ، ولم يأل طالب علم في ذلك العهد جهداً أن ينفق المال فيه ، حتى كان الغني منهم ينفق في تحصيله مئات الألوف من الدنانير .

وقد قيل إن ثعلباً مات وخلف واحداً وعشرين الف درهم والفي دينار وغلّة بشارع باب الشام قيمتها ثلاثة آلاف دينار .

وقد مدح هذين العلَمين أبو بكر بن أبي الأزهر بقوله :

أيا طالب العلم لا تجهلَن … ولذ بالمبرد او ثعلب
تجد عند هذين علم الورى … فلاتك كالجمل الاجرب
علوم الخلائق مقرونة … بهذين في الشرق والمغرب

ابن هبيرة

وهناك علم آخر من الاعلام اختص بابن المعتز وكان له فيه أثر عظيم . ذلـــك هو أبو سعيد النحوي محمد بن هبيرة الاسدي المعروف بصعودا من اعيان الكوفة ومن اعلمهم بالنحو واللغة وفنون الادب ، وكانت له ميزة عن كل اولئك المعلمين ، تلك انه كان احد المعنيين بدراسة شعر المحدثين ، والمجيدين لحفظه ومعرفـــة محاسنه ، فهو غير ثعلب والمبرد في مذهبهما ، اذ هو يحتج بالجديد ويعرف له فضله .

اختص هذا المعلم بالامير حين قـــدم بغداد ، وكتب له رسالة فيما انكرته العرب على ابي قاسم بن سلام .

ولما كتب صعودا كتاب « مختصر ما يستعمله الكاتب » كان ابن المعتز قد استحصد ، فأصلح المختصر ووافق على ما جاء في رسالة صعودا في ابن سلام .

وقد وجه صعودا هـذا نظر ابن المعتز الى شعر الطائي ، وحمل اليه اخباراً كثيرة عنه وحدثه بفضله وسبقه ، ولم يزل بـه حتى اعجب بأبي تمام اعجاب معلمه به ، وروى اخباره كما رواهـا ، ثم روى معها اخبار البحتري ، واصبح الامير بفضل معلمه هذا من انصار ابي تمام والمقتدين به والمتعصبين له .

عشراؤه

وكان من عشراء الامير غـير هؤلاء ابو بكر محمد بن يحيي الصولي ، وقد كان صديقاً وفياً ، الا انه لم يستطع انقاذه من يد مؤنس في فتنة المقتدر * ، والصولي راوية مكثر ، وشاعر محسن ، وأديب ظريف حافظ جماع للكتب ، وقد بلغ من روايته الواسعة ومحفوظاته الكثيرة انـه كان له فيما يقولون خزانة كتب كبيرة من تصنيفه ، جلودها مختلفة الالوان ،

---

* انظر صفحة ٩٧ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

وكان يعجب بها ويتباهى ويقول : هذا كله سماعي . واذا ما احتاج الى معاودة شيء منها قال : يا غلام ، هات الكتاب الفلاني . وقد قال فيه ابو سعيد العقيلي :

انما الصولي شيخ　　اعلم الناس خزانه
ان سألناه بعلم　　نبتغي عنه الابانه
قال يا غلمان هاتوا　　رِزمة العلم فلانه

وكان الصولي من ألعب أهل زمانه بالشطرنج . وصار لهذا اول ندماء الخليفة المكتفي والمقتدر من بعده ، وقد اعتمد الصولي في أخباره عن ابي تمام على كثير من رواية ابن المعتز له .

ومن عشرائه محمد بن القاسم بن خلاّد البصري الكاتب صاحب النادرة والمشهود له بالذكاء . وعبدالله بن طاهر بن الحسين الراوية المؤلف والشاعر اللطيف الرقيق الحاشية والحسن السبك والمقصد . وجعفر بن محمد بن قدامة الذي أخذ اللغة وغريبها عن صعودا صاحب الفرّاء ، وقدامة بن جعفر احد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء .

ولعله لم يفته أن يجالس الزّجاج المؤلف تلميذ المبرد ونديم المعتضد ومعلم ابنائه والمقرب الى الوزراء من آل وهب . وابن السراج صاحب المنطق والموسيقى تلميذ المبرد . وابن درستَوَيْه تلميذ المبرد وثعلب . وابن العلاف الشاعر نديم المعتضد . ومحمد بن القاسم الانباري تلميذ ثعلب . ولعله لقي ايضاً ابن قتيبة ونفطوَيه وعمر بن شبّه وابن ابي فنن . وعلماء وندماء لا يحصون عدداً من الأئمة ورجال الفقه والحديث والشعر والرواية ومختلف الفنون .

اثر البيئتين فيه

اتصل ابن المعتز أوثق اتصال بهذه البيئة الخاصة ، وهي بيئة من العلماء الذين ينظرون في العلوم العربية ، ولكنك لا تستطيع ان تصف

واحداً منهم بأنه قد تخصص في صنف من العلم القديم دون صنف ، فالتخصص في العلم لم يكن من شيمة ذلك العصر .

وما كان ابن المعتز ليستطيع أن يقبض نفسه عن العالم الخارجي او يمنع شهوته من الامتداد إلى معاشرة الخلفاء والامراء وهم يدعونه اليهم ، ولا سيما حين نبه شأنه وعلا ذكره ، فألقى بنفسه بين أيدي هذه الجلة من خاصة علماء عصره ، ولكن نفسه ألقيت برغمها في البيئة العامة واضطربت اضطرابها .

ولم يكن ابن المعتز يخلو من شهوة ، فقد غلب عليه المزاج الشعري وصار له فيه مذهب خاص ، واستحث خطاه مترسماً خطوات الشيطان في الاديرة والسميريات والخلوات ، وفي داره أو في مجالس اللهو والغناء * .

وكان الرجل يلقي بعقله احياناً الى العلم والفهم ، أما نفسه فكانت دائمة الانصراف الى الشهوات ، وقد لزمه الخيال الشعري في كل ما أنشد وما ألف ، حتى في أسماء كتبه التي منها : كتاب الزهر والرياض وكتاب البديع ، وكتاب مكاتبات الاخوان بالشعر وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب السرقات ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب الآداب ، وكتاب حلي الاخبار ، وكتاب طبقات الشعراء المحدثين ، وكتاب الجامع في الغناء ، وكتاب الفصول القصار ، وكتاب تباشير السرور ، وكتاب المؤتلف .

وقد سلم أدب ابن المعتز وإنتاجه العلمي للناس ، وقرّبه مكانه من العلم الى الخلفاء والى الوزراء ، حتى إذا ضعف بعض الضعف عن امساك نفسه دون شهوتها السياسية واشتد دفع الطامعين له إلى الخلافة تلفت نفسه ، ولم تجد جثته من يُعنى بدفنها ، ولكنه ظل حياً بعلمه وأدبه ، وسيظل نابضاً بالحياة ما اختلف الملوان وتعاقب النيران .

---

* انظر صفحة ٢٩ الى ٣٢ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

مذهبه الشعري

السهولة والوضوح

ذهب ابن المعتز في معظم شعره مذهب السهولة والرشاقة والوضوح والقرب واللين يتوخاها جميعاً ، فيختار المعنى قريباً واضحاً ويختار اللفظ عذباً مليحا ، فلا يغرب به على سمع احد من حيث لاتنقصه الجزالة ، ولعل النظر الى الكلام بهذه النظرة كان مذهباً شائعاً في ذلك العصر ليقابل مذهب ابي تمام في ايثاره الاغراب والغموض * واستاذ هذا المذهب البحتري الذي يصف الكلام الجيد بقوله :

في نظام من البلاغة ما شك امرؤ انه نظام فريد
حزن مستسهل الكلام اختيارا وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد

---

* لا يخفى ان المراد بالقرب ان يثير في السامع اعمال الفكر ليدرك المعنى واضحاً ، أما السهولة المبتذلة والتي لا تحتاج الى اعمال الفكر فليست مرادة .

ولكن ابن المعتز يبالغ في هذه السهولة فيدنو بألفاظه من الفاظ الناس وادراكاتهم ، مع الاحتفاظ بـــه متماسكا في معظم الاحيان ، قوياً في بعضها ، دانياً قريباً احياناً ، ولا يصف لك هذا الادناء والتقريب في شعره ، حتى لتكاد تحسبه ناثراً الا مثل قوله :

« كأني بك قد قلتَ ، وأطنبت وأكثرتا ، وهوّنت وعظمت ، واسرفت وافرطتا ، وقرّبت وبعّدت وطولت وعرضتا ، ووليت واقبلت ، وقدمت وأخرتا . فدع عقلك هذا فبالعقل تبرعتا »

الا ان ابن المعتز لايستطيع ان يجد لشعره في الطرَد الفاظاً قريبة ، فيضطر الى الاغراب في أراجيزه وطردياته على الاخص كما سيأتي .

وكذلك يتوخى الوضوح والسهولة في الاسلوب ، فـلا يعقد ولا يقدم ويؤخر ، ولا يصعب ويصلب ، وهو في كل ذلك انما يساير طبعه الرقيق ومزاجه اللطيف ، ويسلك مسالك اولاد الملوك ، فهو لايتحاشى الخشونة والغرابة عن صنعة واحتيال ، بل لطبع مخلوق ومزاج موروث .

ويراود ابن المعتز المعاني مترفة كريمة فتطاوعه قوية قريبة ، ويلبسها اسلوبه الرشيق فيتجانس لفظه ومعناه اتم تجانس ويتماثلان ، وكأنما لسانه وقلبه قد قرب احدهما من الآخر واتفقا وتقابلا ، فانعكست صور قلبه انعكاساً واضحاً صادقاً على مرآة لسانه ، وعلى هيئتها وحقيقتها ، وقـد صفا ابن المعتز ورق كضحضاح الماء النمير يظهر سطحه وقراره لاول لحظة من ناظر ، ويبين اهتزازه وسكونه لأدنى ادراكة من لامح ، فما ينوي عملا او يتحرك في نفسه خاطر او يهمس بين جنبيه هامس الا ظهر على لسانه مصوراً في كلامه ، وكأنمـا خلق ابن المعتز وليس له سر ، فهو ينقل دائماً ما في قلبه للناس غير متغير ولا منقوص .

وقد صار الناس في مذهبه هذا على فريقين ، فريق يحبه ، وفريق يطعن عليه ، فنظر قوم الى تقصيره فغمطوا حقه ، ونظر آخرون إلى جيده ففضلوه ، ولم يعدل أحد في الحكم عليه من بعده ومن قريبي العهد به أكثر من

أبي الفرج الاصفهاني ، فإنه وفاه حقه ، واعتذر له في ميله عن الاغراض القديمة برقـــة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين ، وهو دفاع أشبه بدفاع المدرسة الجديدة : مدرسة المحدثين أمام مدارس القدماء من أهـل النحو واللغة الذين ظلوا يفضلون القدماء ولا يرون المحدثين شيئاً ، لتأثرهم بالاخذ عن الأعراب وأهـــل البدو فصيحَ الكلام ، ولايلافهم ما جمعوه وحفظوه من الشعر الجاهلي والاسلامي .

وكذلك دافعَ عن مذهبه هذا عمر بن علي المطوعي في كتاب الفـه في شعر أبي الفضل الميكالي ومنثوره وفي فِرَق الشعراء ، وذهب فيـــه مذهب الفرزدق في نقد الشعر حيث يقول :

وخير الشعر أكرمه رجالاً وشر الشعر ما قال العبيد

فذكر (المطوعي) أن امرأ القيس في المتقدمين أمير الشعراء غـير منازَع وسيدهم غير مجاذب ولا مدافَـــع ، وعبدالله ابن المعتز بالله امير المؤمنين في المولدين ...

التجديـــد

وقد قيل إنه أخذ معظم معاني من سبقوه ، اوقعهم في هذا القول كثرة حفظه واتساع أفق اطلاعه ، ومع ذلك فقد حافظ على شخصيته فيما أخذ وفيما لم يأخذ ، فامتاز شعره عن شعر سابقيه وعن شعر لاحقيه .

ولقد أبلغه مكانه من المجتمع فساحة في الحرية ، لا تتاح لكثيرين من الادباء ، وهم لا يستبيحونها لانفسهم ، بل يجدون في انفسهم حَرجاً ان يؤتوها ، ويظلون في مضيق التقليد والخوف من التعقيب على السالفين ، ويتحرزون من التصرف في المعاني التي سُبقوا بها . اما هذا الامير فقد انطلق حراً شجاعاً يبتكر ما وسعه الابتكار ، ويتصرف في المعاني كلما عنّ له ان يتصرف ، ويتكىء على نفسه كثيراً في التصرف والابداع ، فان اخذ عن الناس استعان مقدرته وخياله فتنقدح له من بين ما أخذ

معان غريبة لم يُسبقْ اليها ، وإنه ليروقه المعنى المبتكر او المسبوق فيقول فيه ويكرره غير مبال ولا هياب ما دام له فيه شيء جديد ، وهكذا يحسن الاخذ ويحمد التجديد .

نعم إنـه مسبوق بالتجديد منذ اصبح المحدثين شعر غـير شعر القدماء ، ومنذ شيخ المحدثين والمجددين بشار ، ولكنه جرى في صياغة الشعر كما جرى ابو تمام ، فبعُدا به معاً عن الصياغة التي جرى عليها الشعراء السابقون .

قال ابن رشيق في معرض المفاضلة بين طبقة ابن المعتز : « وما اعلم شاعراً اكمل ولا اعجب تصنيفاً من عبدالله بن المعتز ، فان صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر في بعض المواضع الا للبصير بدقـائق الشعر ، واقربهم قوافي واوزاناً ... ثم قال : وانتهى علم البديع والصنعة اليه وختم به »

العروض

وقد انشد ابن المعتز من بحور الخليل كلها واطـال فيها ، ووافق مجالسه في اللهو والخمر ان ينشد المقطوعات الكثيرة التي يرشح فيها للمعنى المراد بالبيت او البيتين ، فيأتي الثاني أو الثالث ختاماً قوياً ، والامثلة في شعره كثيرة جداً في هذا الضرب .

اما مطالِعُ قصائده فتدل على حسن الذوق والاختيار والحرية ، وقد اكثر من الانشاد في الاوزان القصيرة والمجزوءة تمشياً مـع السهولة التي كلف بها وهي اليق به وبعيشه وبيئته .

ولم يهب ابن المعتز ان يقول في الروي الصعب من القوافي كروي الظاء والواو والثاء . ثم يعن له ان يتحرر من الروي فيتحرر ، ويعن له ان يصرع مرة ومرتين في القصيدة فيفعل ، وذلك في مثل قصيدة له يعتب فيها على الدهر فيقول في مطلعها :

يا دهر يا صاحب الفجيعات   في كل يوم تسيء مراتِ

ثم يعود بعد ابيات منها فيقول مصرّعاً :

قد كنت ابكي اهل المودّات فصرت ابكي اهل المروءات

وفي قصيدة اخرى يقول في مطلعها :

يا دار يا دار اطرابي واشجاني ابلى جديدَ مغانيك الجديدان

وبعد هذا المطلع بقليل من الابيات يعود فيقول مصرعاً :

لما وقفت على الاطلال ابكاني ما كان اضحكني منها وألهاني

واغلب علماء العروض على ان كل هاء تحرك ما قبلها فهي صلة ، الا ان تكون من نفس الكلمة فانك تكون فيها بالخيار ان شئت جعلتها رويا . وكثيراً ما يسقط الشعراء في هذا النوع ، ومنهم ابن المعتز ، قال :

افنى العُداةَ امام ما له شبه ولا ترى مثله يوماً ولم تَرَهُ

ضارٍ اذا انقض لم تُحرَم مخالبهُ مستوفِزٌ لاتباع الحق منتبه

ما يحسن القطر ان ينهل عارضه كما تَتَابَعُ ايامُ الفتوح له

وقال ايضاً يصف كلاب الصيد :

ان خرطت من قدها لم ترها الا وما شاءت من الصيد لها

تمسكه عضا ولا يَدْمَى به غريـــزةً منهن او تفقهـــا *

المغايرة

ولا يأبى ابن المعتز ان ينظر الى الشيء مرتين وينشد في وصفه الضدين ، فيمدحه مرة ويرجع عليه بالذم اخرى مناقضاً نفسه ، او مكافئاً بين الادلة ، وملزماً لسانه ان يجيد في الحالـــين وان يطرب السامع ويقنعه اذا سمع الضدين ، وهو في هذا المذهب يرى — كما يرون — ان مناقضة الشاعر نفسه ومغايرتها في معنى من المعاني دليل القدرة على البديع ، الامر الذي يدل على جودة الطبع وصفاء القريحة وغزارة المعاني وتوسع الالفاظ .

---

* العمدة الجزء الاول ص ١٣٥

وضمير الفاعل في يدمى للطير ، والهاء في « به » عائد على العض.

ومن تلك المغايرة مدحه الشرب في الصحو وذمه في المطر بقوله :

انا لا اشتهي سماء كبطن الـ عَير والشربَ تحتها في خراب
بين سقف قد صار مُنخلَ ماء وجدار مُلقىً وتـل تراب
وبيوتٍ يوقّع الوكفُ فيها نّ وايقاعُه بغير صواب
انما اشتهي الصبوح على وجـ ـه سماءٍ مصقولة الجلباب
ونسيم من الصبا يتمشى فوق روض ندٍ جديد الشباب
وكأن الشمس المضيئة دينا رٌ جلته حدائد الضرّاب

ثم عاد يمدح الشرب في المطر في قوله :

لا شيء يسلي همي سوى قدح تدمى عليه اوداج ابريق
في يوم غيم يزجي سحائبه برقُ ابتسام ورعدُ تصفيق

وارجوزتا ابن المعتز في مدح الصبوح وذمه مشهورتان ، وقد مدحه في الاولى ومطلعها :

لي صاحب املّني وزادا

ثم عاد عليه بالذم في الاخرى ومطلعها :

على الصبوح لعنة الرحمن *

ومن مغايراته ايضاً قوله يمدح الجود :

اذا لم اجدْ بالمال جاد به الدهر على وارثي والكف في قبرها صفر

وعوده يمدح البخل ويحث عليه في قوله :

يا رُبّ جود جرّ فقر امرىء فقام للناس مقام الذليل
فاشدد عرى مالك واستبقه فالبخل خيرٌ من سؤال البخيل

ومن مغايراته قوله يمدح القمر :

ومصباحنا قمر مشرق كترس اللجين يشق الدجى

وعودُه اليه بالذم في قوله :

---

* يحسن بنا ان نشير هنا الى ان معظم خمريات ابن المعتز في الصبوح ، فليرجع الى ديوانه .

يا سارق الانوار من شمس الضحى ... يا مثكلي طيب الكرى ومنغصي
ما ضياء الشمس فيك فناقص ... وأرى حرارة نارها لم تنقص
لم يظفر التشبيه منك بطائل ... متسلح بَهَقاً كجلد الابرص

وقد قلنا من قبل إن هذه المغايرة كانت اثراً للاضطراب الفكري العام في ذلك العصر ، ونزيد الآن أنها في ابن المعتز خاصة أثر اضطراب مزاجيّ ورثه من ابيـــه ، ولكنه استطاع ان يحوله من اضطراب في المزاج وتردد مذموم في السياسة الى ذبذبة أدبية وطرافة ممدوحة ، ولانه كان متكلماً مجادلاً يضع البراهين فهو يمتحن قدرته في وصف الشيء من وجهه الحسن والقبيح على سواء .

البديـــع

وابن المعتز يحفل بالبديع ، وإنما يقتصد فيه ولا يسرف إسراف ابي تمام فلا يكون ممقوتاً ، وكأنما واتاه طبعاً فلم يصنعه ولم يتكلفه ، وقد تحرز ايضاً ان يقع في سوءات بديع الطائي . ومن نحا نحوه ، وهو الناقد المذهبه المبين لنقائصه ، ولكنه وقـــع — مع تحرزه وحذره — في ابتكارات ضعيفة وتكلف ملوم ، ولم يسلم شعره من النقد ، وقد جاء النادر منه خارجاً عن الذوق الادبي الرفيع لحرية الفاظه وحرية تصويره ، ومثل هذا الشعر قاله في مجالسه الخاصة حيث يباح الخروج عن الكلفة .

ومن بعض ما جاء بيّن الضعف عند نقاد الادب قوله :

أثمرت أغصان راحته ... لجنـــاة الحسن عنـــابا

فوصف الاصابع بالاغصان مغالاة في الصنعة خرجت بها عن الحسن .

وقوله في المعنى نفسه :

أشرن على خوف باغصان فضة ... مقوّمـــة أثمارهن عقيـــق

وصاحب العمدة يقول : ليس في هذا التشبيه اصابة .

ومن ضعيفه ايضاً قوله :

يكاد لولا اسم الاله يصحبه تأكله عيوننا وتشربه

ونسبة الأكل والشرب للعيون بعيدة .

وقوله ايضاً ، وهو ظاهر التكلف :

مات وصالٌ وعاش صدٌّ وذل مولىً وعزّ عبد

وكذلك جاء بعض تشبيهاته جامداً لا حياة فيه حيث تحسن في الصورة الحركة والحياة ، ومن هذا النوع قوله يصف عجاجة :

وعمّ السماءَ النقع حتى كأنه دخان وأطراف الرماح شرار

فأين هذا من تصوير بشار لها بقوله :

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافَنا ليل تهاوى كواكبه

فلا هو بلغ مبلغ بشار في تجسيم الصورة وتصوير الحركة والحياة فيها ، ولا هو جعل فيها من الهول والتفزيع ما تطلبه ، فجاءت هينة ميتة لا تُرهب ولا تثير .

ويتأثر ابن المعتز بمعاني القرآن والحديث تأثراً ظاهراً فيصوغ معنى الآية او الحديث في لفظه وكأنه من عنده ، وذلك مثل قوله في الله تعالى : « ويدنو من الداعي ويعطى فيكثر » . وقد تأثر بقوله تعالى : « واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان » .

ومثل قوله فيما ينفع من المال :

إنما ماليَ ما انفقتُه * والذي اتركه للورثة

قد تأثر فيه بحديث مشهور .

وكذلك يكثر اقتباس ابن المعتز من الأمثال والشعر القديم وذلك كقوله : « .. فقد عدت بعد النسك والعود أحمد » .

وفي [illegible] نوع من التشطير في قوله :

---

* الواو هنا تعطف الجملة على سابقتها وليس العطف على (ما) لئلا يغيب المعنى الذي يريده ابن المعتز .

ولم آت بعدها بالتشبيه فض الله فمي » ويريد بكأن » اداة التشبيه او ارادته . وقد سلّم الناس بزعامتـــه فقالوا : اذا رأيت كاف التشبيه في شعر ابن المعتز فقد جاءك الحسن والاحسان .

وقالوا انـه لما كان غـذيّ النعمة وربيب الخلافة ومنقطع القرين في البراعة تهيأ له من حسن التشبيه ما لم يتهيأ لغيره ممن لم يروا ما رآه ولم يستحدثوا ما استحدثه من نفائس الاشياء وطرائف الآلات . وبهذا المعنى اعتذر ابن الرومي في تقصيره عن شأو ابن المعتز في الاوصاف والتشبيهات ، مع ان ابن المعتز كان ناشئاً وابن الرومي قد اوفى على الستين . وضربوا المثـل للفرق بين الشاعرين بتشبيه ابن المعتز لهلال العيد بزورق الفضة المثقل بحمولة من العنبر ، وبتشبيهه للآذربون حين يقابل الشمس بمداهن الذهب التي بقيت فيها بقية من طيب الغالية ، والقصة معروفة واشهر من ان نعود الى ذكرها بالتفصيل .

وقصة ابن الرومي مع ابن المعتز هذه تصلح في التشبيه الذي يستفيد نفاسته من نفاسة المشبه به . اما وابن المعتز قد عاش في مختلف طبقات الناس وعرف عناصر بيئاتهم فانه يتساوى مع ابن الرومي في تشبيهاته ، وله في ذلك الشيء الكثير . فهو اذن يتساوى مع ابن الرومي فيما يراه ابن الرومي في بيئة الناس ، وينفرد عنه بما يراه هو في بيئته خاصة ، وهذا هو الحكم الصادق في حل قضيتها هذه ، ولعله رأيي خاصة بعد دراسة شعر ابن المعتز دراسة مستفيضة . وكان ابن الرومي في حكمه عـــلى النوع الاول من تشبيهات ابن المعتز صادقاً كما قال ابن جني : من ان صفة الانسان ما رأى يكون لا شك اصوب من صفة ما لم ير .

وهناك اسرار غير الكثرة والحسن والنفاسة في تشبيهات ابن المعتز ، ذلك انه يتوخى الايجاز في التشبيه فلا تراه يطيل فيه ، وسرعان ما يلحق الطرف الثاني بالاول في كلامه ، فيصل المعنى الى السامع سريعاً لم ينطفىء لمعانه او تضعف قوته .

ثم انه اطلق لفكره العنان فلم يضيّق عليه ولم يجبره ان يلتزم طريقة القدماء في تشبيهاتهم ، بـــل تركه يبتكر حراً وثاباً جريئاً ، فظهرت شخصيته في التشبيه ، ولم يعد يستعصي على ذي بصر وخبرة ان ينسب تشبيهات ابن المعتز اليه ، ولم يبق ابن المعتز على مذهب القدماء الذي يقول فيه ابن جني : ان تشبيه الانسان ما عاين بما عاين افضل من تشبيه ما ابصر بما لم يبصر ، بل شبه ابن المعتز المعنوي او المحسوس بالمعنوي متى اتضح في الذهن اتضاح المجسّم ، ولم يبال بانه لم يُسبق في ذلك بكثرة بالغة ككثرته ، وهذا يعد مظهراً قوياً من مظاهر حريته في التعبير ، ويعد كذلك مظهراً من مظاهر تأثره بالتفلسف والكلام في عصره . ومن امثلة ذلـــك قوله يصف الشيب :

ان شيب الرأس نَور الهموم

وقوله يتغزل :

يقول العاذلون تعزّ عنها   وأطفِ لهيب قلبك بالسلوّ
وكيف وقبلة منها اختلاسا   ألذّ من الشماتة بـــالعدو

او قوله يصف الفرس :

يسبق شأو النظر الرحيب   أسرع من ماء الى تصويب
ومن نفوذ الفكر في القلوب

او قوله يصف الكاس :

وقد خفيت من لطفها فكأنها   بقايا يقينٍ كاد يذهبه الشك

ثم إن ابن المعتز لما كان رجلا رخيّ البال مخدوماً فانه كان ينفق كل وقته لما شاء وكما شاء ، فهو سائح وراء التشبيه يتصيده انى وجده ، والتشبيه يدنو له كلما التمسه . نعم إنه حيناً ينظر في ماعون بيته وأثاثه او بالاحرى في ماعون بيوت الخلفاء وأثاثهـــا ثم يشبه بها ما أراد ، فتكون تشبيهاته غرر التشبيهات ، وأحياناً يشترك مع الناس فيما يعرفون وَيَرَوْنَ خارج داره وخارج دور الخلفاء ، لانه واحد من وحدانهم فيشبه

بالشيء من بيئتهم ، ولكنه لا بغية له من ذلك إلا صنعة التشبيه وصيده والتسلية به ، اما الآخرون فهم مشغولون بالتصرف في الشعر بين التشبيه وغيره ، يطلبون بشعرهم حاجاتهم ، فحين كان قضاء حاجات الشعراء موكولاً الى شعرهم كان ابن المعتز ينشده للتسلية واللعب ، فكان عنده ضرباً من الزينة والترف . ولسنا نعيب عليه ذلك ، بل ولا نجد أليق به من هذا المذهب . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد أصبح الشعر معبوداً لذاته يُعنى الشعراء به عناية فنية ، تغلبها راجع الى الشكل ، وصار على الشاعر ألا يخاطب به القلوب والمشاعر فحسب ، وانما يؤلف للأذن ألواناً تأنس اليها كالالوان التي تألفها العين ، وليس على الشاعر الذي يشمت نفسه بالملذات أن يذهب في غير مذاهب الزينة والترف .

وشيء آخر شكليّ في تشبيهات ابن المعتز فطن له الشريف المرتضى ، وهو احرى بان يسمّى التشبيه العددي ، قال الشريف : تأملت ما اشتملت عليه تشبيهات الشعراء فوجدت أكثر ما شبهوا فيه الشيء بالشيء الواحد او الشيئين بالشيئين ، وقد تجاوزوا ذلك الى تشبيه ثلاثة بثلاثة وأربعة بأربعة ، وهو قليل ، ولم أجد من تجاوز هذا القدر الا قطعة مرت بي لابن المعتز فانها تضمنت تشبيه ستة بستة أشياء وذلك في قوله :

بدر وليل وغصن ‏ ‏ ‏ وجه وشعر وقدّ
خمر ودُرٌ وورد ‏ ‏ ‏ ريق وثغر وخد

وقد تحامل ابن المعتز على نفسه كثيراً حتى أجاد هذه الصنعة ، ومما يشبه هذا قوله :

والعيش هم والموت مر ‏ ‏ ‏ مستكره والمنى ضلال
والحرص ذل والبخل فقد ‏ ‏ ‏ وآفة النائل المطال

ولكنا لا نُعنى بمثل هذا التشبيه العددي ، ولعل ابن المعتز لم يعن به ايضاً فلم يأت الا بأمثلة قليلة منه . وقد يكون قوله في مثل هذا رياضةً مقدرة لا انتهاءً بالبلاغة الى هذا النوع . والغالب على ابن المعتز في

هذا التشبيه العددي ان يكثر من المشبه به لمشبه واحد كقوله في الصبح :

جلا لنا وجه الثرى عن منظر كالعصب او كالوشي او كالجوهر *

ولقد نرى ابن المعتز قد اغرم احياناً بكأن او كأنما فتتوالى في اوائل ابياته ، كقوله يصف الركائب وقد اضنتها سرعة المسير :

كاد السحاب يُطيرها لولا الازمّة والحقائب
وكأنها قطع الرّغا م على جماجمها العصائب
وكأنما اضلاعها اقواس نبع او مشاجب
وكأنما اجفانها تغضي على قُلبٍ نواضب

ولم يبلغ احد من الشعراء بكأن ما بلغ بها ابن المعتز ، حتى ولا ابو القاسم محمد بن هانىء الاندلسي حين قلده في كثرة التشبيه بها في ابيات متوالية حيث قال :

كأن رقيب النجم اجدل مرقب يقلب تحت الليل في ريشه طرفا
كأن بني نعش ونعشاً مطافلٌ بوجرة قد اضللن في مهمه خِشفا
كأن سهيلا في مطالع افقه مُفارق إلفٍ لم يجد بعده إلفا
كأن سهاها عاشق بين عوّد فآونة يبدو وآونة يخفى
كأن مُعلى قطبها فارس له لواءان مركوزان قد كره الزحفا
كأن قدامى النسر والنسر واقع قصصن فلم تسم الخوافي به ضعفا
كأن أخاه حين دوّم طائرا أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
كأن المزيع الآبنوسيّ آونا سرى بالنسيج الخسرواني ملتفا
كأن ظلام الليل اذ مال ميلة صريع مدام بات يشربها صرفا
كأن عمود الصبح خاقان معشر من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
كأن لواء الشمس غرة جعفر رأى القِرن فازدادت طلاقته ضِعفا

* عقد صاحب « حسن التوسل » بابا في هذا التشبيه العددي فارجع اليه صفحة ٢٥ طبعة هندية ١٣١٥ ه بالقاهرة .

فهذه احد عشر « كأن » ليس فيها واحد فيه حلاوة ابن المعتز ولا رشاقته ووضوحه .

وكذلك لم يبلغ شوقي بكأن مبلغ ابن المعتز حين اتكأ عليها يصنع بها تشبيهات متتالية في بائيته (صدى الحرب) فقد جاء بها ثلاثا وعشرين مرة ، ولست أظن ان ذوقاً خالصاً يستجيد منها سوى اثنتين او ثلاث .

وكما يبتدع ابن المعتز في التشبيه بكأن فانه يبدع في التظاهر بها ، كما في قوله يصف الخمرة وحسن ريحها :

فكأنها اهدت اليـ ـك بريحهـا تفاحا

وكما قال في الخمر تميل برؤوس شاربيها فلا تعتدل :

وقد شربوا حتى كأن رقابهم من اللـين لم يخلق لهن عظام

وكان ابن المعتز يتظرف بادخال اللفظ الاعجمي في شعره وذلك كوصفه الدنان بقوله :

ودنان كمثل صف رجال قد اقيموا ليرقصوا دستبندا *

التصوير

لا اريد بالتصوير هنا سوى رسم الصورة المكونة من اجزاء ، وذلك ما يسميه اهل البيان بالتمثيل او التشخيص ، سواء أكان في التشبيه ام في الاستعارة ، وهذا التصوير أدق فناً واجمل رسما من التوضيح والتقريب والتقرير التي هي منشودة التشبيه الذي يطلقون عليه اسم التشبيه المفرد .

والحق انك لا تستطيع ان تحدد الصفة المرجوّة من وجه الشبه في التشبيه المفرد في احوال كثيرة لو لم تفصل في الكلام ، فاذا قيل : الكتاب معلم ، كنتَ في بحبوحة من الافتراضات ما لم تكن القرينة حالية تحتِّم العلمَ بوجه الشبه وتحدده وتسرع بايراده الى الذهن ، فيجوز أن تكون الصفة في مثل ذلك التشبيه « الهداية » وأن تكون « الاتساع » وان

---

* دستبند نوع من الرقص عند المجوس يأخذ بعضهم بيد بعض ويرقصون .

تكون « المؤانسة » أيّ هذه تريد ، ومثل هذا لا نستطيع ان نسميه تصويراً ، وانما هو توضيحٌ لما خفي معناه ، او تقريب لما ابتعد ، او تقرير لما يحتمل ان يُشك فيه ؛ وهذا مطلب سهل على المنشئين يسيرٌ على المبتدئين في المناظرة وعقد المشابهة ، بل الفطرة تدل عليه وتوحي به ، حتى العامة تقدر عليه فلا يفوتهم ان يأتوا بهذا التوضيح ظاهراً جلياً لا شبهة فيه ولا غموض . واقل خطأ في هذا التوضيح يثير الضحك او المقت ، كأنما أصبح التوضيح بديهية من البديهيات سواء أكان مبتكراً أم كان من التشبيهات التي اصطلحت عليها عصور اللغة القديمة وأصبحت ارثاً لنا نتتفع به ولا نحيد عن ان ننفقه كما هو على وجهه لا يتغير .

ولكنّ التصوير البياني او التمثيل هو الامر ذو الخطر ، وهو الذي يتطلب جهداً وتوفيقاً بين اجزاء الشيء الواحد وأجزاء صورة لا بد ان تجيء متناسبة الاجزاء ، وان تبعث روعة وتأثيراً ، وتلبس بهجة وجمالاً لم تكن لتبعثها او تلبسها الصورة المرئية الحاضرة .

وكانت نزعة ابن المعتز جانحة الى تصوير ما يرى بعينيه دون إغراب حتى لتكاد ترى كل وصفه او شعره تصوير مرئيات ، كأنه مصوّر باليد لولا ما بين تصوير اليد وتصوير الخيال من فروق .

والفرق بين التصوير بالخيال والتصوير باليد واضح جليّ ، فروعة التصوير باليد ان تطابق الصورة المبتكرة الصورةَ المرئية او المتخيلة تمام المطابقة ، فاذا زادت لوناً او حركة عُدّ ذلك نقصا في الصورة وعيباً من المصوّر ؛ أما في التصوير البياني فلك ان تزيد الصورة المرسومة جمال تصوير ، ولك ان تزيدها في الحجم او تنقص ، وتجعل لونها يزهو او ينطفىء ، وتخلق فيها الحركة أو الصمت ، وان كان لا بد من أن تراعي التناسب بين الاجزاء والتوافق بين الالوان . وقد أبيح للمصوّر البياني ان يبالغ في تصويره بينما حُرّم على المصوّر بيده ان يخطو نحو المبالغة أقل خطوة . ولعل التصوير اللغوي إذا خلا من الخيال خلا من الحلاوة جميعاً .

ويتفق التصويران في انهما يثيران الاعجاب والشعور او يبعثان النفور والامتعاض والغضب لأمرٍ جامعٍ بين هذه المحدثات ، وهو شعور أليافِ حاستي البصر والسمع باللذة منهما . وهذا البحث طويل تكفلت بتوضيحه الفلسفة وعلم الجمال .

ولا نستطيع أن نهمل شخصية المصوّر وفكرته التي يصبها في كل صورة ، فشخصيته تفيض على تصويره الجودة او الرداءة ، والحسن او القبح ، والدمامة او الجمال ، لذلك كان التمثيل – كما قال ابو الفتح عثمان بن جنيّ – أصعب انواع الشعر وأبعدَها تعاطياً ، وكلٌّ يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف او قوة وعجز او قدرة .

ولست أدّعي أن ابن المعتز سبق الى العناية بهذا الفن ، فهو مذهب كل شاعر تعمّد الاجادة الفنية من قبله ومن بعده ، يستعين على مذهبه بالحسّ اكثر من الاستعانة بالتفكير ، ويصور الشيء ملموساً محسوساً ، ولكن ابن المعتز يزيد عن هؤلاء بشخصيته القوية الصافية فتبدو واضحة في تشبيهه وتصويره ، فقد كسا خياله مرئياته الواناً أجمل ، وصارت تشبيهاته جزءاً لا ينفصم من حياته ، وكان وهو يتفرغ لها ويصنعها شاعراً يحس بالحياة وينطق عنها . واذا كان الاوائل قد استحسنوا ظواهر تشبيهاته فان بواطنها لم تخل من فتنة وجمال ، وان كان الظاهر يغلب على الباطن . وقد أضحت تشبيهاته لذلك قلائد التشبيهات ، وتمثيلاته لطائف التمثيلات وذاعت شهرتها ، وتناولها الناس تناول الحكم والامثال . وقد قال فيه ابن المرزُبان : « وليس بعد ذي الرمة اكثر افتناناً واكبر تصرفاً واحساناً في التشبيه من ابن المعتز » .

فانظر الى تصويره للبرق وهو يتردد بين اللمعان والانطفاء في قوله :

فكأن البرق مصحف قارٍ فانطباقاً مرّة وانفتاحا

والى تصويره لهلال العيد في قوله :

فانظر اليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقد قيل من اين للعرب ان تقول مثل هذا ؟ وقد كانت العرب قديماً عن الزورق وتشابيه بمعزل !

وقد فتح ابن المعتز باب التمثيل لمن بعـــده من الشعراء فجاءوا — نسجاً على منواله — بالعجب العجاب ، وكانوا من قبل يشبهون لغرض غير التشبيه لذاته ، أما ابن المعتز فقد علمهم الصنعة لذاتها فبعروا عليها .

وهناك ميزة أخرى لابن المعتز ، هي أنـه عربي الاب ، ورث المزاج العربي بينما كان كثير من شعراء عصره ومؤلفيه وعلمائه من عناصر غير عربية ، كانوا من الفرس او من الموالي . واذا كان شاعر كابن الرومي أصدر عن عقلية يونانية - كما يقولون — فابن المعتز قـــد أصدر عن عقليته العربية وحاول ان ينزهها كالبحتري عما يداخلها من عقليات أخر ، فجاءت تشبيهاته وتصويراته أوضح واسهل من كل الاوصاف والتمثيلات .

الاستيعاب

اما الامر الجدير بالالتفات حقاً فهو ان ابن المعتز يدور حول الشيء الواحد يتشبه ويشبه به من كل ناحية وفي كل وضع حتى شأى الشعراء جميعاً . واليك مثلا واحداً يجزيء عن امثلة كثيرة في هذا الباب :

يتلقى الهلال في اول الشهر فرحاً ، وهلال الفطر ابعث الآهلة للفرح للتحلل من مكروهات الصوم به ، فيشبهه قائلا :

فانظر اليـه كزورق من فضة   قـــد اثقلتـه حمولة من عنبر

فاذا بدا الهلال في صغره ففضح سر ابن المعتز وكشف للرقباء ماكان مختبئاً عن عيونهم حقر من شأنه قائلا :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا   مثل القلامة قد قدّت من الظفر

فاذا كان ابن ليلتين وظهر في السماء قبل النجوم قال :

كأنه ابن ليلتيه   من سيده الدائم القديم
فخ بوسط السماء ملقى   ينتظر الصيـــد للنجوم

فاذا تقدم في السماء وتوسط النجوم قال :

واذا تقدم في النجوم حسبته ملكاً تسير مواكب من حوله

فاذا اكتمل الهلال بدراً فابيضّ وقابل الشمس حمراء ، في غروبه وطلوعها قال :

حتى رأيت الشمس تتـ ـلو البدر في افق السما
فكأنها وكأنه قدحان من خمرٍ وما

ويقول في هذا المنظر ايضاً :

نظرت في يوم لذة عجبا وافى به للسعود مقدار
يقابلُ الشمس فيه بدرُ دجى يأخذ من نورها ويمتار
كصيرفي يروح منتقداً في كفه درهم ودينار

فاذا انفرد البدر في السماء الزرقاء قال :

والبدر في افق السماء كدرهم ملقى على ديباجة زرقاء

فاذا لمع في دجلة قال فيه :

البدر يضحك وسط دجلة وجهه والماء يرقص حولنا ويصفق
فكأنه فيها طراز مذهب وكأنها فيه رداء أزرق

فاذا اخذ القمر في النقصان * قال :

ما ذقت طعم النوم لو تدري كأنما جنبي على جمر
في قمر مسترَق نصفه كأنه مجرفة العطر

فاذا كان آخر الليل في اخريات الشهر وصفه قائلا :

اذا الهلال فارقته ليلته بدا لمن يبصره وينعته
كهامة الاسود شابت لحيته

وحين يرجع ابن المعتز فيشبه بالهلال سمعته يقول :

مرّ بنا تشرق الطريق به في قدّ غصن وحسن تمثال

---

*) لايخفى ان القمر في نصف شهره الثاني وهو يضمحل كل ليلة لا يكون جميلا جماله في نصف الشهر الاول وهو ينمو كل ليلة ، ولذلك اتجه ابن المعتز لذمه على مذهبه في المغايرة .

فخلته والعيون تأخـذه من كل فج هلال شوال

او قال وهو يصور الخمر خارجة من دنّها :

تخرج من دنها وقد حدبت مثل هلال بـدا بتقويس

وقد كنا نعد هجاء شعرائنا للقمر في ايامنا هـذه لغارات الطائرات علينا في الليل بدعـة جديدة وفناً مستحدثاً ، ولكنه سبق شعر منا الى هجائه لغارات البعوض في بغداد وشاركه في ذلك ابن الرومي . ومن هجاء ابن المعتز للقمر قوله :

يا سارق الانوار من شمس الضحى يا مثكلي طيب الكرى ومنغصي

اما ضيـاء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارهـا لم تنقص

لم يظفر التشبيه منـك بطائل متسلخ بَهَقـاً كجلد الابرص

وقوله :

وبات كما سُرّ اعـداؤه اذا رام قوتاً من النوم شذّ

تعززه شررات البعوض في قمر مثـل ظهر الجرذ

وقد هجا ابن الرومي القمر ايضاً كما هجاه ابن المعتز وأجاد .

ولعـل الاستيعاب لم ينفرد بـه ابن المعتز من بين الشعراء خاصـة والادباء عامة ، فقد اصبح طريقـاً من طرق الاسلوب ، منذ سنه الجاحظ وعلماء الكلام .

وانفرد ابن المعتز بأنـه اذا انتزعه غرض الى ابتكار المعاني وإعمال الذهن كالمدح مثلا لم يُنتَزع بل ظل يصف ممدوحه بما يرى فيه وما يرى حوله حتى يلم بجميع أطرافه .

فنون شعره

الوصف

فن جديد

لقد بات المحدثون يهتمون بالمعاني أكثر من اهتمام القدماء بها ، وباتوا يتحرّون الدقة ويتحرزون مما يوجب الطعن ، وانتبهوا الى صناعة الشعر للشعر وابلاغه حدّ الكمال الفني ، واصبح على الشاعر ان يكون متصرفاً في كل انواع الشعر من جد وهزل وليّن وجزل وألا يكون منه في غرض ابرع منه في غرض آخر ليُحكم له بالتقدم ويحوز قصب السبق ، ولا يكون كذلك الا اذا صوّر ما رأى وما خطر بباله تصويراً دقيقاً ، ولم يكن اختصاص الشاعر بفن دون فن الا من خصائص القدماء . وكان المدح والهجو أجل الابواب وبهما يتقدم الشاعر ، فاذا قصّر فيهما لم يلحقوه بالفحول ، وكثيراً ما كان ينقطع شاعر الى مدح معطيه فلا نرى له شعراً في غير مدحته وذم أعاديه .

اما في هذا العصر فقد انصرف الشعراء الى كل فن ، ولم يخصوا المدح

لان التكسب به لم يعد كما كان في العصور العربية الخالصة ، وقدّموا ذلك الفن الجامع – وهو الوصف – على كل الفنون ، والوصف هنا يشمل كل باب ، والابواب جميعاً ينطوين تحته .

وأصبح الشعراء يفخرون بما قدروا عليه من الوصف ويُثنىَ عليهم بما استطاعوه منه ، ويُضاهى بين هذا وذاك ليُفضل احدهما ، فتناول الشعر بهذا كل صغيرة وكل كبيرة يصفها في مقطوعات قصيرة او طويلة حتى صار جديراً ان يطلق على ذلك العصر « عصر الوصف » . ولعلك قرأت قصائد ومقطوعات خالصة للوصف لبشار وابي نواس وابي تمام والبحتري وابن الرومي وغيرهم ، ولم يكن لمن سبقهم مثلها في الوصف خالصة .

وقد فضّلتْ مجالس المباحثات عندهم شعراء الوصف ، وفضل ابنُ المعتز البحتريّ بالوصف فقط حين وصف ايوان كسرى في سينيته المشهورة وحين انشد قصيدته الوصفية في دينار وحين وصف حرب المراكب في البحر ، ولولا النكسة القوية التي اصابت اغراض الشعر بعدُ على يد المتنبي واضرابه فرجع الشعر الى المدح والاعتذار وضروب الملق الاخرى حيناً آخر من الدهر لنهج الشعر العربي منهجاً اجدّ واقوم .

اما ابن المعتز فله الفخر كله فقد كاد يبعث شعره كله وصفاً ، فانه وان لم يعمّر سوى خمسة واربعين عاماً ، قال الشعر في ثلاثين منها او اقل ، الا ان هذا العمر القصير كان اطول الاعمار ، امتلأ بالجد واللهو والسعادة والبؤس ، وكان وصفه لهذه الحياة خليطاً من انغام متباينة من الحب والبغض والسموّ والقعود والعزة والانكسار والنهوض واليأس ، وصور ذلك كله في أسلوبه فزاد اللغة غنى ووفرة وفراهة وطلاوة ، وكان انشاده الشعر مخلصاً له محباً لنظمه لا يرجو سوى ان يرضى عنه الفنّ كل الرضا ، فجاء وصفه جلّه آية الآيات في الابداع الفني .

وقد عرفت ان مذهبه في الشعر مذهب تصويري واقعي يصور فيه ما يراه بعينه وما يقع حوله من الحوادث والشئون ، وبيئته الدنيا كلها ،

ويصعب على المرء أن يحصي اشياءها ويعدّ مفرداتها ، وله بيئة الامراء يختص بها ، فاذا تساوى مع شاعر من الناس في وصف شيء في متناولهما ارتفع عنـــه في وصف ما لا يرتفع اليه ذلك الرفيق من بيئة الخاصة والامراء .

وماذا وصف ابن المعتز مما نستطيع ان نحصيه اجمالا ؟

وصف دنياه ودنيا قومه بجذافيرها حتى ليجدر به ان يكون الشاعر الفرد الذى تمثلت في شعره مرئيات البيئة في العصر الذي عاش فيه دون غيره من الشعراء ، اذ لم يدع مضيقاً ولا متسعاً الا سار فيه ووصفه وشبه له او شبه به .

وصف الليل والنهار والشمس والقمر والكواكب والنجوم وبياض الصبح وحمرة الشفق والقيظ والقر والظل والحر والصيف والفصول ، وخطران النسيم ومطر السماء ، ووصف الدور والحيطان والقصور والاطلال والنهر والغدير والصخور والمفازة والسراب ، والرياض وانوارها والثمار وانواعها والفاكهة واطايبها ، ووصف السفينة والزورق والناقة والحصان والفرس وعنانه والفهد والبازي والديك والحية والبعوضة والبرغوث والطير وافاحيص القطا ، ووصف الثياب والبسط والرياش والآلات والمرآة والخمر والرقص والقصف والطرد ورجع الصدى ، ووصف الطبخ والنار والنزهة والولائم والبخـــل والكرم والحسب والنسب ، ووصف الكتابة والقلم والدواة والقرطاس ، ووصف السيف والدرع والرمح والبيض والقوس والوتر والضربة الدامية والنقع المثار ، ووصف الشباب والشيب والصبا والهرم والحياة والموت والسرور والبكاء والوله والسلوى والسرعة والبطء والامل واليأس والرضا والغضب والحب والحسد ، وكل هذا واكثر منه نقرأه في ديوانه ، فمـــاذا بقي من دنياه بعد هذا ؟ لقد وصف المخلوق والمصنوع والقديم والمبتدع والثابت والمتحول وكل شيء وقعت عليه عيناه ، فوصف الدنيا ولم يدع منها شيئاً .

وقد بلغ بعض وصفه دقة تثير العجب والطرب والنشوة بما لا مثيل له . وهل نجد أدق من قول ابن المعتز يصف الحذر من الرقيب وخيانة الدمع لحذره :

وأكُفُّ دمعَ العين من حذر والدمع يسبقني وألحقُهُ

او قوله في وصف المرآة :

فبيّنتني لي كلما رمتُ نظرة وناصحتني من دون كل صديق
يقابلني منك الذي لا عدمته بلجة ماء وهو غير غريق

و قوله في لمعان السيف المهتز :

في كفه عضب اذا هزه حسبته من خوفه يرتعد

او قوله في لون السيف : تنفس فيه القين وهو صقيل

أو قوله في سرعة الفرس :

كأن جِنّان الفلاة تضرُبهُ كأنّ ما يهرب منه يطلبُهُ

او قوله في فرس ادهم أغر محجل يعدو :

بأدهمَ كالظلام أغر يجلو بغرته دياجير الظلام
ترى احجاله يصعَدن فيه صعود البرق في جو الغمام

و قوله في ليلة طابت فقصرت :

يا ليلةً كاد من نقاصرها يعثر فيها العشاء بالسحر

او قوله وقد ازدحم قوم في بيت ضيق وتلاصقوا وكان هو من بينهم :

يا رب بيت زرته وكأنما قد ضمني في ضيقه سجن
ما يحسن الرمان يجمع نفسه في قشره الا كما نحن

او قوله وهو يتمنى الطيف ليسعده فلا يستجيب له النوم ويدوم سهره :

لا فرّج الله عن عيني برؤيته ان كنت ابصرت شيئاً بعده حسنا
الا خيالاً عسى ان نمت يطرقني وكيف يحلم من لا يعرف الوسنا

او قوله يصف لؤم الدهر :

تمكن هذا الدهر مما يسوءني ولجّ فما يخلي صَفاتِك من قَرْع

وأبليت آمالي بوصف يكدها　　وليس بذي ضر وليس بذي نفع
لئيم اذا جاد اللئيم تخلقاً　　يحب سؤال القوم شوقاً الى المنع

او قوله يصف القبلة المخطوفة حذار الرقيب :

وكم عِناقٍ لنا وكم قُبَلٍ　　مختلسات لنا حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفةٌ　　من النواطير يانعَ الرطب

او قوله — وما ادقه — وقد ادلى الى النار بعود يابس فقطع حرّها عن ضوئها :

كالنار يقطع حرّها عن ضوئها　　يدُ قابسٍ أدلت بعود يابس

او قوله وشعاع الشمس يأكل الظل :

والشمس تأكل ظلّها　　اكل اللظى عيدانَ حاطبْ

او قوله في منظر ظعائن ابتعدت عنه في بياض السراب :

وما راعني بالبين الا ظعائن　　دعون بكائي فاستجابت سواكبُهْ
بدت في بياض الآل والبعد دونها　　كأسطر رَقّ ابهمَ الخطَّ كاتبه

ومن تشبيهاته الصادرة عن علم ودقة مزاولةٍ قوله يصف لوك الحصان للشكيمة في رفق وشفقة :

ولقد غدوتُ على طِمرّ قارح　　عقدت حوافره غمامةَ قسطل
متلثم لجم الحديد يلوكها　　لوك الفتاة مساوكاً من إسحل

فلم يخطىء خطأ ابي تمام حين صوّر الخيل تلوك الشكيم في الحرب ، والخيل لا تلوك الشكيم في حومة الحرب وانما تفعل ذلك واقفة لا مكر لها ، وانما طرَح ابا تمام في هذا الخطأ قلةُ خبره بأمر الخيل * .

*

وليس القمر وحده هو الذي تتبعه ابن المعتز واستقصى اتجاهاته وأشكاله فشبه به وشبه له ، وانما أشياء أخرى كثيرة هي الدنيا كلها كما قلنا ،

---

* انظر الآمدي صفحة ١٠٦ طبعة القاهرة .

ولنأخذ بطرف من كل شيء فنقول :

لما كان هذا الشاعر نضو ليل وأخا سهر فقد اهتم بالليل وتتبعه وأكثر القول فيه ، فكان مما قاله يصف به الليل وقد ارخى سدوله ووشته النجوم :

فخلت الدجى والليل قد مدّ خيطه ... رداءً موشّى بالكواكب معلما

فاذا أقمر الليل وطاب نسيمه شرب فيه وطرب فقال :

يا رب ليل سحر كله ... مفتضح البدر عليل النسيمْ
تلتقط الانفاس برد الندى ... فيه فتهديه لحرّ الهموم
لا اعرف الاصباح لما بدا ... في ضوئه الا بسكر النديم
لبست فيه بالتذاذ الهوى ... ولذة الراح ثياب النعيم

فاذا طال عليه الليل واضجره قال :

وحلّت عليه ليلة ارجبية ... اذا ما صفا فيها الغدير تكدرا
بعيدة ما بين البياضين لم يكد ... يصدّق فيها صبحها حين بشرا

فاذا ارق في السفر ونام صبحه ذات ليلة باردة قال :

ارقت له والركب ميل رؤوسهم ... يخوضون ضحضاح الكرى وبهم فترُ
علاهم جليد الليل حتى كأنهم ... بزاة تجلى في مراقبها قُمرُ
الى ان تعرّى النجم من حلة الدجى ... وقال دليل القوم قد نقبَ الفجر
وقدّوا أديم الفجر حتى ترفّعت ... لهم ليلة أخرى كما حوّم النسر

فلما اوشك الليل ان يزول وطلع الصبح التفت اليه يقول :

كأنه جدول ماء انفجر

او : وقد رفع الفجر الظلام كأنه ... ظليم على بَيض ترفّع جانبه
او : أما ترى الصبح تحت ليلته ... كموقد بات ينفخ الفحما
او : قد اغتدي والليل في جلبابه ... كالحبشيّ فر من اصحابه
والصبح قد كشّف عن انيابه ... كأنه يضحك من ذهابه
او : وقد غدوت وصبغ الليل منتقصٌ ... وغرة الصبح مصقول حواشيها

وأبليت آمالي بوصف يكدها ... وليس بذي ضر وليس بذي نفع
لئيم اذا جاد اللئيم تخلقاً ... يحب سؤال القوم شوقاً الى المنع

او قوله يصف القبلة المخطوفة حذار الرقيب :

وكم عِناقٍ لنا وكم قُبَلٍ ... مختلَسات لنا حذار مرتقب
نقر العصافير وهي خائفةٌ ... من النواطير يانعَ الرطب

او قوله — وما ادقه — وقد ادلى الى النار بعود يابس فقطع حرّها عن ضوئها :

كالنار يقطع حرّها عن ضوئها ... يدُ قابس أدلت بعود يابس

او قوله وشعاع الشمس يأكل الظل :

والشمس تأكل ظلّها ... اكل اللظى عيدانَ حاطبْ

او قوله في منظر ظعائن ابتعدت عنه في بياض السراب :

وما راعني بالبين الا ظعائن ... دعون بكائي فاستجابت سواكبُهْ
بدت في بياض الآل والبعد دونها ... كأسطر رَقّ ابهمَ الخطّ كاتبه

ومن تشبيهاته الصادرة عن علم ودقة مزاولةٍ قوله يصف لوك الحصان للشكيمة في رفق وشفقة :

ولقد غدوتُ على طِمرّ قارح ... عقدت حوافره غمامةَ قسطل
متلثم لجم الحديد يلوكها ... لوك الفتاة مساوكاً من إسحل

فلم يخطىء خطأ ابي تمام حين صوّر الخيل تلوك الشكيم في الحرب ، والخيل لا تلوك الشكيم في حومة الحرب وانما تفعل ذلك واقفة لا مكروه لها ، وانما طرّح ابا تمام في هذا الخطأ قلةُ خبره بأمر الخيل * .

*

وليس القمر وحده هو الذي تتبعه ابن المعتز واستقصى اتجاهاته وأشكاله فشبه به وشبه له ، وانما أشياء أخرى كثيرة هي الدنيا كلها كما قلنا ،

---

* انظر الآمدي صفحة ١٠٦ طبعة القاهرة .

وقد هوى النجم والجوزاء تتبعه كذات قرط ارادته وقد سقطا

ويصف المريخ قائلا :

وتوقّد المريخ بين نجومها كبهاره في روضة من نرجس

وسهيلا قائلا :

وقد لاح للساري سهيل كأنه على كل نجم في السماء رقيب

والعقرب قائلا :

وصفت العقرب للمغارب بذنب كصولجان اللاعب

والنسر قائلا :

والنسر قد بسط الجناح محوّما حتى تراه كطالبٍ لم يصطدِ

والفرقدين قائلا :

ورنا اليّ الفرقدان كما رنت زرقاءُ تنظر من نقاب اسود

والنجوم قائلا :

وخلتُ نجوم الليل في غسق الدجى خصاصا أرى منها النهار نقابا

وفيها أيضا :

كأن سماءنا لما تبدت خلال نجومها صدأ الصباح
رياض بنفسج خضلٍ نداه تفتّح بينه نوْر الاقاحي

وفيها وقد طال عليه الليل فوقفت نجومه كأنها دراهم زيف لا تنقد فتنفق :

كأن نجوم الليل في حجزاته دراهم زيف لم يجزن على النقد

وفيها في مثله أيضا :

رب ليل أحييته بزفير وهموم تكوي الحشا والفؤادا
بات طرفي يشيع النجم فيه كلما خلته يسير تمادى

وفيها مع الفجر المحمر :

قد أغتدي على الجياد الضّمر والصبح قد أسفر أو لم يسفر

وغرّبت أنجم الظلماء وانحدرت　　فشال ارجلها وانحط أيديهـــ

فاذا طلع النهار ولاحت الشمس خلل الغمام قال :

تظل الشمس ترمقنا بلحظ　　مريض مدنف من خلف ستر

*

ويصطحب ابن المعتز الثريا كما اصطحب القمر فحين يراها بيضاء لامعة بين النجوم قد شمّرت في إثرهن لتغرب قال :

كأن الثريا هودج فوق ناقة　　يسير بها حاد الى الغرب مزعج

وقد لمت بين النجوم كأنها　　قوارير فيهـا زئبق يترجرج

وقال :

ألا فاسقنيها والظلام مقوّض　　ونجم الدجى نحو المغارب يركض

كأن الثريا في اواخر ليلها　　تفتّحُ نوْر او لجام مفضض

وقال :

وتروم الـــثريا　في الغروب مراما　　كانكباب طِمرّ　كاد يلقي اللجاما

وقال والصبح يتلوها :

وكأن الصبح لما　لاح من تحت الثريا　　ملك اقبل في التا　ج يُفدّى ويُحيا

ثم يشبهها تشبيهات اخرى بنَوْر الغصن ، والقَعْب ، وبيادق العاج وقد تبدت في ثياب الحداد ، وجنى النرجس والكأس والقرط .

ويقول وقد رأى الجوزاء :

وقد صفَت الجوزاء حتى كأنها　　وراء نجـــوم هاويات وُغوّر

صنوج على رقاصة قـد تمايلت　　لتلهي شَرْبا بـين دف ومزهر

وفي الجوزاء في أعلى الافق :

كأنما الجوزاء في أعـلى الأفق　　أغصانُ نَوْرٍ او وشاح من وَرِق

وفيها وقد اقترنت بالشعرى العَبُور :

ولاحت الشعرى وجوزاؤها　　كمثل رمح جره رامـــحُ

وفيها وهي تغرب :

وتشكر الارض المطر بلسانه الذي يقول :

ما ترى نعمة السماء على الار ض وشكر الرياض للامطار ؟

ثم تزدهي الارض بألوان الازهار في آذار فيقول :

حبذا آذار شهراً فيه للنور انتشار
ينقص الليل اذا جا ء ويمتد النهار
وعلى الارض اصفرار واخضرار واحمرار
فكأن الروض وشيٌ بالغت فيه التجار
نفسه آس ونسر ين وورد وبهار

فاذا تفتحت الازهار مع هبات النسيم قال :

يشق رياضاً قد تيقظ نَوْرها وبللها دمعٌ من المزن ذارفُ
كأن عياب المسك بين بقاعها تفتّحها ايدي الرياح الضعائف

ويتنقل ابن المعتز في الروضة المزهرة فيصفها زهرة زهرة ويبتدع لكل لون تشبيهاً ولكل مرأى معنى بديعاً ، وجمّاع ذلك تجده في بستانيته التي يمدح فيها الصبوح ، ونحن نقتطع لك منها وصف الازهار فاستمع اليه وهو يقول :

اما ترى البستان كيف نورا ونشر المنثور بُرْداً أصفرا *
وضحك الورد الى الشقائق واعتنق القطر اعتناق الوامق
في روضة كحلة العروس وخرّم كهامة الطاوس **
وياسمين في ذرا الاغصان منظم كقطع العِقيان
والسرو مثل قطع الزبرجد قد استمد الماء من ترب ندِ
على رياض وثرى نديّ وجدول كالمبرد المجليّ
وفرَج الخشخاش جيباً وفتقْ كأنه مصاحف بيض الورق

* ـ قد اشتهرت بغداد بالمنثور وجور بالورد وجرجان بالنرجس والسيروان بالنيلوفر وقم بالزعفران .

** خرمة كسكرة نبت كاللوبياء بنفسجي اللون حسن المنظر والرائحة .

كأنه غرة مهر أشقر حتى بدا في ثوبه المعصفر
ونجمه مثل السراج الأزهر *

الروض والمطر والزهر والثمر

وكان جديرا بالشاعر الأمير أن يكون حظ الرياض والثمار والازهار والمطر من شعره عظيما. ومَنْ أولى منه بذلك وهو المتقلب بين فتون النعم والجنّات، والصائد الطارد وراء الصيد والطير والفلوات والمتنقل يتنسم في الربا والبساتين أنفاس الزهر والمتفكه بلذائذ الثمر، فمتى هبّ النسيم وبشّر الارض بالقطر غنى ابن المعتز قائلا :

ونسيم يبشر الارض بالقطـ ـر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيـ ـث انتظار المحب ردّ الرسول

واليك وصفه السحابة تسكب المطر، فاسمع اللفظ وعُدّ التشبيهات، وأنصت للموسيقى المدوّية، وأصغ للروعة وشدة الاسر، ولن تجد لها مثيلا في الطريق الذي تسلكه :

وسارية لا تملّ البكا جرى دمعها في خدود الثرى
سرت تقدح الصبح في ليلها ببرق كهندية تنتضى
فلما دنت جلجلت في السما ء رعداً أجشّ كجرس الرحا
ضمان عليها ارتداءُ السَفاع بانوارها واعتجار الربا
فما زال مدمعها باكياً على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فاضحت سواء وجوه البلاد وجنّ النبات بها والتقى

* لا يخيل لك أن هذا المطلب من شعر السماء أو النجوم كما سميناه من قبل مطلب سهل يسير ولكنه يصعب علينا الآن جد الصعوبة كما بينا حينما تعرضنا له في وصف البيئة العامة. وقد حدث منذ سنين قليلة أن اقترنت الزهرة بالقمر وأخبرت المراصد بهذه الظاهرة قبل حدوثها فدعت جريدة المقطم المصرية الشعراء لوصف الظاهرة فلم يتقدم أحد قط مع أن هذا المنظر مرسوم من قبل في اقوال الشعراء.

واذا أراد الطـــير رأيته مشجيا في وصفه مطربا ، وما أحلى قوله في حمائم الربيع مع اتكائه على مسائل النحو :

إني لاعجب من حمائمهـــا كيف اهتدين لمعرب محض
هـــل كان نحويّ يعلمها نصبا وباب الرفع والخفض

وليس أروع من هـــذا في وصف غناء الطير بأنه كلام مفهوم مستقيم الاعراب*

وما أروع وصفه للديك حين يقول :

بشّرَ بالصبح هاتف هتفـا يصيح في الليل بعد ما انتصفا
مذكراً بالصبوح هاج بهـــا كخاطب فوق منبر وقفـا
صفّق إمـــا ارتياحة بسنا الـ فجر واما على الدجى أسفا

وأبدع بقوله في الديك :

وقام فوق الجدار مُشترفٌ كمثـــل طِرْف عَلاهُ أسوَار
رافع رأسٍ طوراً وخافضه كأنما العُرفُ منـــه منشار

الدور والقصور

اما وصف الدور والقصور فتلك خِصّيصاه ، لانه ابنها والمتقلب بينها والساري بين حجرها وبساتينها والذائق لحلوها ومرها ، يصف قصر الثريا * في سر من رأى مرة وأخرى فيبدع ، ومما قاله فيه :

ما للثريا شبيه فيما بنى قطّ بان حيطانه من نور والسقف من نيران
والصحن ياقوت در كالعين في الاجفان والماء يغدو عليها في جدول ريان

ويصف البئر وقد صفت مياهها فيقول :

---

* يحسن بالقارىء أن يرجع في وصفه المبدع للحمام الى ديوانه وارجوزته التي مطلعها :

أعددت للغـاية سابقات معلمـات ومحزمـات

* اشتهرت سر من رأى بقصورها التي بناها المتوكل والمعتمد والمعتضد ومنها الجعفري ، والبديع والثريا والرباب والكامل والقبة العلياء والأترجة والمعشوق والساح والصبيح والمليح ، وانظر صفحة ١٢ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

حتى اذا مــا انتشرت أوراقه وكاد أن يُومى إلينا ساقه
صــار كأقداح من البَلّور تخــالها تجسمت مــن نور
وبعضه عريان من أثوابــهِ قد خجل البائس من أصحابهِ
تبصره عند انتشــار الورد مثـــل الدبابيس بأيدي الجند
والسوسن الابيض منشور الحلل كقطُن قــد مسّه بعض البلل
نوّر في حاشيتي بستانــهِ ودخـــل الميدان في ضمانه
وقد بدت فيه ثمار الكسكرِ * كأنها حمــائم من عنــبر
وحلّق البهــار بين الآس جمجمة كهامــةِ الشماس
خلالَ شيح مثل شيب النصَفِ وجوهر من زَهــر مختلف
وجلّنار مثل جمر الخدّ أو مثل اعراف ديوك الهند
والاقحوان كالثنايا الغر قد صقلت انوارُه بالقطر

ولابن المعتز عناية بالبنفسج لانـــه في مقدمة النباتات التي تزهر اول الربيع لتؤذن النّاس باقبال الايام المعتدلة أيام الصفو والسرور ، وينمو نباته في الاماكن الرطبة الظليلة مستترا في غيره من النبات الا أن رائحته تنم عليه ، فهو اذن رمز التواضع والحياء والعفة ، واشهر ما قاله ابن المعتز فيه ، ويروي لغيره :

ولازوردية تزهو بزرقتهـــا بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها وضعاف القضب تحملها أوائل النار في اطراف كبريت

***

فاذا وصف شيئا من الفاكهة لم يفته الابداع ، ومن ذلك قوله في التين :

أنعِمْ بتين طاب طعما واكتسى حسنا وقارب مخبراً من منظر
في بَرْد ثلج في نقــا تبر وفي ريح العبير وطيب طعم السكر
يحكي اذا ما صُفّ في أطباقه خيماً ضربن من الحرير الاخضر

***

* الكسكر بالسين لعلها نسبة الى اقليم كسكر ويروى الكبر بالباء المشددة .

واذا أراد الطـــير رأيته مشجيا في وصفه مطربا ، وما أحلى قوله في حمائم الربيع مع اتكائه على مسائل النحو :

إني لاعجب من حمائمهـــا كيف اهتدينْ لمِعرَب محض

هـــل كان نحويّ يعلمها نصبا وباب الرفع والخفض

وليس أروع من هـــذا في وصف غناء الطير بأنه كلام مفهوم مستقيم الاعراب*

وما أروع وصفه للديك حين يقول :

بشّرَ بالصبح هاتف هتفـا يصيح في الليل بعد ما انتصفا

مذكراً بالصبوح هاج بهـــا كخاطب فوق منبر وقفـا

صفّق إمـــا ارتياحة بسنا الـ فجر واما على الدجى أسفا

وأبدع بقوله في الديك :

وقام فوق الجدار مُشترفٌ كمثـــل طِرْف عَلاهُ أُسوَار

رافع رأسٍ طوراً وخافضه كأنما العُرفُ منـــه منشار

الدور والقصور

اما وصف الدور والقصور فتلك خِصّيصاه ، لانه ابنها والمتقلب بينها والساري بين حجرها وبساتينها والذائق لحلوها ومرها ، يصف قصر الثريا * في سر من رأى مرة وأخرى فيبدع ، ومما قاله فيه :

ما للثريا شبيه فيما بنى قطّ بان حيطانه من نور والسقف من نيران

والصحن ياقوت در كالعين في الاجفان والماء يغدو عليها في جدول ريان

ويصف البئر وقد صفت مياهها فيقول :

---

* يحسن بالقارىء أن يرجع في وصفه المبدع للحمام الى ديوانه وارجوزته التي مطلعها :

أعددت للغـاية سابقات معلمـــات ومحزمـــات

* اشتهرت سر من رأى بقصورها التي بناها المتوكل والمعتمد والمعتضدومنها الجعفري ، والبديع والثريا والرباب والكامل والقبة العلياء والأترجة والمعشوق والساج والصبيح والمليح ، وانظر صفحة ١٢ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

حفرتها بيضاء منقورةٌ في دِمثٍ سهل وطيء التراب
تضمن ري الجيش للمستقي كأن دلويها جناحا غراب

ويمتلىء الغدير بالماء وتشرق عليه الشمس وتهب الصبا فيقول :

غدير يُرجرجُ أمواجه هبوب الرياح ومرّ الصَّبا
إذا الشمس من فوقه اشرقت توهمته جوشناً مُذهبا

وحين يصطحب نار الطبخ وينظر اليها والى شررها ولهبها نسمع منه ما يطرب ، فهو يقول في النار توقد بفحم وحطب :

ومرقدات بتن يضرمن اللهب يشبعنه من فحَم ومن حطب
يرفعن نيراناً كأشجار الذهب

ولعل شاعراً مهما كان غنياً لا يذهب به خياله الى صنع شجرة من ذهب كما صنع خيال ابن المعتز ، فهي اول شجرة من ذهب في شعر العرب .

فاذا تعالى الشرر قال :

وقد تعالى شرر الكانون كأنه نثار ياسمين

فاذا أحرق الثياب والبسط قال :

فترك البساط بعد الخُمد ذا نُقطٍ سود كجلد الفهد

وانا لنكتفي بهذه الأمثلة في هذا الباب ، وسترد في الكتاب أمثلة أخرى كثيرة تدخل تحت الوصف سنفرد لها بحوثاً مستقلة بها كالخمر والطرد وغيرهما .

الفخر

بنو أمية والطالبيون

يملأ ابن المعتز ماضغيه فخراً بنسبه ، فهو امير المؤمنين او الامير الذي يتصل عن قرب بهرون الرشيد فابي جعفر المنصور ثم يسمو به نسبه صُعداً الى العباس بن عبد المطلب ، وحسبه ان ينتمي الى هذا الجد الاعظم الذي

استسقى به عُمر الغمام .

وليس لهذا النسب خطره الجليل لقربه من النبوة فحسب ، ولكنه سلسلة من الآباء الغر البهاليل الذين نالوا الملك بفضل ما عملوا وما اجتهدوا، وان استحق الفخر لهذا بنو أمية وبنو أبي طالب فان ابن المعتز يرى ان بني العباس أحق بالفخر من هؤلاء وهؤلاء ، فلهم ان يفاخروا البيتين فقد بزوا الشجرتين .

وكذلك يفخر ابن المعتز بأهله عليهما ، ويذكر ان بني العباس أحق بالفخر من بني أمية لانهم غلبوهم وازالوهم عن ملكهم ، وكان صيال اهله على الامويين في عقر دارهم فلم يمهلوهم حتى يتجهزوا لهم ، او هم لم يستطيعوا التجهز للقائهم ومناجزتهم ، وكان العباسيون اكثر جندا واقوى عدة واحكم سياسة وبصراً بالامور ، وهكذا يرى .

ويرى ان آباءه وهم في ذروة الشرف كانوا رهطاً من بني هاشم رهط النبي الامين ، وقد نقلوا الدولة من الامية والسذاجة البدوية الى دولة ذات علم وثقافة وسعة وفلسفة ومدنية .

ولعل الاحن التي كانت بين بني أمية وبني العباس قد قدم زمانها واوغل في القدم ، ولم يبق لامية من الانصار من تستطيع بهم النهضة من العثار او البعث من الموت ، ولكن العداوة اصبحت ارثاً نفسانياً عميقاً لا تستأصل جذوره من نفوس الابناء والحفدة ، فترى ابن المعتز يلذع بني امية بفخره عليهم ، وبينه وبين الذين مضوا عصور ودهور ، وبينه وبين احيائهم في الاندلس صحارى وبحور فيقول :

قتلنا امية في دارها ونحن احق بأسلابها

ويقول :

وما خفنا من الناس وهل في الناس انسان ؟
جزينا الامويين ودنّاهم كما دانوا
وذاقوا ثمر البغي وخناهم كما خانوا

والخـــير والشـــر بكـف الله مـــيزان

وانه لأشد وقعاً على الطالبيين من اولئك الامويين . ولعمري لئن حق لقوم ان يُهْجَوا في ذلك العصر فليس الا اولئك الترك الذين مزقوا الدولة شر ممزق ، بدل ان يهجى الامويون الذين باد منهم من باد وابتعد منهم من بقي ، وبدل الطالبيـــين ايضاً لأن الترك هم الخصوم الألداء حقاً ، ولكنها سنة الكون ! يُستضعف الضعفاء ويخشى جانب الاقوياء . وحسب الترك قوة في ذلك العصر ان يموت الامير او الخليفـــة فلا يجسر جسور أن يرثيه الا في مثل ذلك الشعر المكنى الذي يجعل من الامير القتيل هراً قتيلا يرثى .

وأشد الناس خوفاً من هؤلاء الترك اولئك الامراءُ واهــــل البيت العباسي قاطبة ، ولذلك نرى ابن المعتز ان ذكرهم بسوء مرة كما حدث في ارجوزته للمعتضد لاحتمائه به فانه ينصرف عنهم وينصرف الى الامويين والطالبيين لانهم اقل من الترك شأناً وشوكة .

ولعله ان كان قد فخر على الامويين وكرر فخره عليهم فانمـــا هو يريد ان يلوّح بالتهديد للعلويين ، وهو يهجو العلويين لانهم ثاروا بالاطراف ينافسون بني العباس وينقضون عهودهم ويدسون عليهم ويكفرون بنعمتهم كما يظن . فيخاطبهم قائلا :

ولولا نحن قد ضاع دمٌ بالـــطف مجان
ودأب العـــلويـــين لهم جحد وكفران
فهـــلا كان امســـاك اذا لم يـــك احسان

ويرى ابن المعتز ان العباسيين قد ثأروا من قبل للحسين وابناء علي من بني امية ، فكان خليقاً بهؤلاء ان يكونوا من الثائرين لهم لا الثائرين عليهم ، وان يشكروا لهم فضلهم او يمسكوا عن عداوتهم ، ولكنهم لم يفعلوا واحدة من كل اولئك ، وطمعوا في الخلافة وناصروا خصومها عليها . فخاطبهم بقوله :

أبى الله إلا ما ترون فما لكم   عتاب على الاقدار يا آل طالب
تركناكمُ حيناً فهلا اخذتمُ   تراث النبي بالقنا والقواضب
زمان بنو حرب ومروان مسكو   أعنة ملك جائر الحكم غاصب
ألا ربّ يوم قد كسوكم عمائماً   من الضرب في الهامات حمر الذوائب
فلما اراقوا بالسيوف دماءكم   أبينا ولم نملك حنين الاقارب
وليس يريد الناس ان تملكوهمُ   فلا تثبوا فيهم وثوب الجنادب
واياكمُ اياكمُ وحذارِ من   ضراغمة في الغاب حمر المخالب
ألا انها الحرب التي قد علمتمُ   وجربتمُ والعلم عند التجارب

وهكذا يرى ابن المعتز ان يقر الطالبيون خلافة العباسيين ، وان يعينوهم ما داموا قد جربوا الحروب فلم يظفروا فيها بنصر ، فاذا لم يكن اقرار ولا عون فلا اقل من ان يدَعوا الخصوم تتقاتل ويدَعوا العباسيين ودنياهم التي غرقوا فيها الى اذقانهم والتي جاءتهم تجرر أذيالها ، ولعمري انها لخطة سوءى يخططها ابن المعتز واضرابه في جدال الطالبيين ، واشد جوراً من هذا انه يطلب اليهم ان يقنعوا بما ترميه لهم سباع آل العباس من طعام وخير ، وذلك في مثل قوله :

دعوا الاسد تفترسْ ثم اشبعوا   بما تدع الاسدُ في غابها

ويظلم ابن المعتز نفسه فيثور ويرى ان الطالبيين لا يستحقون ملكاً ويعلل لذلك بأن ابا طالب لا يقاس بالعباس ، ولكنه يرجع خانضاً من غلوائه فيستثني علياً وحده لفضله في الاسلام ، ويراه أحق بالمدح واجدر بالفخر ، فيذكره في يوم حنين قائلاً :

ويوم حنين حين صاح وراءكم   فجئتم وكان الموت اقرب من شبر

ثم يذكر له فضله في الهجرة وفي بدر فيقول :

ولولاه ما قرّت بطيبة هجرة   ولولاه لم تجر الجياد الى بدر
أقام بدار الكفر عيناً على العدا   ينبّي نبيَّ الله بالكيد والغدر

ولكنه يعود الى التعصب بعد هذا الاستثناء فيرى ان اولاد العباس

اولى من اولاد عليّ بالميراث : ميراث الخلافة والمجد ، فاولاد العباس من العَصَبة وابناء عليّ من ذوي الارحام ، والعَصَبة اولى من الرحم فالميراث لولد العباس لا لولد فاطمة وفي ذلك يقول :

ولما أبى الله ان يملكوا نهضنا اليها وقمنا بها
لكم رحمٌ يا بني بنته ولكن بنو العم اولى بها
واقسم انكمُ تعلمون بأنا لها خير اربابها

ويتطاول على بني عمه فيهجوهم قائلا :

عذلت بني عمي وطاب بهم عذلي لعلهمُ يوماً يفيقون من جهل
معافَين الا من عقول مريضة وكم من صحيح الجسم خلو من العقل

ويتمادى ابن المعتز في بغيه فيرى الطالبيين لا يستحقون ان يُوصَلوا كما توصل الرحم لاضمارهم العداوة والبغضاء لبني ابيه ، نعم انهم يحاولون كتمانها ولكن تفضحها المجالس والاحاديث فيقول :

فسبحان ربي ما لقوم ارى لهم كوامنَ اضغانٍ عقاربها تسري
اذا ما اجتمعنا في النديّ تضاءلوا كما خفيت مرضى الكواكب في الفجر
بنو العم لا بل هم بنو الغم والاذى واعوان دهري ان تظلمت من دهري

ويضرب بعد ذلك في عمياء ويتجنى محاولاً ان يمسخ التاريخ فينكر فضلَ ابي طالب في نصرة النبي ويذكر اباه وحده بالفضل فيقول :

وابونا حامي النبي وقد اد بر من تعلمون وهو يذود

ويقول : أأبو طالب كمثل ابي الفضـ ـلِ اما منكم بهذا عليم
سائلوا مالكاً ورضوان عن ذا اين هذا واين هذا مقيم

بنو العباس

هؤلاء بنو طالب وهذا ما استحقوا من ابن المعتز في شباب عمره وجنوح خواطره ، اما قومه فهم اهل السماح والبذل والجود ، وليس الجود بالمال فحسب وانما الجود بالنفوس وهو اقصى غاية الجود ، ويرى

ان الله خلق ذلك فيهم جبلة وفطرة ، ويقول في ذلك :

وكنا معشراً خلقوا كراماً نرى بذل النفوس من السماح

وبنو العباس في رأيه اولو العزم والصبر ، واولو العــدد والعدة ، وهم الذين تفخر بهم قريش في النسب والمكارم وجلاء الخطوب ، وهم خطباء المنابر وفحول البلاغة ، وهم في الحرب اسودها وفي السلم دعائمها ، وفي ذلك يقول :

اني من القوم الذين بهم فخرت قريش على بني كعب
صُبرٌ اذا ما الدهر عضهمُ واكفهم خضر لدى الجدب
ولهم وراثة كل مكرمــة وبهم تعلـّق دعوة الكرب
واذا الوغى كانت ضراغمة وعلت عجاجة موقف صعب
لبسوا حصونا من حديدهم صبـــارة للطعن والضرب
وعدت جيادهم بكل فتى يمضي بقـائم منصل عضب
مرّ اذا بلغت حفيظتــــه حاوِ الرضا في سلمـه عذب

ويقول ايضاً :

إنا لننتاب العداة وان نأوا ونهز احشاء البـلاد جموعا
ونقول فوق اسرة ومنـابر عجباً من القول المصيب بديعا
قوم اذا غضبوا على اعدائهم جروا الحديد أزجة ودروعا
حتى يفارق هامُهم اجسادَهم ضربا يفجر من دم ينبوعـا
وكأن أيدينـا تنفر عنهم طيراً على الابدان كن وقوعا*
واذا الخطوب أتين منا مطرقاً نكصت على اعقابهن رجوعا

ولكن ابن المعتز مع هذه المغالاة في وصف ابنـاء ابيه يخونـه صدقه فيصور حكمهم الاستبدادي في قوله يفتخر كفخر الجاهلية :

لنا عزمة صماء لاتسمع الرّقى تُبيت انوف الحاسدين على رغم

---

* يشبه في هذا البيت الرؤوس على الابدان بالطير وفي البيت الذي يليـه يبالغ في نكوص الخطوب من مطرقهم وكلاهما بديع .

وانا لنعطي الحق من غير حاكم   علينا ولو شئنا لملنا مع الظلم

ويصدق ابن المعتز اكثر من هذا حين ينصح قومه بأن يعضوا على ملكهم بالنواجذ ، وكأنه يرى كراسيهم تتزلزل من تحتهم وذلك حين يقول :

شدوا اكفكم على ميراثكم   فالحق اعطاكم خلافة احمد
ومتى يرمها الرائمون فبادروا   هاماتهم حصداً بكل مهند

ولكن هيهات ! فما كان قوله الا صيحة في واد !

عود الى بني طالب

وبعد ، فان بعض من اتصلوا بابن المعتز يبرئونه من كره بني عمه الطالبيين ومفاخرته عليهم ، ويقولون ان شعراً منتحلاً كان ينقل اليه وكأنه منهم ، كان مدسوساً من القرامطة مناقضة لشعره ، فكان قوله يمضي على ذلك ، وتمرّ له أبيات يتناول فيها شيئاً فيتأول أعداؤه غير ذلك ، ويحتمل الشعر المعنيين ، حتى اذا اجتمع اليه جماعة الطالبيين منهم ابو الحسين محمد بن الحسن المعروف بابن البصري ، ومنهم القاسم بن اسماعيل فحلفوا له انه ما يقول هذه الاشعار احد منهم ، تندّم على ما كان من قوله ثم انشد اشعاراً يعتذر فيها ويمدح امير المؤمنين علياً وولده عليهم السلام . وأعطى الله عهداً لا يقولن باقي عمره في هذا الفن !

وحقاً لقد فعل ، فقد حسن وده لهم وحسنت امانيه فيهم حتى قال ابن البصري — وكان يجالسه — : كنت أجالس عبدالله ابن المعتز ، وكان يحلف لي بالله لئن ملك من هذا الامر شيئاً ليجعلن البطنين بطناً واحداً ، وليزوجنّ هؤلاء من هؤلاء وهؤلاء من هؤلاء .. وقال : لا ادع طالبياً يتزوج بغير عباسية ولا عباسياً بغير طالبية حتى يصيروا شيئاً واحداً ، وأجري على كل رجل منهم عشرة دنانير في الشهر وعلى كل امرأة خمسة دنانير واجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك .

. ومن قوله يعتذر لهم حين اعتدل من جور ويرى ان بغض عليّ من الكفر :

رثيت الحجيج فقال العدا ةُ سبَّ علياً وبنتَ النبي
أآكل لحمي وأحسو دمي فيا قوم للعجب الأعجب
عليّ يظنون بي بغضه فهلا سوى الكفر ظنوه بي
إذن لاسقتني غداً كفه من الحوض والمشرب الاعذب

وقال قوم انه لم يقل الشعر ضد العلويين الا كلما بلغه انهم ثاروا بالاطراف ، ولم تكن الدولة العباسية تخشى منافسة غيرهم ، لان الدولة لم تقم اول ما قامت الا لهم ، وما قتل ابو مسلم الخراساني لسبب غير ميله لاهل البيت وصدقهم المشورة فيما يحسّن أمورهم ، فكان خلفاء بني العباس يخافونهم ، ولا بدع أن تكون قد سرت هذه العدوى الى ابن المعتز فهجاهم ليرضي اهله او يتقرب الى الخلفاء .

ويخيل لي انه لم يعدل عن هجائهم الى مدحهم الا في عهد الخليفة المكتفي بن المعتضد ، لانه رأى المكتفي مائلاً الى حب علي بن ابي طالب باراً بأولاده ، حتى حكي أن يحيى بن علي الشاعر انشده بالرقة قصيدة يفضل فيها بني العباس على بني عليّ فقاطعه المكتفي وقال : يا يحيى كأنهم ليسوا اولاد عم ! ما أحب ان نُخاطب أهلنا بشيء من ذلك ! ولم يسمع المكتفي القصيدة ولم يجزه عليها .

بدعة سياسية

وكيف نعذل ابن المعتز وحده في هذا والشعراء في عصره ممن والوا العباسيين كانوا على العلويين ؟ وهذا ابن الرومي يهجوهم فيقول :

يا ليت اهل البيت إن حرموا عصموا من الشهوات والفتن
لكنهم حرموا وما عصموا فقلوبهم مرضى من الحزن
وهمُ أطبّ على بليتهم من غيرهم بمضاضة الشجن

فابن الرومي يتحامل عليهم اكثر من تحامل ابن المعتز ، وهو لا ينتمي

الى فرع من فروع بني العباس ولا العرب ، وانه ليبدو لي ان التعصب لابن المعتز قد جرّ ابا الفرج الاصفهاني الى ان يبرئه جملة مما نسب اليه او يدفع عنه وزره في آل ابي طالب ، فكان مما قال في اغانيه « عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع عليه بامر الدين وهجاء آل ابي طالب ، وهم اول من فعل ذلك وشنع به على آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه . »

ولكنا نرى رأياً قاطعاً ان ابن المعتز قال في آل ابي طالب في عهد الخلفاء قبل المكتفي ، ويؤيدنا في ذلك ديوان شعره ، وكان ذلك جرياً على بدعة سياسية جديدة في الشعر العباسي يتقرب بها اصحابها الى الخلفاء العباسيين بذم العلويين لتحتدم العداوة بين مستحقي الخلافة ، وليظل الترك في مأمن حصين ، وقد حمل لواء هذه البدعة منصورٌ النمريّ ، وصارت البدعة بذلك مذهباً شعرياً كما كانت مذهباً في الحوار والخطابة ايام الامويين .

اسلوبه في الفخر

لعل القارىء لشعر ابن المعتز في مفاخرته لبني امية وبني عليّ يرى خطيباً لا شاعراً ، ولعله يستطيع في يسر وسهولة ان يؤلف من شعره خطبة رائعة من مختلف البحور والقوافي ، تبين رأي الخطيب السياسي في عرضه وموضوعه وتأييد رأيه بالحجة والدليل وتفنيد آراء الخصوم والخروج من كل ذلك الى التسليم بصحة رأيه الذي ارتأى والمقصد الذي ابتغى .

وابن المعتز في هذه الناحية من شعره متأثر بالفلسفة والمنطق محتج بقضايا الفقه والتاريخ ، يسهّل اسلوبه ويدنيه من الناس ، وان يكن قد فاته ان يكون كل ذلك في قصيدة واحدة كالملحمة او قصائد كاملة ، فانه لم يفته ان يكون متفرقاً في ديوانه . ومهما يكن من امر فقد جاء فيه مستكملاً شروط الخطيب .

مادة فخره

ومادة فخره منذ شدّ مئزره ومنذ شب حتى اكتهل لا تنفـــد ولا

ينضب لها معين ، وفي ذلك يقول :

وما زلت مذ شدّت يدي عقد مئزري   غناي عن الغير افتقاري الى نفسي
ودل عليّ الحمدَ مجـــدي وعفتي   كما دل إشراق النهار على الشمس

ويقول :

فقري فتيّ وشبابي كهل   وكل فضلٍ لي عليه فضلُ
أشكى لجودي حين يُشكى البخل

وكيف وهو الغني الموسر وارف ظلال الغنى في قوله :

لنا إبل ملء الفضاء كأنما   حملن التلاع الحوّ فوق الحوارك

وهو الفتى الأيّد القوي الشجاع الذي يساوي وحده جيشاً ، او يكون واحدَ الجيش في قوله :

انا جيش اذا غدوت وحيداً   ووحيـداً في الجحفل الجرار

وليس في غنى المرء ويسره فضل ان لم يكن ذا مروءة وبـــذل ، يرحل معه الكرم أنى ارتحل ويلتف اصحابـــه وصبيانه وحشمه وعبيده حول نار القرى يذبحون وينضجون ويأكلون ويهبون ، وافضل الكرم ما اذا اشتد البرد والقرّ ، ومال ابن المعتز إنما ينفقه هـذا الانفاق ومن اجل ذلك يفتخر بقوله :

وليلة ُقرّ قد اهنت كريمها   ولم يك بي شح على الجود غلاّبا
وقمت الى الكُوم الصفايا بمنصلي   فصيرتها مجـــداً لقومي واحسابا
فباتت عـلى احجارنا حبشيةً   تخاطب امثالاً من السود اترابا
يكاد يبث العظمَ مارِدُ غليها   إذا لبست من يابس الجزل جلبابا
عجالاً على الطاهي بانضاج لحمه   سراعـاً بزاد الضيف تلهب إلهابا

ويقول في نار القرى وما احسن ما قال :

فوق نـارٍ من الحطب الجز   ل إذا ما التظت رمت بالشرار
فهي تعـلو اليفاع كالراية الحمـ   ـراء تفري الدجى الى كل سار

وما يهان من كرام الابل عند باب ابن المعتز في البرد والقر الا

فقليل اذا قيس بما يذبح للناس اذا امحلوا وحلّت لهم الصدقة والمأكلة ، وحينئذ لا تنتظر الابل السكين ، وانما يعمل السيف في رقابها عجلًا ليطعَم الجائعون ، وبذلك يفخر فيقول :

والسيف راعى إبلي في المحل يسلمها الى قدور تغلي
يوقل فيها بالوقود الجزل ارقالها في السير تحت الرحل

ولو أصبح اعطاؤه الناس قلقاً لنفسه ومهلكة لها لم يمسك عليها ، وكفاها ما تملك من قليل . وفي ذلك يقول :

وأوثر صاحبيّ بفضل زادي وأحيي النفس بالوشل القليل

وهل يمسك ابن المعتز وهو شبيه السحاب الذي يجود الخصبَ والجدبَ بغيثه ؟ فانظر اليه يقول :

وسقيتُ بالجود الفقيرَ وذا الغنى والغيثُ يسقي مجدبا ومريعا

وانه ليجود بماله وجاهه عن ايمان بان المال والجاه سيفنيان ، فاذا لامه لائم على سخائه وبذله لم يكن اللائم الا كماوّية امرأة حاتم ، وكانت كلما لامته زادته اقبالا على السرف والانفاق وقال لها :

اماويّ ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر

غير ان ابن المعتز اعمق من حاتم فلسفة واكثر عللا لكرمه ، فانظر اليه حين يقول :

ومالٍ قد سخوت به وجاه وجيه لا يخاف اذى الحجاب
وكيف تصان عن اجر وحمد وجوه سوف تبذل للتراب

فهو انما ينفق عن ايمان ويقين ، واذا جاز لأحد ان ينتجع كلأ احد فهو المنتجَع المسؤول المرجى ، ولعمري لقد انتجع ابن المعتز الخلفاء ثم الوزراء ولا سيما بني وهب فأفسدَ عليه ذلك الانتجاعُ قوله يفتخر :

لا تشيم البروق عيني ولا أجـ عل الا الى العلا اسفاري
لا ولا ارتجي نوالا وهل تسـ تمطر الناسَ ديمةُ الامطار
هاشميّ اذا نسبت ومخصو صٌ ببيت من هاشم غير عار

اخزن الغيظ في قلوب الاعادي واحل الجبّار دار الصّغار

ولابن المعتز غير صفة الجود صفة الشجاعة وهما معا ذؤابتا الفضل والمجد والحسب للعرب ومن نسل منهم ، وهو يصف شجاعته وصفا رائعا في قوله :

ولي الصافنات تُرْدَى الى المو ت ولا تهتدي سبيل الفرار
وسيوف كأنها حين هُزَّت ورق هزه سقوط القطار
ودروع كأنها شمط الجمد دهينا تضل فيها المداري
وسهام تُرْدي الرّدَى من بعيد واقعات مواقع الأبصار

ولما كانت أيامه أيام بلاء وفتنة ، وكان كتمان السر أفضل الاخلاق وسبيله أسلم السبل فقد وجدناه رجلا كتوما لسره عن الصديق والعدّو على سواء . ويدين لتجاربه بالفضل في قوله :

وبدا لي في التجاريب إذا كثرت خزّان سرّ سيذيع
فاكتم السر حبيبا وعدوا فهو من هذا وهذاك يشيع

والحلمُ في الفتنة أولى الاخلاق وأحقها بالتفضيل — وإن كان الحلم دائما في الفتنة والصفو سيد الاخلاق — وهذا خلق ابن المعتز ، فاذا ما حقد أحد عليه أو حسده قلم أظفار ضغنه بحلمه فارتد الكاذب عليه لائما لنفسه ، والحاسدُ له مغتبطا بنعمة محسوده ، وقد وصف ذلك في قوله :

وأصمتُ عني حاسدي بخلائق مهذبة ليست لمن عيوب
فمن قال خيرا قيل إنك صادق ومن قال شرا قيل أنت كذوب

وابن المعتز بعد كل هذه المفاخر رجل صادق الايمان لا يتطرق الشك إلى قلبه ، فإذا مَر بخاطره صدَع ظلمته باليقين وحبس نفسه على التطهر منه حتى تنجلي غشية النفس وتذهب عنها السوأة .

ويقول معبرا عن هذا :

وأصدع شكي باليقين وإنني لنفسي على بعض المساءة حابس

وهو قانع بما يُرزق مع سعيه وجده لغير المال ، فما المال الا حظ

مقسوم ؛ ويفتخر بذلك في قوله :

فيا نفس إن الرزق نحوك قاصدٌ فلا تتعبي،حسبي من الرزق إتعابا !

عيب فخره

إذا عددنا ظلمه لبني عمه الطالبيين عيبا سياسيا فإنا نعد له غير ذلك عيبا فنيا ما كان له أن يقع فيه ، فليس يروق في نظر إنسان أن يفخر ابن المعتز بجماله حين كان صبياً ولا أن يندبه ويرثيه حين أدبر عنه هذا الجمال ، وإن من عيب الرجل حقا أن ينظر بهذه العين التي تنظر بهـــا المرأة في مرآة الشباب ، تلك المرآة التي لا يبين على زئبقها إلا النعومة والطراوة ، فما كان مباحا للفتاة من ذلك كان حراما على الرجل أن يباح له أو يبيحه لنفسه ، وما استحسنتُ ولا أظن أحـــداً من الناس يستحسن قول ابن المعتز عن نفسه :

من بعد ما قـد كنت أيَّ فتى كقضيب بان ناعـم رخص

ولا قوله :

أروح كغصن البان بلله الندى وهُزَّ بأنفاس ضعافٍ وأمطـرا

وانما يصف العربُ الفتى بالسيف والرمح كقول قائلهم :

فتى قُدَّ قَدّ السيف لا متضائل ولا رهـــل لباته وأجادُله

اما الوصف بالغصن وقضيب البان والخيزرانة فانه اولى بالنساء . واما ما تمناه ابن المعتز من الرجوع الى الفتوة والصبا فقد حسن قوله فيه :

فأمامي المرّ من عمري ووارئي منه ما طابا

خضبتْ رأسي فقلت لها اخضبي قلبي فقد شابا

ويستحسن منه ايضاً قوله يذكر شبابه :

كنت ريحـــانة المجالس في السلـ ـم وحتف الابطال يوم الحروب

وماكان خطؤه ذاك الا سَورة نساء وجلوسا اليهن في مجالسهن، فكان ذلك الاثر الذميم .

الغزل

اسلوب غزله

اسلوب ابن المعتز في غزله اسلوب القدماء ، فهو يقف بالديار والاطلال باكياً حزيناً متذكراً كثير الحنين ، ناعياً على غراب البين ما حمل اليه من النذير وما نعب بالفراق ، وجل قصائده في فنون الشعر يبتدىء بالغزل وان كان يميل عنه في بعض الاحيان الى البدء بصفة الخمر .

وهو في اكثر غزله شاعر قاصّ كعمر بن ابي ربيعة ، والامثلة على ذلك كثر في ديوانه . وقد اجاد في هذا الفن ايما اجادة حتى عده احمد ابن اسماعيل الكاتب من المتقدمين في الغزل لان الشعراء الذين احسنوا في الغزل حتى تفردوا به وكان الغزل قطعة من شعرهم معروفة ــ قليلون ، وخاصة من عمل في المذكر والمؤنث ، وهو اول من حصّل هذا حتى تقدم فيه من سبقه وتبعه الناس .

ونحن لا نرى رأي احمد بن اسماعيل هذا لان القرن الثاني الهجري هو صاحب الفضل في ابتداع المجون والاكثار منه ، وقد ولغ فيه بشار وابو نواس والخليع ، وانما كان ابن المعتز اشبه بهؤلاء منه بشعراء عصره كابي تمام والبحتري وابن الرومي .

وابن المعتز في غزله الشعري او شعره الغزلي ثلاثة رجال : ماجن عربيد لا يعنى بالعاطفة ولا تلمس من قوله حرارة نفس المبتها حرارة الحب ، ورجل آخر صادق الحب يدل كل لفظ في شعره على حب متمكن ولوعة تعتلج في الصدر ، ورجل ثالث غير هذين الرجلين جاء غزله اشبه بغزل الفلاسفة واهل الفقه والكلام ، يقدم العلة للمعلول ويرتب الكلام ترتيب اهل المنطق ، وينظمه نظم العلماء .

ولا يدر بخلدك اننا نفصل احوالا مختلفة في الغزل لابن المعتز تتعاوره ويتداولها ، وانما هو رجل واحد قد جرى في هذه المسالك جميعا ، فجرينا

وراءه نتتبعه في هذه المسالك ونفصل بعضها عن بعض ، ونفرد كل مسلك بكلام .

غزله العلمي

ولو سألنا ابن المعتز العالم المدقق ان يحدثنا حديثه عن الحب وآدابه وميادين صراعه وقتلاه لرأيناه ناهضاً مجيباً بما يشفي النفس ويغني عن الاستزادة ؛ انه اعلم الناس بحال النفوس اختلافها وائتلافها وثبوتها وتحولها ، وقد عرف هذا الشيء الذي يسمونه الحب ودرس دقائقه في كل مكان ، اذ هو موجود في كل مكان ؛ عرفه في قصور الخلفاء ودور الناس وحانات الشراب ومجالس المنادمة ، عرفه وأدمن في معرفته ، وان كان قد تنصل في اخريات ايامه من ارجاسه .

عرف ابن المعتز ان اول آداب الحب ان يكتم المحب اسم حبيبه فلا يبوح به مهما شفى البوح من وجده واطفأ من غلته ، لان اظهار الاسم شهرة للحب واذاعة لامره وتشهير بالحبيب ، وهو في هذا على سنة اهل البادية القدماء يحرّمون على المحبين الذين يشهّرون باسماء الحبيبات الزواج منهن ، لانهم بهذا التشهير يفضحون بيوتاً يجب ان تكون مستورة مخبوءة بالحجاب عن الناس ، ولئن وجب هذا في الزواج فهو في الحب اوجب ليكون المحب والحبيب بمنأى عن العذل والملام .

ومن الخير ان يكنى عن المرأة بكنية قريبة الوزن من اسمها ، واكثر خيراً ان تبعد ، ومزاولة كنية واحدة بالذكر يشفي القلب كما يشفيه الاسم الصريح . وعذاب هذا الستر على المحب اخف من عذاب اللوم والعذل ان افتضح الحب ، وعلى المحب ان يتنزه عن ان يشرك الناس في معرفة اسم من يحب فلا يجعله في افواههم لانهم لن يذوقوا له الطعم الذي يذوقه ، فاذا كان لا بد من ذكر الحبيب كنى عنه واراده هو ، فاذا عنّ له ان الناس قد فطنوا لحبه ستر ذلك الحب بحب آخر يعلنه ويذيعه حتى يغطي

على الاول ويخفيه ، وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قالت تبدلت اخرى قلت افديك   من كل سوء ومكروه واحميك
قالت وسميتَها في الشعر قلت لها   سميتُ غيرك لكن كنت اعنيك

ويتفلسف ابن المعتز لفكرته هذه فيقول :

لما رأيت الحب يفضحني   ووشت عليّ شواهد الصب
ألقيتُ غيرَك في ظنونهم   وسترت وجه الحب بالحب

واذا كان من شريعة الحب ان يكتم الرجل والمرأة حبهما فان المرأة اقدر دائماً من صاحبها على هذا الكتمان . والتمنع اقدس واجبات المحبوب فلا بد له من ان يتحصن بالهجر والدلال ، فاحب شيء الى الانسان ما منع .

والمنع في الحب أغرى بالحاجة وأدعى للطلب ، ومهما دهى داء الحب واوجع ، وابلى الوجد وقتل ، فان المنع اقدس واولى .

وما التقى رجل وامرأة حول مائدة الحب الا كان الغلب لها والهزيمة له ، وليس الامر في الرجل والمرأة الا كما قال القائل :

اذا مرضنا اتيناكم نزوركم   وان جنيتم اتيناكم فنعتذر

وما من رجل احب الا وقد ارتدّت اليه اسهمه كلها بيضاء لا تصيب من المرأة حبة قلبها ولا شغافه ، ولا جلد جسدها ، بل ولا صفحة ثيابها ، اما هي فكلما رمته بسهم اصابه وادماه وأوجعه واشقاه ، وليس لعاشق ان يرجو دواء او يتعلل بأمل في شفاء ، وانما سوف يسري داؤه فيه ويعييه ما طاب للداء السّري والاعياء . ويقول ابن المعتز في هذا :

رددتِ سهامي عنكِ بيضاً وخضبت   سهامُك في قلب عميدٍ واحشاء
فلم ار مثل المنع اغرى لحاجةٍ   ولا مثل داء الحب ابرح من داء

وحب الرجل ما يلبث غير قليل ثم يحور بكاء وانينا ، ولو قدّر للرجل ان يسعد بحبه لما ذاق هذه السعادة الا وهي مشوبة بالذلة والشقاء . وفي ذلك يقول :

خليليّ بالله الذي انتما له   فما الحب الا انة وبكاء

كما قد ارى قالوا كذاك وربما يكون سرور في الهوى وشقاء

وحظ الرجل في الحب سيء ابداً ، وهو على فداحة عبئه من الالم فانه يحمل هذا العبء وحده ، ولن يحس احد غيره بمرارة الله ، ولو قدر للعاذل ان يذوق بعض ما يذوق المحب من مرارة الحب ما عذل ولا لام ، وليس يجد الرجل مخاصاً من قيود الحب مهما احتال للخلاص .

اما المرأة فقليلاً ما تتقيد بحب ، بل يكاد ابن المعتز يراها لا تتقيد في الحب بقيد في قوله :

قيدني الحب وخلاّها ولج بي سقم وعافاها
كدت اقول البدر شبهٌ لها اجعلها كالبدر ؟ حاشاها !

وما اسرع الجحود الى قلب المرأة ، وانها لتنسى من تعرفه او تتناساه دون ان يغبّر ذلك من خاطرها او يكدر من صفائها ، ويقرر ابن المعتز ذلك فيقول :

وشمس ليل طرقتها فبدا منها صدود ما كنت أحسبه
تقول من ذا ؟ ولست اعرفه يا لصة القلب حيث اطلبه

وبعد ، فما الحب في نظر هذا المحب الفيلسوف كما تقرؤه في اسطر ديوانه ؟

انه ليس غير موعد ورجاء ، وسهر وبكاء وانين ، وان تنهل الدموع وتسرف في الانسكاب حتى يزول القلب عن مستقره خفوقاً وقلقاً واضطراباً ، فاسمعه يقول :

أبِنْ لي فقد بانت بها مدة النوى أأنت على شيء سوى الهمّ قادر
نعم ان يزول القلب عن مستقره خفوقاً وتنهل الدموع البوادر

ثم يقول :

اشكو الى الله انّ الدمع قد نفدا واني هالك من حبكم كمدا
وانّ عينيَ في ليلي مسهدة فلست أرقد فيه مثلما رقدا

واما ابن المعتز الغزِل الماجن العربيد فحسبك ان تعرفه من قوله :

وما العيش الا لمستهـــتر   تظــــل عواذله في شغب
يهيم الى كل مـــا يشتهي   وان ردّه العذل لم ينجذب

هذا الماجن غير ذلك العالم ، بل هو في ناحية اخرى غير ذلك الفقيه الواصف المصوّر ، وانما تراه هنا غزِلاً مفتوناً بمظاهر الحسن ومباذله ، لا يدرك منه الا ما يدرك من الاعضاء الظاهرة التي تمتلىء منها حدقــة العين وتلمسها اليد وتتمرغ فيها الحواس ، رجل لا يعني بالعاطفـة الشريفة ، بوهيمي الحب يريد الانطلاق بلا قيد ، ويحيد عن كل وازع ، وكأنه يعبر عن مبدئـه هذا بقوله :

انا مذ صار لي سكن   في ضروب من الحزن
هائم العقل في نهـــا   ري وليـلي بـلا وسن
ليتني عدت مثلما   كنت أرعى بلا رسن

وعقل هذا الرجل عبد شهوته واسير نهمـه ، وهو يصرح بذلـك لا يهاب قائلاً :

جعلت عقلي لشهوتي عبدا   وصار غيي عند الهوى رشدا

وهو يبيح للحب ان يشيع بـــين الناس مادام شهوة من الشهوات ، وسواء لديه أطلب اللقاءَ المحبُ ام الحبيب ، (وكان طلب اللقاء من المرأة عيباً في شرعة من سبقوه) فيقول :

تقول لي والدموع واكفة   في خدرهـــا بالدماء تمتزج
حتى متى نلتقي على حذر   آما لنا من عذابنـا فرج ؟

والشاعر الامير يحب صفات المرأة الجسدية البادية ، فيعجبه منهـــا ان يكون قوامها غصن بان ، ووجهها مضيئاً اضاءة بدر الدجى ، ويحب ما دون خاصرتها ان يكون كالنقا ، وفي عينها سنةٌ تغالبها كالسنة التي في عين الظبي ، ومقلتهـــا كالنرجس الذابل ، ووجنتها قـد تفتح فيها

الورد ، وان يبرز النهدان بروز الرمان ، وان يكون شعرها مسرفاً في الطول ، وريحها كالراح ، وانك لترى كل تلك الاوصاف منتشرة في غزله اوسع انتشار ، وكل ما قاله في هذه الناحية انما هو صنعة وتقليد :
ولكنا نعنى من هـذا باستهتار ابن المعتز وسرفه ، فهو يقول في المداعبة والاغراء :

يا هـلالا يدور في فلك الما ورد رفقـاً بأعين النظـارة
قف لنا في الطريق ان لم تزرنا وقفة في الطريق نصف الزياره

ويقول في غشيانه حيّ الحبيب بالليل :

نبهته والحي قد رقدوا مستبطنا عضبا مضاربه
فكأنني روعت ظبي نقا في عينه سنة تغالبـه

وَيحكي ابن المعتز في غير اخفاء فيقول :

كم ليـلة عانقتُ فيهـا جيـده حتى الصبـاح مُوَسّدا كفيـه
فسكرت لا ادري امن سكر الهوى ام كاسه ام فيـه ام عينيـه
وغـدا فنم عليه عنـد عذوله اثر من التقبيـل في شفتيـهِ
وسقام عين لم تذق طعم الكرى يدعو العوائـدَ في الصباح اليه

ويقول :

كأنني عانقتُ ريحانـةً تنفستْ في ليلهـا البارِدِ
فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنـا من جسد واحـد

وانه ليفحش في غزله اكثر من هـذا فيتغزل بالمستهترة التي تطالبه باللقاء ، ويدب اليها في الليل والناس رقود حاملا سيفه مخافـة العذال ويقول :

عقدا نطاق طول ليلها معـاً قـد ألصقا الاحشاء بالاحشاء
حتى اذا طلع الصباح تفرقا بتنفس وتلهـف وبكاء
ماراعنا تحت الدجى شيء سوى شبه النجوم بأعين الرقبـاء

ولا يأبى ابن المعتز ان يحب من لا تعرف الحب ولا تقيم له وزنا ،

ولعله كان اذا سئل : الا تحب من لا تحبك ؟ يقول : بلى ، نحبها ايضا ، فهو حب من نوع ساخر لا يوجع المحب فيه بُعد محبوبته عنه متى تصورها وتراءت امام عينيه في تذكره ، ومثل هذا قوله :

ما ابالي بظنون وعيون أتقيها
لى من ذكراك مرآ ة ارى وجهك فيها

ثم لا يهمه هجر ولا وصال (وهو عيب في شرعة الحب) ، كما يقول :

فان اردتِ وصالا فاقبلي صلتي مني والا فهجران بهجران
ولا اريد الهوى ان لم يكن لهوى نفسي وبعض الهوى والموت سيان

وهو يملك قلبه متى شاء السلو وكما اراد ، وكما يقول :

فاسل عنها فالآن وقت التسلّي قطعَتْ منك حبلها فانبتّا

وأعجب ما في غزل ابن المعتز من هذا النوع انه محب يقسط كأسَ الحب ، فلا يشربها كالمحبين دفعة واحدة ويأتي عليها حتى الثمالة ولكن كأن الحب شيء في قبضة يده وفي ملكه فهو يصرفه كيف يشاء ، وسرعان ما يفضي مثل هذا الحب للسلوان والاعراض فاسمعه وهو يقول :

القلب لا يجمع ثنتين والغمد لا يجمع سيفين
تاهَ فأفضيت الى غيره خار إلهي للفريقين

ويفقد ابن المعتز عفته فلا يبالي أحسنا يحب أم قبيحا ، ولقد حضر مجلس شربه وغنائه ذات مرة جعفر بن قدامة والنميري وعنده جارية لبعض بنات المغنين تغنيه ، وكانت تحسن الغناء الا أنها في غاية القبح . فجعل ابن المعتز يجمشها ويتعلق بها ، فلما قامت قال له النميري : ايها الامير ، سألتك بالله اتتعشق هذه التي ما رأيت قط اقبح منها ؟ فقال ابن المعتز وهو يضحك :

قلبي وثاب الى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهيم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

وليس ابن المعتز مبتكر هذا المذهب في المجون، وانما سُبق اليه ولا سيا بأبي

نواس ، وهو في هذا تظهر رقة فنه وتناوله للهو والمداعبة بالعبث والاسراف .

حبه الصادق

اما ابن المعتز المحب فتراه في غزله الصادق وحبه المضطرب وانفاسه المحترقة . ولم يُصَب امرؤ باضطراب ذهني وخلط وجمع بين النقيضين في الاقوال والافعال كما اصيب المحبون ، ولو استطاع مصور بياني ماهر ان يصور حال محب صادق لترك ريشته تضطرب هي ايضا ، وقد ترجع في النهاية وقد ابدعت التصوير حين لم تصور شيئاً .

وهذا الشاعر ينتابه في كثير من نوبات حبه هذا الاضطراب ، واظنه حين يلجأ الى ادعاء السلوى والتصميم على التوبة والانتصاح بلوم العذال ويؤكد الايمان ويكررها يكون حينئذ اشد النـــاس ايغالا في الكذب ونزوعا الى الغواية ، وها هو ذا يقول :

أبى القلب الا حب من هو هاجر ومن هو ينساني ومن هو (هاجر)؟
ومن هو عني كلما جئت معرض ومن لا يواتيني ومن انا عاذر
فكيف بمعشوق يحب ويشتهى أأكتمه وجدي به ام اهاجر ؟
وكيف يراني ان بدا لي منعه اأتركه زهدا بـه ام اكابر

ولسان السالي في ناحية ، وقلبه في الناحية الاخرى ، لسانه معه وقلبه عليه ، وانه ليطلب حبيبه مهما امتنع ويرجوه مهما مطل ، ولن يخونه ولو خان ، ويقول في ذلك :

قَدْ مَنَّ عَلى منعي ودمتُ مطالباً ولا شيء الا موعـــد ورجاء
حلفت لقد لاقيت في الحب منهم اخا الموت من داء فأين دواء ؟

وقد كتب عـلى المحبين ان يشقوا ، فشقاؤهم قدر مكتوب ، ولا يمسح هذا المكتوب الا رؤية الحبيب التي تذهب بالحسرة والكآبة وتمحو الهم والألم ، وهو واحد من هؤلاء في قوله :

حــــدثيني يا همّ سؤلي ونفسي من دهاني في الحب او من وشى بي

لا ومن قدّر الشقاء على العشاق ما خنتُ ساعة في حسابي
ليت أن الرسول كان يؤدي لحظ عيني كما يؤدي كتابي
فأرى شِرّ كل يوم ويشفي سقم نفسي وحسرتي واكتئابي

فاذا لم يزره الحبيب او يؤد الرسول لحظ عينيه ليرى محبوبته وتراه في الرسول علل نفسه بالود الكاذب ، ومنه قوله :

عللينـي بموعـد وامطلي ما حييتِ به
فعسى يعثر الزما ن ببختي فينتبه

فاذا لم تزر ولم يعلله الكذب فليكن شفاؤه في الطيف ، وما اقدر الطيف على شفاء الاسقام كما يقول :

شفاني الخيال بلا حمده وأبدلني الوصل من صده
وكم نومة لي قوادة أتت بالحبيب على بعده

واحب زورات الحبيب في الليل وعلى غير موعد وفي عجلة الخوف كما يقول :

وزائر زارني على عجل منقب الوجنتين بالخجل
قد كان يستكثر الكتاب لنا فجاد بالاعتناق والقبل
يقوده الشوق خائفاً وجلاً تحت الدجى والعيون في شغل
فنلت منه الذي أؤمله بل الذي كان دونه أملي

فاذا لم يزر الحبيب على غير موعد فنظرة في الطريق او لقاء في زحمة العيد ، كما في قوله :

قف لنا في الطريق ان لم تزرنا وقفة في الطريق نصف الزيارة

وقوله :

رأيته يتمشى متعباً ضجراً كمثل غصن نقا في الروض املود
ليت الغبار الذي يؤذيه لي كحل وليتني جاره في زحمة العيد

ولقد خيل لي ان ابن المعتز قد اصبح محباً يغني لذات حبه وينفق عمره فيه ، ويعلق بمن يحب جيئة وذهوبا وقياماً وقعوداً ، وانه لهائم

ويزيد به الهيام والاضطراب فيرى البعد والشكوى للأصحاب مما اصابه قدراً مكتوباً ، ويحاو له اللوم والعذل ما داما في الحب ، وانه ليفلسف لذلك فيرى العذل والملامة بذلاً في طاعة الحب يجب ان يحتمل وان يلذ سماعه فيقول :

كذبت الهوى ان لم اقف اشتكي الهوى اليك وان طال الطريق على الصحب
وقفت بها والصبح ينتهب الدجى بأضوائه والنجم يركض في الغرب
أصانــع اطراف الدموع فمقلتي موقرة بالدمع غربــاً على غرب
وهل هي الا حاجة قضيت لنــا ولوم تحملناه في طاعــة الحب

ويرجع هذا المحب بعد كل هذا يلوم نفسه ويراها سبب بلائه فيرميها بذنب حبيبه ، ويحملها الشقاء التي رمت بنفسها في اجيج لهيبه ، ومهــما اعتذرت عن ذلك بوساوسها واغواء ابليس لها فأنما الذنب ذنبهـا والاثم عليها ، فهي التي نظرت بالقلب فخفق ، ونظرت بالعين فبهرت ، وانه ليخاطب قلبه بهذا قائلا :

ما ارى في الهوى لابليس ذنباً ان عيني قادت وانت اتبعتــا
فذق الحب قد نُهيت فخالفــ ـت ألست الذي نهيتَ ألستا !

وكم لهذا الحب الصادق من تأوهات ، وكم للهجران والجفاء فيـه من خفوق قلب ومسيل دموع ، ولو علم العذال لذعته ما عذلوا وما لاموا ، وابن المعتز في حبه هذا يحتمل ما فوق الهم ولو زال قلبه عن مستقره وعاش بعد حبيبه عيشة مريضة سقيمة ، ألم تسمع قوله :

فكيف بها لا الدار عنهــا غريبة ولا انت عنهــا آخر الدهر صابر
ابن لي فقد بانت بها مدة النوى أأنت على شيء سوى الهم قـادر
نعم ان يزول القلب عن مستقره خفوقـاً وتنهل الدمـوع البوادر
وأحيا حياة بعــد سلمى مريضة لها عاذل في حب سلمى وعاذر

وقوله :

وظل عذاله لا كان عذّله لو يعلمون الذي القى لما عذلوا

ويتوب ابن المعتز ويلح في التوبة ثم ينكص على عقبيه ، ويرجع فيتوب ثم يرجع فيعود ، ولا ينفك يتوب ويعود كاذباً في التوبة فرحاً بالنكوص عنها مسرعاً اليه متقبلاً تهانيء ابليس حيث اطاعه ولبى دعوته ورضي غروره ، وكذلك ايمان الظرفاء ما يلبث ان يطير قبل ان يستقر ، ويزول قبل ان يثبت ويتمكن . وتردده هذا بين التوبة ورجوعه عنها اثر من فسق ذلك العصر المادي المقبل على المنافع والشهوات . كان الرجل يقسم على الشيء ويغلظ القسم ثم تسنح له الفرصة فيجحد التوبة ويعود الى نقض العهد والكفران .

وانك لتراه يقسم ان يعمل بينما هو يعمل ضد ما اقسم عليه ، ومع ذلك يشكو متململاً مستجيراً يقول :

إلى الله اشكو الشوق لا إن لقيتها يقلُّ ولا إن بِنتُ يُخلقُه الدهر
مقيم على الاحشاء قد قُطعت به فساعته يوم وليلته شهر

وأي لوثة حب اشد من هذه ؟

انه يدعو على الحبيب بالاذى ويدعو له . بل يكتحل بالغبار الذي يؤذيه ، وهو من فرط انغماسه في حمأة الشوق والتلظي بناره لا يدري كيف يعبر عن شوقه ، وكل ما يستطيع ان يقول عنه : انه شيء لا يطاق ، ذاهب بالعمر مفسد للحياة ، ولو اخبره مخبر بان عين حبيبه قد رمدت لنسي محاسن الجسوم ومفاتن النظرات وتغزل في العين الرمداء ، فوارحمتا لهذا القلب المضطرب ، ووارحمتا لهذا القلب المنهوب ! وانظر اليه يقول :

وشادن أفسد قلبي بعد حسن توبته
وجاء ابليس يهنّي نظري بطلعته
وماتت التوبة لما ان بدا من هيبته

وحسبك ان تسمعه يقول وهو نهاية ما يقوله محب حيران :

كذب الهوى متصنع الحب شيء لا يطاق

يذكر ابن المعتز من اسماء النساء هنداً وبثنة وسليمى يكني بها عمن يحب ، وتارة يكني بالاترجة ، واولى النساء بالكنى المحبوبات المحصنات المحجبات ، اما اولئك القيان وبنات المغنيات والجواري في المجالس والحانات فلا تستحق واحدة منهن كنية لانهن مشاعات ، ولكنه حين يكني عمن يحبها حقاً فانه يكني بشرّ او شرة او شرير او شريرة — ولعله سماها كذلك لما أصابه بسببها من شرّ — وتحس لكلامه فيها حباً غامراً وقلباً محترقاً ، وتحس فى شعره بها نغمة عذبة حزينة لا تحسها في بقية غزله ،فمن هي شرير هذه يا ترى ؟

انها ليست قينة من اولئك القيان اللاتي يشترين ويرخصن على الامراء وذوي الجاه ، وليست هي نشر الجارية التي قال فيها :

فديت من مر يمشي في معصفرة ... عشية فسقاني ثم حياني
وقال تلعب ُجنابى فقلت له ... من جاد بالوصل لم يلعب بهجران

لان نشرا هذه كان يحبها حباً خفيفاً يساوي حبه للاخريات اللائي يقدر عليهن ، ولذا فانك تجد ذهنه عند الغزل بها في فسحة لان يلعب باللفظ ويحتال للصنعة الشعرية كما رأيت في البيتين السابقين ، اما شرير فهي فتاة اخرى تختبىء عنه في قصور بغداد تسامياً عنه او غنى وجاهاً اكثرَ منه ، ويلوح ان له بها صلة نسب ، وقد واصلته قليلاً او لم تواصله ابداً ، وقد صرح بذلك في قصيدته التي يناقض بها ابن طباطبا العلوي والتي مطلعها :

الا من لعين وتسكابها ... تشكى القذى وبكاها بها

اذ يقول بعد المطلع :

تمنت شريرَ على نأيها ... وقد ساءها الدهر حتى بها
وامست ببغداد محجوبة ... بردّ الاسود لطلابها

بانت عنه او بان بها اهلها عنه ، ولعلها التي يعنيها بقوله :

ُبليت بجبار يجل عن المنى ... على رأسه تاج من التيه والكبر

قدير علـى مـا شاء مـني مسلط　　جريء على ظلمي امير على امري
الفت الهوى حتى قلتْ نفسيَ القلى　　وطال الضنى حتى صبرت على الصبر

واظنها فارقت بغداد وخلا بيتها منها ومن اهلها ، وهو يذكر ذلـك في قوله :

كأن لم تحلّ الدار شرّ واهلها　　بلى ثم بانوا فهي منهم بلاقـع
فقد بليت حتى اوانٍ وملعب　　وأشعث مغبر الغدائر خـاشع
والا اثـافٍ كالحمـائم ركّـدٌ　　كـأن الرمـاد بينهن ودائـع

وهو يتغنى بشرير هـذه في كل شعره وكل قصائده وكل عمره ، فـاذا ذكر كنيتها التي كناها بها طار قلبه شعاعا ، وعبر عن حبه لها تعبير المحب المدنف المكسور المهيض ، ولم يسعفه من القول الا الآهـات الصادقـة والفاظ الويل والعذاب وما اشبه ذلك من كلام صرعى الحب وقتلاه .

ان شعره في شرير من طراز آخر غـير شعره الغزل الشارح المفصل ذي الحجج والبراهين ، وغير شعره الماجن اللاعب المصنوع ، وانما هو شعر يدل على الطبع وعلى ما دهى الامير من امر هذه الفتاة التي اضنته فضني وهجرته فاحترق .

كانت فتاة جميلة تشتعل — كما يقول — من حسنها اشتعالا ، بيضـاء ، آنسة الحديث كاملـة الظرف تملأ العيون بما امتلأ به وجهها من ملاحـة النعمة ، احبهـا مذ كان يافعاً مسود المفرق حول العشرين — فقد شاب دون الثـلاثين — ثم افترقا وظل في نفسه منهـا خيال يشعل الذكرى ويبعث الحسرة ولا يعود منه امل ولا رجاء ، ويتتبع اخبارها وينشد فيها لعلها تطفىء لوعته ، وما يجديه ذلك نفعاً ، ويغار عليها حتى ان يراها البيت والحجر والحرم ، ولا يقبل فيها سلوا ولا لوما .

واليك بعض ما قال فيها مما اختصت به منه ، قال :

الا ايها القلب الذي هام هيمة　　بشرّة حتى الآن هل انت راجع
اذ الناس عن اخبارنا تحت غفلة　　وفي الحب اسعاف وللشمل جامع

واذ هي مثل البدر يفضح ليله ... واذ انا مسودّ المفارق يافع

وقال :

ولما لحقنا الظاعنين وأرقلت ... جمال بنا تشكو الكلال ونوق

اشرن على خوف بأغصان فضة ... مقومة اطرافهن عقيق

سلاماً كاسراء الندى تحت ليله ... اتى حيث لم يوصد عليه طريق

وشكوى لو ان الدمع لم يطف حرها ... تولد منها بينهن حريق

خليليّ مدّا اللحظ هل تبصرانها ... فهل بلغت بالابرقين بروق

سقى دار شرّ حيث قرت بها النوى ... من الارض هطال الغمام فتوق

اذا لاح ضوء الصبح خلّل روضه ... نسيم ضعيف الجانبين رقيق

ترى هاجع الانوار يرفع رأسه ... كذي المَشْي يلقى راحة فيفيق

ومن قوله فيها :

فكيف بها لا الدار منها قريبة ... ولا انت عنها آخر الدهر صابر

ابن لي فقد بانت بها غربة النوى ... أأنت على شيء سوى الهم قادر

نعم ان يزول القلب عن مستقره ... خفوقاً وتنهل الدموع البوادر

واحيا حياة بعد شرّ مريضة ... لها عاذل في حب شر وعاذر

الا يابني العباس هذا اخوكم ... قتيل فهل منكم له اليوم ثائر

ومنه :

الم تك قد منيتَني ايها القلب ... اذا فارَقتْ شر فانك لا تصبو

فقال ظننت الحب يغلبه الفتى ... هو الموت لكن قيل لي انه الحب

ومنه :

عجبت شريرة اذ رأتني شاحبا ... يا شِر قد قُلب الزمان وحالا

يا شر قد حَملت بعدك كربة ... وهموم انقال عليّ ثقالا

ومنه :

ولقد صرت ماتوْنَ فان كا ... ن حِماما يا شر هذا الذي بي

فاذا ما ابتلاك شيء فميلي ... او فدومي على البكا والنحيب

وابن المعتز في صاحبته هذه مجدّ في قوله ، ولم يذكر اسمها في مجون قط ، بل كانت منه دائمـا كسراج الصباح يشعل الليل بياضه فتضيء الدنيا امام عينيه نهـارَه ثم تعود به حرقة الجوى كما يعود بياض النهـار الى الأفول .

وفي شربه هذه يتفق فن ابن المعتز وروحه اتفاقاً عجيبا ، وما عدا ذلك فهو صنعة تقليد او حيلة وابتكار .

الخمر والغناء

الغناء في العصر العباسي

بدأ خلفاء العباسيين يسمعون المغنين والستارة بينها كما كان في العصر الاموي ، ثم اسرف الخليفـــة المهدي في الاستمتاع فجعل للشعراء يوما وللقصّاص يوما ، ثم يومـا للندماء وآخر للمغنين ثم للرماة والسباق ، لكل طائفـــة من هؤلاء يوما . ثم اهتمّ الرشيد بالغناء فجعل المغنين مراتب وطبقات ، فلما كان المأمون كان اول من ظهر من الخلفاء للمغنين ، فأكبر ذلك اهل بيته وبنو ابيه ، ولكن الامر مضى على سجيته فتبعه الخلفاء . وكان المتوكل لا يشرب الا عـلى سماع عود «بَنان» وناي «زنام» . ثم غنى المعتمد . وجمـع المعتضد النغم العشر في صوت صنعه * وغنى كثير من اولاد الخلفـاء : ابراهيم بن المهدي واخته عُلَيّة وابو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهـادي وعبد الله بن الامين وابو عيسى بن المتوكل وابن المعتز .

كل ذلك الاهتمام دعا المغنين والموسيقيين ان يبدعـــوا لينالوا رضى الخلفـاء ويوضعوا في مراتبهم من المغنين ، قالوا : « كان منصور زلزلٌ من احسن من برأ الله بالجسّ ، فكان اذا جسّ العود فلو سمعه الاحنف

* انظر صفحة ٢٠٠ جزء ٤ من نهاية الأرب

ومن تحالم من دهره كله لم يملك نفسه حتى يطرب » . وقالوا : « زنام صاحب الناي احـــد مصدّري مطربي المتوكل ، والآخر بنان بن الحارث صاحب العود ، كان كل منهما منقطع القرين في طبقته ، فاذا اجتمعا على الطبل والزمر احسنا وفتنا واعجبا ، وفيهما يقول البحتري :

هل العيش الا مـــاء كرم مصفق يرقرقـه في الـكاس مـاءُ غمـــام
وعود بنان حين ساعد شَدْوَه على نغم الالحان ناي زنـام

اما المغنون فأمرهم مشهور .

ثم تبع الناس خلفاءهم في ذلك العصر وافرطوا في اللذائذ يتحرونهـا ويتفننون في الاستمتاع بها ، وكلما ملوا نوعـاً ابتكروا نوعـاً ، ونشط الدعاة يستحثون الناس على الاغراق والافراط في الوان الملابس والاطعمة والشراب والاثاث وآلات الغناء ، وكان كما قال ابن قتيبـة : وآضت المروءات في زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان . وكما قال ايضاً : واعلى منازل اديبنا ان يقول من الشعر ابياتاً في مدح قينة او وصف كاس . فلا عجب ان رأينا الحياة هناك لاهية لاعبة تثير العجب والاعجاب معاً .

وكانت دنيا العراق حين ذلك ربيع الدنيا وجنتها المزخرفة ، توحي الى الشعر والخمر والغناء ان تشتعل جميعها في ألفاظ جزلة ومعان مولدة ظريفة ، او كؤوس فارسية مصورة بتصاوير شتى تمتلىء خمراً وحبباً ، او حلوق مفردة مطربة كلهوات الطيور السواجع .

والغناء بين اخويه الشعر والخمر هو صوتها ونشوتها وصوتُ خمارهما ، وقد امتلأت العراق بالديارات ومجالس القيان ولا سيا في سامرا وبغـداد ومحلاتها وضواحيها ، وفي الخلاء والمصايد والمتنزهات والديارات والحانات ، في كل تلك المنازل وغيرها يجيد الغناء مغنون وقيان ، وجوارٍ كثيرات لهؤلاء القيان مغنياتٌ شاعرات يُتجر فيهن فيبعن ويشترين ، حتى اكتظت بغداد وسرمرا بالجواري المغنيات الشاعرات الاديبات ، قـــد جلبن الى

العراق من كل الآفاق .

ويترسم خطى هؤلاء او يقلدهم ويقلدهن كل ذي صوت نديّ او علم بالنغم او قدرة عليه ، وتمسك طائفة منهم على القديم تحسنه ولا تعدوه ، وتخطو طائفة اخرى في التجديد خطوات فلا ينكر عليهم منكر ، وتعتدل طائفة بين هؤلاء واولئك فيكونون احسن المغنين اذ يخلقون لكل حلق نغما ولكل غناء مذهباً ، وكثير منهم يجيد اجادة الجواد الرائع ، ويغبر في وجه كل تابع ، وكأنهم اهل زماننا في هذا الاختلاف وهذه المذاهب*

والقيان اليق الناس بمهنة الغناء ، وهن لبيوت الامراء والرؤساء أليق ، بل هن مطلب الجميع في عصر قرمت فيه الشهوات وطُلبت اللذات ، وهن خليقات ان يُؤثرن بالغناء في القلوب والاسماع ، ويستحثثن الشهوات وحب الاستمتاع .

ولقد ندر ان يكون ظريف من ظراف بغداد او سامرا ليس له معشوقة حسنة الوجه او الغناء حتى ابو العتاهية الزاهد كان يريد ان يموت شهيد الطرب ، قال محمد بن المؤمل : كنت مع ابي العتاهية في سميريته ** ونحن سائرون الى اشموني (دير بقطربّل سمي باسم صاحبته اشموني) فسمع غناء من بعض تلك النواحي فاستحسنتهُ وطرب له وقال لي : اتحسن ان ترقص ؟ فقلت نعم ، فقال قم بنا نرقص ، فقلت : في سميرية ؟ اخاف ان نغرق ! فقال : إن غرقنا اليس نكون شهداء الطرب !

وقد اوردت كتب التاريخ والاخبار والادب حكايات لا تحصى عن جنون العشق في تلك الايام مما لا نجد له نظيرا في عصر من العصور .

في دار ابن المعتز

وبين قصور الخلفاء وبيوت الناس في الرتبة دار لابن المعتز فخمة

---

* كان للمواخير غناء خاص سموه بالماخوري . قال ابو الفتح كشاجم في كتابه « أدب النديم » : وإنما سمي الماخوري لان أبرهيم الموصلي كان يكثر الغناء في طريقته في المواخير .

** نوع من المراكب الصغار .

مشيدة مبيضة بنهر الكرخ في احد ميادين بغداد ، يعنى بها ويهتم بزينتها ، فإذا احدث فيها الدهر او السيل ما يحوج الى الغرامة او الكلفة بناها واصلحها وجددها وجاب اليها طبقات من امهر الصناع فأصلحوها وبيضوها حتى في ازمان فقره وإقفار كيسه .

كان يجلس رب هذه الدار واميرها للشراب والغناء والتجميش بها ، في صدر صحب من اخلص اصحابه او ممن توهم اخلاصهم ، يحتسون ويسمرون ، وهو بينهم كالياقوتة في الخرز والواسطة في العقد ، يُسمع ، وينشد شعره وينشر ادبه ويثني على ظرفه ، ويُتنادم على الطعام والشراب على المجلس المقبل والفرش الثمين ، ثم تدعى القينة الحاذق فتغني او يُقترح عليها ان تغني في المجلس صوتا وصوتين وثلاثة فتحسن التوقيع والغناء لانها تفهم معنى الشعر وتصيب معناه .

فهذه زرياب وتلك خزامى او عزار ثم بنت الكراعة ثم غيرهن من بنات المغنين والقيان والجواري والغلمان كنشر ونشوان ، هؤلاء جميعا يختلفن الى ابن المعتز في داره يأمر من تغني منهن فيغنين بلحونهن او الحانه في شعر قديم او مولد او في شعر له محفوظ او مرتجل فيبدعن الالحان ، وكثيراً ما يغني هو بين يدي اصحابه وقيانه في شعر ظريف تخلقه المناسبة فيحسن الغناء ، وادبه دائماً يملأ مجلس الشرب والغناء طرفاً وحياة وانساً .

علمه بالنغم وكتابه « الجامع في الغناء »

وانه لعالم باصول النغم وقوانين الموسيقى وتاريخ الالحان ، يتحدث فينسب اللحن الى صاحبه ، ويتميز بالتهذيب ويستحدث ، ويمزج بين الانغام واللحون في براعة وتوفيق ، شأنه في مذهبه الشعري . ولم يقتصر الامير على ان تكون داره محلة الفن وتنا راسل اهل الصنعة والاستماع رسائل طويلة تنبيء عن علم وزيادة فضل ، خلط فيها الجد بالهزل والهزل بالجد

في جزالة لفظ وبلاغة مقصد وانارة برهان حتى فضله بعضهم على الابراهيمين : احدهما ابراهيم بن المهدي ، وكان من آدب الناس واشعرهم وابلغهم ، وغلب عليه الغناء فبرز فيه واعجز وسحر وبهر حتى ضرب به المثل ، وقد قيل انه كان اذا ضرب وغنى لاحدهم في الصحارى والمصائد والمتنزهات وقفت له الطير وعكفت عليه الوحوش حتى تكاد تؤخذ بالايدي ؛ وثانيهما ابراهيم الموصلي ، ومن بعده ابنه اسحق .

ولا يكتفي ابن المعتز برسائله هذه ، وانما يؤلف في الغناء كتاباً . ولو عُثِر على كتابه « الجامع في الغناء » لبان لنا فضله الاوسع واتضح لنا فنه الاكمل وذوقه الرفيع .

ومن بعض علمه في الغناءِ ما رواه صاحب الاغاني قال : اخبرني علي ابن هرون قال : كان عبدالله بن المعتز يحلف ان الواثق ظلم نفسه في تقديم لحن اسحق في قول اعرابي :

لقد بخلتْ حتى لو اني سألتها قذى العين من سافي التراب لضنت

قال : ومن الدليل على ذلك انه قلما غني في صوت بلحنين فسقطَ احدهما وشُهر الدون ، ولا يُشتهر من اللحنين الا اجودهما ، ولحن الواثق اشهرهما ، وما يَروي لحن اسحق الا العجائز ومن كثرت روايته .

وقد روى ابن المعتز اخبار المغنين من اولاد الخلفاء فكان مما قاله عن ابي عيسى بن المتوكل : جُمِع لابي عيسى بن المتوكل صنعة مقدارها اكثر من ثلاثمائة صوت ، منها الجيد الصنعة ومنها المتوسط . وروَى عن علي بن يحيى قوله : امرني المعتمد على الله ان اجمع غناء عريب الذي صنعتْه ، فاخذتُ منها دفاترها وصحفها التي كانت قد جمعت فيها غناءها فكتبته فكان الف صوت . وحكى ابن المعتز عنها روايات كثيرة . وكان يتورع ويدقق فيغلب رواية على رواية * ويقول النويري في آخر اخبار عريب : « واخبار عريب كثيرة قد وضع عبد الله بن المعتز فيها ديوانا . »

* انظر اخبار عريب في نهاية الارب صفحة ٩٢ وما بعدها بالجزء الخامس .

في مثل ذلك ما يدل على علو كعب ابن المعتز في فن الغناء علما وعملا ، ولعل مجالس المناظرات والمذاكرات في عهد المعتمد قد ساعدته على تدوين كتابه هذا واسعا مفصلا ، فقد كانت تلك المجالس تعنى بالغناء ، اذ كان المعتمد يقيم في قصوره اسواق الغناء ، وكان يتحدث المتناظرون في الغناء وفنونه ، وانواع الملاهي وتاريخها ، وانواع الطرب ومنازل الايقاع وفعل الغناء بالنفوس وفضل الغناء على الكلام * ، وكان الخليفة المعتمد يسأل ندماءه عن الرقص وانواعه فيجيبون ، وذكروا له حاجة الراقص الى خفة الروح وحسن الطبع على الايقاع والمرح والتصرف ، ثم خلقة الراقص من طول في العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل ولين الاعطاف ودقة الخصر وحسن القسمات .

ولعل ابن المعتز كان يذكر لنا في كتابه هيئة السماع واقسامه وانواعه ، واصول الغناء ومبادئه في العرب والامم ، ويذكر اخبار اعلامه ومجالسهم ومراتبهم واحاسن الاصوات والالحان ، وينسج فيه على الطريقة التي سلكها في كتابه تباشير السرور وسيأتي بعد .

ولابن المعتز ناحية عملية في الغناء ايضا ، فقد كان يدّبر اللحن او يرتجله ثم يطلقه على سجيته فيكون ظريفا شَكلا جيدا ، ثقيلا اول ، وخفيف ثقيل ، وهزجا ، وخفيف رمل ، ورملًا مطلقا . كما كانوا يسمون الانغام ، ويوفق جد التوفيق في البحور التي تليق بالالحان ، وتخف لمشيئته الالفاظ فلا تكون الفاظ اليق منها بالغناء المولد الجديد ، ومن اصواته في الغناء :

هل ترجعنّ ليال قد مضين لنا والدار جامعةٌ أزمانَ ازمانا ...

وهذا وامثاله كثير منه في حلاوة اللفظ وقرب المعنى وتمكين المغني

---

* قد أوضحوا الايقاع ، ووسموه بسمات ولقبوه بألقاب وهو أربعة أجناس : ثقيل الأول وخفيفه وثقيل الثاني وخفيفه والرمل الاول وخفيفه والهزج وخفيفه . وقد بين المسعودي نقرات هذه الاوزان في تاريخه ، وقد تفرعت من هذه الاصول فروع اخرى .

ان يكرر اللفظ الاخير ، في حين يدع للسامع ان يكمل المعنى مما يتصوره من ازمان سروره وذكريات ايامه ، فتزيد لذة الاستماع ويطغى تأثير الغناء ، ومن اصواته غير هذا :

زاحم كمي كمه فالتويا وافق قلبي قلبه فاستويا
وطالما ذاقا الهوى فاكتويا يا قرة العين ويا همي ويا

وهكذا ترى في لفظ (يا) الاخير ما يغني عن الشرح ، ويترك للسامع ان ينادي صفات محبوبه من جميل ومنكر ، فتكون ألذع في النفس واجلب لهمها وطربها . ولكنا مع هذا نرى اصوات غنائه التي رواها صاحب الاغاني من اضعف شعره نسجاً واقله معاني وروعة وسمواً ، ولعله تركها للغناء ليسمو بها الى اعلى من مكانها ، وكان اول اسباب ضعفها الارتجال .

الديارات والحانات

ومنذ الازمنة القديمة وديارات النصارى مبثوثة في العراق وما حولها ، يشرف عليها قساوسة ذوو غنى ويسار قد اغناهم ما يحمل اليهم من النذور ، وما يبيعون من خمور في دياراتهم للنازلين بها من الضيوف او ما يحمل منها الى البلدان ، و ما يجلب عليهم الطب الذي اتخذوه صنعة يشفون بها اوجاع الناس .

وقد ظلت هذه الديارات قائمة في اماكنها وعلى مكانتها في العصور الاسلامية ، ثم فشت كثرة وانتشاراً في العصر العباسي ، وقامت حولها الحانات والمعاصر ، وكثر بها الخمارون والسقاة ، وضربت حولها المزارع والمباقل والجنينات ، فتكون في الربيع كالوشي الملمع والحلي المرصع لكثرة نوارها وطرائف ازهارها وصنوف الاقاحي والشقائق والنرجس والزيتون ، وقد جلب الى كثير منها السرو وآس مصر ونخلة مريم والبندق والفستق واللوز الفرك والبطم ، وغرائب الشجر والرياحين ، كل

حسب ارضه ومائه وهوائه وانحداره او استوائه ، وكانت تبدو مناظرها في ثياب وحلل من نزه الدنيا تقصر عنها ُقدَر الوصاف ، ويود من رآها واستظل بها واستمتع بثمارها وازهارها الا يزول من مكانه لفرط ما يرى من الحسن والطيب ، وسهولة ما يريد من الحاجات .

وكانت المرافق موفورة بهذه الديارات ، وارحاء الطحن دائرة بها ، وقد امتلأت صهاريجها الكبيرة بالعذب الصافي من ماء المطر ، فاذا خرج الماء خرج من افواه تماثيل من ُصفر فيكون منظراً عجيباً ، وقامت على شطوطها — ان كانت على دجلة — مصايد السمك . وحتى الدابة كانت تجد علفها بها موفوراً .

على هذه الديارات العراقية - واكثرها حول سرمرا وبغداد وعلى الدجلة -- كان ينزل الخلفاء والامراء والرؤساء وعامة الناس ضيوفاً على ديّرانيتها ، كل منهم على قدره في الضيافة ، يشربون ويطربون وينعمون ويلعبون ويقصفون ويتنقلون بين الشراب والسماع ، يصلون الصبوح بالغبوق والغبوق بالصبوح ، فمن لم يحركه الشراب حركه الغناء ، بين اباريق وكؤوس وارطال ذات حلى وتصاوير ، تكرع من دنان معتقة واشربة ليس اصفى منها ولا اعطر ، قد تولت الشمس عن النار انضاجها ، وطعام من دجاجات وحملان وشطيرات وخبز وإدام نظيف وماء بارد ونُقل منضود مرصوف في المناقل والاطباق ، وفاكهة طيبة واترج وثمار واعناب ، وبين ناي وعيدان وطنابير في ايدي مردان او فتيات حسان عليهن جيد الثياب وفاخر الجوهر ، وروائح المسك والعنبر قد طيب الهواء منها ، في ابهاء واسعة نصبت بها هياكل دقيقة الصنع عجيبة الحسن ، وصور ذات اصباغ لاتتحول والوان لا تحول .

وكلما اختلف الخلفاء الى هذه الديارات لم يرجعوا عنها الا وقد منحوا المغنين والقيان والندماء فيها المنح ، ووهبوا لهم الوف الدنانير ، واعفوا القسس من الخراج او خففوه ، واقطعوهم الاراضي حول دياراتهم فزادوهم

غنى ووفرة ويسرا .

وكان كثير من الندماء والخلعاء — وما اكثرهم ! — يجعلون هذه الديارات وحاناتها مغاني ومآوي فلا تخلو يوماً ولا ليلة من المجان وممن يؤثرون البطالة والقصف والتطرح فيها ، وكان بعضها مجالس تجتمع فيها الاحداث لا غير ويطرد الكبار ، وبعضها اكثر سكانها نساء مترهبات ، وبعضها يمر بها ليال يباح فيها ان يختلط الرجال بالنساء فلا يرد احد يده عن شيء فكانت كثيرة الطراق .

حانات الخلفاء

أغرت هذه الديارات وحاناتها بعض الخلفاء فعقدوا بديارهم حانات خاصة بهم ، وكان منهم الواثق الذي احب المواخير وما قيل فيها وما غني به في ذكرها ، فعقد حانتين احداهما في دار الحُرَم والاخرى على الشط ، وأمر ان يُختار له خمّار نظيف جميل المنظر حاذق بالشراب ، ولا يكون الا نصرانيـاً من اهل قطربّل — وقد برع النصارى في الخمر وسقايتها ولم يبرع براعتهم فيها احد من المسلمين او يحاول اللحاق بهم منذ القدم — فأتي بنصراني له ابنان نظيفان مليحان وابنتان بهذه الصفة فجعلهم الواثق في الحانتين وضم اليهم خدماً وغلماناً وجواري رومية ، واخدم النساء حانة الحرم ، والرجال حانة الشط ، ونقل اليهما طرائف الشرب ، وفرشهما من فرش الخلافة وعلق عليهما الستور ، وجعل فيهما الاواني الذهبية والدنان المدهونة ، فكانتا احسن منظر وابهاه .

فلما فرغ منهما امر باحضار المغنين والجلساء ، ولم يدع احداً يصلح من ضرّاب الطنابير الا احضره ، ثم حضر الندماء والخاصة ، وخرج الخمار وأولاده معه عليهم الاقبية المسهّمة وفي اوساطهم الزنانير المحلاة ، ومعهم غلمان يحملون المكاييل والكيزان والمبازل في الصواني ، واخرجت تلك الدنان المذهبة وقد طُينت رؤوسها تطييناً نظيفاً يعبق منه الطيب ،

فاقيمت بإزاء المجلس الذي كان فيه جالساً فبُزِلت كما يفعل في الحانات ، وجُعل يُؤتى بالانموذجات فيذوقها ويعرض ذلك على الجلساء فيتخار كل منهم ما يشتهيه ، فيأخذونه ، ويجيء الى الخمار ويكتال منه بمكيال في انائه كما يُفعل في المواخير ويعود الى موضعه فيجلس ، وتوضع على رؤوس الحضور اكاليل الآس وما اشبهه من الرياحين ، فكان احسن يوم رآه من حضر ، فشرب الواثق شرباً كثيراً ، وامر للخمار بالف دينار ولزوجته بالف ولكل واحد من أولاده بخمسمائة ، ولم يبرح احد من الحاضرين الا بجائزة سنية .

وقد تشبه الخليفة المعتمد بالواثق في لهوه واشتغل بلذات نفسه .

ولم ينس الخلفاء ان يصطحبوا الشعراء في حاناتهم لينشدوهم فيها ، وفي ذكريات ايامها ولياليها ، فيغنّى في اشعارهم ، ويأمرون لهم بصلات مجدّدة ، وكذلك لم ينسوا الندماء ، وقد كان بعض الخلفاء يمنح النديم الذي يسره فوق ما يمنح الشاعر الذي يمدحه .

مسألة النبيذ

ومع ما حرم الاسلام الخمر فقد تسمّح الخلفاء ببقاء الحانات ملحقة بالديارات أو غير ملحقة بها ، وكان التسمّح يغري عامة المسلمين بالإسرار في شربها ثم شربها علانية ، وفي العصر الاموي واول الاسلام رأينا العرب قد انكبوا على المواخير ، وما منعهم الا زياد بن ابيه . وخطبته البتراء مشهورة حيث توعد فيها بهدم المواخير وتسويتها بالارض هدماً واحراقاً . ثم دعت مجاورة العرب والمسلمين لغيرهم من الامم وانتشار النصارى ودياراتهم وحاناتهم في البلاد الاسلامية الى ان شرب المسلمون الخمر واقبلوا عليها بعد ان ظهرت مسألة النبيذ واختلف الأئمة والفقهاء عليها * كالذي

* لم يختلف الأئمة الا على المطبوخ منها المسمى بالطلاء وهو الذي طبخ من الرب والدبس(١) حتى ذهب ثلثاه وبقي ثلثه ، سمي بذلك لانه شبيه بطلاء الابل في ثخنه وسواده ، اما غير ذلك من انواع الخمر فهو حرام بالاجماع . انظر المسألة صفحة ٨٢ وما بعدها من نهاية الأرب الجزء الرابع .

(١) الرب ما يطبخ من التمر او سلافة خثارة كل ثمرة بعد اعتصارها . والدبس عسل التمر.

كان بينهم في مسألة الغناء * وانتقل الجدل من رجـال الفقه الى الادباء والشعراء والظرفاء والعامة ، وكان في اقوال كثير من الشعراء منذ العصر الاول العباسي امثال بشار ووالبة والحكميّ وابن الضحاك نماذج كثـيرة ــ من ضعف الاخلاق ــ في التحدث بالخمر والتلذذ بها والخبث في النسيب والمجون ، فوَجد كثيرون في هذه الآراء تكأة يصلون بها الى اغراضهم ، ثم لم يقفوا عند النوع الذي احل ولا القدر الذي ابيح . وكذلك فعلت خلاعة الظرفاء واشعار الادباء ! ثم جاهرت بعد ذلك طوائف من الناس بشرب الخمر . بدأ بها الخلفاء والأمراء ثم قلدهم الخاصـة والاغنياء وتبعتهم العامة ثم أوشاب الناس .

ولا عجب اذا قلد العامة الخاصـــة فزينوا مجالسهم ودورهم ووسعوا بساتينهم واتخذوا الخدم والغلمان ومالوا الى اللهو وتفننوا في الطعـــام والشراب ، وقد شاعت المنادمة على الطعام والشراب بين اصحاب الطوائف الواحدة كالتجار والصياغ ، وكان ذلك من تجمع الاموال بين ايــــدي الامراء وجباة الخراج واصحاب التجارات والجواهر .

ابن المعتز والديارات

كيف لايغشى ابن المعتز هـــذه الديارات وتلك الحانات وهو الامير الشاعر الاديب الظريف الغزل الذي بلغ صباه في عهـــد المعتمد المشتغل باللهو والشهوات ! لقـد حاكى اولئك المتطرحين في الحانات الهاربين من جد الحياة الى لهوها ، ومن ضجرها الى راحتها ومجونها *

وذلك دير العذارى في طريقه بين سامرا وبغداد في موضع حسنٍ على دجلة يعج بالرواهب العذارى ، وحوله حانات للخمارين ومتنزهات لا يعدم

---

* انظر مسألة الغناء بالتفصيل ورأي الائمة فيها بالجزء الرابع من نهاية الارب صفحة ١٣٢ وما بعدها طبعة دار الكتب بالقاهرة .

* انظر ابن الرومي للعقاد صفحة ٣٨

من دخله ان يرى من رواهبه جواري حسان الوجوه والقدود والالحاظ والالفاظ ، فلا يعدم الدير ان يرى ابن المعتز كلما مرّ بطريقه ، ولا يعدم ان يحظى بشعر ابن المعتز فيقول فيه :

ايا جيرة الوادي على المشرع العذب سقاكِ حياً حيٌّ الثرى ميت الجدب
وحسبك يا دير العذارى قليل ما يجن بما تحويه من طيب قلبي
كذبت الهوى ان لم اقف اشتكي الهوى إليك وان طال الوقوف على صحبي

وانه ليحج الى دير السوسيّ الذي كان قد ابتناه رجل من اهل السوس وسكنه هو ورهبان معه بالجانب الغربي من سامرا ، وظننا انه الدير الذي بنيت سامرا بساحته وفضائه ، يبيت فيه ابن المعتز ليالي بين كؤوسه وشرابه واهله ويقول فيه :

يا لياليّ بالمطيرة والكر خ ودير السوسيّ بالله عودي
كنت عندي انموذجاتٍ من الجنـ ـة لكنها بغير خلود
اشرب الراح وهي تشرب عقلي وعلى ذاك كان قتل الوليد*

ثم يزور دير عبدون بسامرا الى جانب المطيرة ويذكره قائلاً :

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر فدير عبدون هطال من المطر

ثم لا يعف ان يزور حانات الكرخ : كرخ سامرا وكرخ بغداد ، فيرى فيها اخلاطا من التجار والصناع واخلاط الناس ، ولا يأبى ان ينبه شأنها في شعره ، فإذا اراد التنزه بعيدا عن الضوضاء خرج في سميريته او طيارته الى دير جرجس بالمزرقة احد الاماكن المشهورة والمواضع المقصودة على شاطىء دجلة ، وتنقل بين بساتينه المحدقة به والحانات التي تجاوره ، ويجد هناك كل ما يحتاج اليه ، ويظل فيه مدة حتى يشبع من منادمة الاصفياء وتناشد الاشعار وسماع الغناء .

---

* هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ذهب به الشراب كل مذهب حتى خلع وقتل وله في ذلك حكايات وأشعار .

ولا يستطيع وصف الخمر ومجالس الشراب الا المدمن الدءوب والذواق الشروب ، فالخمر انواع ، والكؤوس صنوف ، وللشراب آداب ، وللسكر احوال ، ولا يصف ذلك كله او بعضه الا ذو علم وبصر واحساس مرهف وادراك لطيف ، واين من يصف نزهة من نزه الخمر كما وصفها ابن المعتز في قوله :

فظلت لحوم ظباء الفلاةِ   على الجمر مُعجَلةً تُنتهبْ
وطافت سقاتهمُ يمزجون   بماء الغدير بناتِ العنب
وحثوا الندامى بمشمولة   اذا شارب عب منها قطب
فراحوا نشاوى بأيدي المدام   وقد نشطوا من عقال التعب
الى مجلس ارضه نرجس   واوتار عيدانه تصطخب
وحيطانه خوطُ كافورةٍ   واعلاه من ذهب يلتهب

واين تكون الروعة وشدة الاسر ان لم نرها في مثل قوله يصف الخمر ومجالسها وندماءها في رحلة الى حانة :

وفتيان صدق قد بعثت بسحرة   الى بيت خمار فحطوا به رحلا
وقام الى مخزونة بابلية   كست دنها ايدي عناكبها غزلا
مسندة قامت ثلاثين حجة   كواضعة رجلا وقد رفعت رجلا
واخرج بالمبزال منها سبيكة   كما فتل الصواغ خلخاله فتلا
فلما رأوها في الزجاجة سبحوا   وكبر اجلالاً لها العلج او صلى
وظل يناجي شح نفسي وجودها   فطوراً بها صعباً وطوراً بها سهلا
فما زال حتى زال بالمال حكمه   ولم يدخر عنها السماحة والبذلا
وجاءوا بها كالشمس يأكل نورها   زجاجتها في كف شاربها اكلا
عروس جعلنا مهرها بعض ديننا   فما رضيت حتى وهبنا لها الكلا

وهذا الامير الشاعر مع تقصير خمرياته عن النواسيات ، فانه لا يفوته الابداع ، ويصور ما يرى تصوير المقتدر الخبير ، فما هو الا ان تشهد

العين فيستوي المعنى وينضج في النفس فينطق اللسان او يخط القلم ، فاذا بك ترى وصفاً دقيقاً معجباً ولفظاً مشجياً مطرباً ووزناً تستسيغه حلوق الغناء رقيقاً على اوتار العيدان ، وما يَدَع شيئاً من اشياء الخمر الا وصفه واوفى فيه على الغاية ، حتى قال بعض العلماء بالشعر : اول الشعراء المتقدمين في صفة الخمر الاعشى ثم الاخطل ثم ابو نواس ثم الحسين بن الضحاك ثم عبدالله بن المعتز .

وقد كان ابن المعتز يجعل من اهتمامه بوصف الخمر ما يميل بمطالع القصائد عن ذكر الاطلال والارتحال ، وهو يفاضل بين المطالع فيروقه الابتداء بالخمر ويفضله ويثني عليه قائلا :

احسن من وقفة على طلل ومن بكاء في إثر محتمل
كاس صبوح اعطتك فضلتها كف حبيب والنقل من قبل
في مجلس جالت الكؤوس به فالقوم من مائل ومنجدل
يطوف بالراح بينهم رشأ يحكم في القلوب والمقل
افرغ نوراً في قشر لؤلؤة تجل عن قيمة وعن مثل
يكاد لحظ العيون حين بدا يسقيك من خده دم الخجل

ويصف السقاة والندامى والدنان والكؤوس والاباريق والارطال ، وطيب الخمر ولون النبيذ ، ومبادرة اللذات وابتداء السكر وميل الرأس وسَورة الخمر ، ومخالفة اللوام ومدح الخمار ، وزمنه ومكان السكر وامنه ، وما احسن تشبيه السقاة بين الندامى في قوله :

بين اقداحهم حديث قصير هو سحر وما سواه كلام
وكأن السقاة بين الندامى ألفاتٌ بين السطور قيام *

وله في صفة السقاة كلام كثير جيد منه :

تدور علينا الراح من كف شادن له لحظ عين يشتكي السقم مدنف

---

* يشبه اصطفاف الشرب جلوساً بالسطور التي استوت حروفها واطرافها والسقاة بينهم وهم وقوف بالالفات ، وهو تشبيه جيد .

كأن سلاف الخمر من ماء خـــده   وعنقودها من شعره الجعد يقطف

وله في ساق آخر :

اشرب عقاراً كأنهـــا قبس   قد سبك الدهر تبرها فصفا
يندى لثام الابريق من دمها   كأنه راعف ومـــا رعفـــا
بكف ساق حـــاوٍ شمائـــله   يسكرني لحظ عينه صلفـــا

اما الاباريق وفعل الخمر بالشاربين فيصفها قائلاً :

كأن اباريق اللجين لديهمُ   ظباء باعلى الرقمتين قيامُ
وقد شربوا حتى كأن رؤوسهم   من اللين لم يخلق لهن عظام

ويقول في ابريق بان الخمر من فمه :

كأن ابريقنا والراح في فمه   طـــير تناول ياقوتا بمنقار

ويقول في قرقرة الابريق :

كأن ابريق المـــدام لديهمُ   ظبيٌ على شرفٍ اناف مُدلّها
لما استحثته السقاة جثى لها   فبكى على قدح النديم وقهقها

ويصف الكأس وقد امتلأت بالخمر قائلاً :

كأن الكاس في يده عروس   لها من لؤلؤ رطب وشاحُ

ويصف الخمر والحبب فيقول :

يا خليليّ سقّياني فقد لا   ح صباح وأذّن الناقوس
من كميتٍ كأنها ارض تبر   في نواحيه لـؤلـؤ مفروس

ويصف صفاءها ولطفها فيقول :

وكأس تحجب الابصار عنها   فليس لناظر فيها طريـــق
كأن غمامـــة بيضاء بيني   وبـين الراح تحرقها البروق

وفي رائحتها يقول :

فتنفست في البيت اذ مُزجت   كتنفس الريحان في الانف

ويشبه ماء الكَرْم الرقيق فيقول :

بكيتك حتى قيل قد الف البكا ونحتك * حتى قيل إلفُ حنين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع كروم لا دموع جفون

ويقول في مبادرة اللذات :

وبادر بأيام السرور فانها سراع وايام الهموم بطاءُ
وخلّ عتاب الحادثات لوجهها فان عتاب الحادثات عناء
تعالوا فسقوا انفسا قبل موتها ليأتي ما يأتي وهن رواء

وان له في ايقاظ الصبح للنوّم لتناول الصبوح لكلاما كثيرا أبدع فيه واجاد ، وعدّد المطالع وأساليب النداء فجاء بما لم يجيء به سابق ، ويخيل اليك وأنت تقرأ شعره في الحث على الصبوح أنه قد بات نضو ديارات وحانات لا يفارقها ليل نهار ، ثم يكون اول من يستيقظ بها ، أو اول ملب للساقي وكأنه لم ينم بل ظل مسهدا ، فيدعو للخمر فينشط الصحب للمجلس وتدور العقار ، ولولاه ما استيقظ النوّام ولا قهقهت الكؤوس والاباريق ، وانك لتسمعه يقول مرة :

قم يا نديمي من منامك واقعد حان الصبوح ومقلتي لم ترقد

ويقول اخرى :

يا ربّ صاحب حانـــة نبهته والليل قد كحل الورى برقاد

ويقول ثالثة :

قم يا نـــديمي نصطبح بسواد قد كاد يبدو الصبح او هو باد

أو يقول :

خليليّ اتركا قول النصيح وقوما فامزجا راحاً بروح
فقد نشر الصباح رداء نور وهبت للندى انفاس ريح

أو يقول :

وقد يباكرني الساقي فأشربها راحا تريح من الاحزان والكرب

أو يقول :

* نحتك عدّى الفعل لمكانه من اللغة وتمكنه منها وذلك مباح لأمثاله.

قد حثني بالكاس اول فجره   ساق علامة دينه في خصره

ويخالف اللائم في معاقرة الخمر بقوله :

خليليّ طوفـــا بالمدام وبادرا   بقية عمري والسلام على مثلي

الا انما جسمي لروحي مطية   ولا بد يوماً ان تُعرى من الرحل

ايا عاذلي هلا اشتغلت بسامع   كما انا مشغول بكاس عن العذل!

فاذا سكر الشرب ومالت الخمر برؤوسهم وساروا تقوست خطوط سيرهم واضطربوا فمشوا في تكسر واعوجاج وصفهم قائلاً :

مشوا الى الراح مشي الرخ وانصرفوا   والراح تمشـــي بهم مشي الفرازين *

ويمتدح ابن المعتز زمن السكر لانه يمر مسرعاً كالخطفة التي لا تدرك واللمحة التي لا تحسب فيقول :

كأنا من بشاشتنا ظللنا   بيوم ليس من هذا الزمان

وكذلك يمتدح مكانه لتنزهه عن اللوم على السكر والطرب وبُعده عن تزمت الناس ، وكونه في رعاية ابليس الحريص على اللهو ان يكدر والعبث ان يشاب ، وتلك غاية المجون ، ويقول في ذلك :

لا علم لي اين يثوي الخضر من بلد   لكن ابليس في قطربّل ثاوي

بحيث لا لوم في سكر ولا طرب   ولا يقصر في افعاله غـــاوي

وابن المعتز يذكر ادب الشراب في خمرياته ، ويرى أنه من أدب الشرب ان يخلو من الاوشاب ومن سقط الحديث ، وان يكون الشرب في يقظة المنادمة ، فأن تثاءب احدهم على الشراب فلا خير فيه لشرب النبيذ ، وغير ذلك من الآداب التي لا نرى ضرورة في بسطها اكثر مما قلنا .

وقيل ان ابن المعتز لم يهتم الا بالخمرة المطبوخة ، وقد استدلوا من ذكره لها على انه كان حنفي المذهب ، وذلك في قصيدته التي مطلعها :

خليليّ قد طاب الشراب المورّدُ   وقد عدت بعد النسك والعود أحمد

وفيها يقول وقد نضجت على النار :

---

* يريد انهم مضوا في الاقبال عليها سراعاً اقوياء وفي الادبار منها بطاء ضعفاء .

فبات عذارا في قميص زجاجة كياقوتة في درة تتوقـــد
يصوغ عليها الماء شباك فضة له حلق بيض تحل وتعقـــد
فظاهرها حلم وقور على الأذى وباطنها جهل يقوم ويقعـــد

تنسكه للخمر

كان ابن المعتز يتنقل للخمر كما رأيت في الديارات والحانات ومنازل الاصحاب والبساتين ، او ينقلها معه في صيده وطرده وتنزهه ، او تنتقل هي اليه في داره حيث تعقد مجـــالس الشرب صافية خالصة من شوائب السقط الذي هو شأن العامة في مجالسهم ، ولكن الزمن تحول وتغيرت ناسه ورأى الامير في مجالس الخمر ومشاربها غير مـا كان يرى ، وسمع غير ما كان يسمع ، فعف عن الحانات ومجالسها والمواخير والتردد عليها ، وتنسك للخمر فحبس نفسه ليدرسها ويعرفها عرفان لغة ونظر وجمـال ، منقطعاً عن لذتها القموية وخمارهـــا الجثماني ، كما يتنسك كل ذي عبادة فينقطع عن الناس ليخلو الى الفكرة بروحه ليغرق فيها ويصل الى قرارها .
وكذلك انقطع ابن المعتز عن مجالس الخمر وتنسك لها فاهتدى في اثناء تنسكه الى ان يؤلف كتابه « فصول التماثيل » .

وكيف لا يتنسك ، وقد كان للشراب آداب يسير عليها الشرب من الخلفاء والوزراء والحكماء والرؤساء والادباء والظرفاء ، وكان في ندمائهم وجلسائهم ظرف وادب ولـــين وحسن تناول للاحاديث ، يحبب الى النفوس ان تأنس بهم والى الكبراء ان يطلبوهم ويجالسوهم ويستمعوا اليهم رغبة في صحبتهم وشوقاً الى ادبهم .

ولكن الزمن غير الناس فسقطت الحال في اخلاق الجلساء والندامى حتى قبحت بهم النعمة وحسنت منهم الحشمة ، واصبح حديثهم كما يقول ابن المعتز سوقيا ولفظهم عامياً ومزاجهم ثقيلاً غثا وزيهم قبيحاً رثاً واصبح كل صاحب فيمن يصاحبهم كما يقول ابن المعتز :

في فتيـــة قـــدمتهم قبلي وما استخلفت كفوا

امسوا جوى في القلب يقـ ـتله واحزانـــا وشجوا

ولم يقف الامر عند هذا الحد من سقوط الدون ، بل ان علية القوم اصابهم من الاسفاف ما اصاب اولئك ، ثم عمّ الناسَ جميعهم قدر كبير من الاضطراب وحلت بهم النقم ، ولم تعد هناك قيود ولا اخلاق ولا حواجز تحجز العامة عن الخاصة ، وتصون الاخصاء من الدهماء .

كانت هذه الحال تؤفف ابن المعتز بالخمر ومجالسها ، ولكني ما كنت اظنه يرتدع عنها ويتنسك لها — مع كل هذا — لو لم يجبر على تركها ويقهر على البعد عن مجالسها في الحانات والمواخير ، فان الامام * نهاه عنها فاضطر للطاعة او ينزل به السخط والعقاب ، وفي نهي الامام له يقول :

ونهاني الامام عن سفه الكأ س فردّت على السقاة المدام

عفتها مكرهاً ولذات عيش قام بيني وبينهن الامـــام

كل ذلك دعا الامير ان يجانب هذه المجالس ويبتعد عن اهلهـا لينأى بنفسه عن سقطهم وانحطاط آدابهم وليطيع الامام ، وانما بقي للخمر في نفسه مقامها ، فهل يدعها جملة أو يرتحل اليها رحلة اخرى ، رحلة فكرية نفسية لا جسمية ولا شهوانية ، ويستعين تاريخهـــا الادبي على لذته ويأنس اليه في وحدته ؟

وهكذا ارتحل ابن المعتز الى خمرة جديدة او فكرة في الخمرة لا تجر ندما ولا تبعث حسرة ولا تضر جسدا ، فرآها في الاسلوب الرائع واللفظ الرائق والوصف الدقيق البارع ، ورأى في تماثيل الشعراء بالخمر عند الامم المبعثرة في الاقاليم والعصور ما لم يره في مجالس ندمائه وما لا يراه مهما طال به العمر ، او لجّ به اختلافه الى الحانات والمواخير .

رأى في اعتكافه هـذا الكروم والاعناب وفضل كل شراب وألوان كل خمر ومنابتهـا واوانيها وطيبها ورديئها وصِرفها وممزوجها وآدابهـــا

* المظنون انه الخليفة المعتضد ولكني ارجح انه الخليفة المكتفي بن المعتضد .

وآثارها وحلالها وحرامها ، وتلذذ بذلك كله لذة المعتكفين والمتنسكين للانقطاع للعبادة وقرب الوصول ، لكنه شاعر سخيّ جواد غير بخيل ، فهو مجـدٌّ دءوب في ان ينقل الى الناس شعوره بالسرور ليسرّهم ، واحساسه بالجمال ليمتعهم ، واتساعه بالعلم ليزيد من ثقافتهم وفنونهم ، فلا يكتفي بالقراءة ولذتها ، وانما يؤلف كتابا فيما قرأ جمعا واختيارا وتصنيفاً وتبويبا وتعقيبا وانشاء ، يقرب فيه للناس ما ابتعد ويزيدهم بالخمر معرفة وسرورا ، وانـه ليرجو ان يكسبه هذا النحو من الحياة غنى وحمدا ، ويغنيه عن الاصحاب والاحباب ، ويلج به مجالس الخاصة وابواب الخلفاء.

وانه لينزهه عن تناول الادنياء والجماهير ، فهؤلاء ان تناولوا آداب الملوك اسقطوها ، وللخاصة ادبها وللعامة أدبهـا ، وهو في ذلك خاضع لنزعة المستبد المتعالي الذي يؤمن بقول القائل « لا يزال الناس بخير ماتباينوا فاذا تساوَوْا هلكوا » بل يقتصر عـلى عرض الجيد من القول وينفي الرديء منه ، فكان كالمعلم العالم بأحوال النفوس لا يعرض القبيح لئلا يترك اثراً قبيحاً ، وفي عرضه الجيد ما يوقظ اللب ويعمر القلب ويخف على المذاكرة والمفاخرة ، وكان يرى في عناية الادباء بالكلام ودراسته والاهتمام لروايته ما يشجعه على المضي في هـذه الطريقة ، فألف في خلوته هذه كتابه في الخمر .

كتاب فصول التماثيل *

انساح ابن المعتز وراء الخمر انسياح أهل النظر يبحث عن اصولهـا وفروعها ، وعن فضائلها وخواصها وجيدها ورديئها ، وعن اعرف الامم بل واعدلهم مذهبا في استعمالها ، وحاجة ذوي الاسنان والاجواء والاعمال اليها ، ثم أسمائها وصفاتهـا وآنيتها وسقاتها ، ثم صنعها مسكرة او مقتولة

* قد نشر كتابه هذا « فصول التماثيل في تباشير السرور » على نفقة الرحالة المنقب محي الدين صبري الكردي سنة ١٩٢٥ م بالقاهرة .

لا تسكر ، والفواكه والنقل عليها ، وكيف يحدث السكر وكيف يداوَى ، وآداب المنادمة والسقاية ، ورأي اهل الدين والفقهاء فيها ، ورأي الاطباء مَنْ عاصره منهم ومن لم يعاصر ، بل رأي ابرهيم بن سيار النظام والفلاسفة فيها ، مستدلا في كل بحث من هذه المباحث بأقوال شعراء الخمر كالأعشى والاخطل والحكميّ ومسلم بن الوليد والبحتري وبشار ، وغير هؤلاء من اغفال الشعراء او من غير الاغفال ما دامت اقوالهم ترتفع إلى مقامات البلاغة المرجوة للخاصة ، ويختم كل باب بقولٍ له لينسج على منوال السابقين إن جاده القول :

وافضل الخمر في كتابه ما كانت من الكروم والاعناب ، وما اكل عليها الفاكهة من رمان واترج وسفرجل وكمثرى وتفاح ، ودون ذلك الانقال اليابسة من جوز وبندق او مشامّ ممسكة معنبرة متخذة من عود او صندل او كافور .

وافضل الخمر ما كان وسطا بين الحديث والعتيق ، وما اسكر بالحيلة والتفتير والختل والتخدير وحبّب النوم وزين الصمت ، وهكذا قرأ لجالينوس حينما قرأ ، وافتى عن حنين حين استفتاه ، وحنين يرى ان افضل الشراب ما كان لسَنَته ، وافضل اللحم ما كان لوقته ، وافضل الخبز ما كان ليومه ، وافضل الشراب أيضاً ما ابطأ بالسكر ودفعه عن جوهر العقل .

والروم اعرف الناس بالشراب واوصفهم له واعلمهم بمنافعه واعدلهم مذهباً في استعماله ، والفرس شركاؤهم ، اما العرب فهم بين هؤلاء وهؤلاء .

وتقوى شهوة الشباب الى الخمر دون الصغار ودون الكبار . واعزف الناس عنها الاصحاء واهل الرياضة البدنية لقلة ما في ابدانهم من فضول . والجوّ ان برد او اشتدت حرارته دعا اليها وحث عليها .

وليس الشراب نافعا كل انسان ، ولا الصرف منه او الممزوج لائقا بكل الابدان ولا هو بمستحب في كل آن .

وانما اختلفت اسماء الخمر باختلاف آثارها وافعالها .

فسميت الخمر : لانها خمرت في إنائها
والشمول : لانها تشمل على العقل
والقرقف : لان شاربها يصاب برعدتها
والعقار : لانها تعاقر الدن
والقهوة : لانها تُقهي عن الطعام وتصدّعنه
والراح : لان صاحبها يراح من الغم . وهكذا يأتي على بقية الاسماء.

وآنيتها الدنان والاباريق والكاسات والجامات والكيزان والصواني والاقداح والارطال والقناني .

وقد رأى ابن المعتز ان يعلم الناس في كتابه كيف يصنعون النبيذ مفيداً ، وكيف يضيفون اليه ما يسرع بالسكر او يبطىء به او ما يبطله ، ثم تحدث عما يحدثه السكر في الاجسام وحركاتها وزيغ ابصارها واختلاف الطعوم في افواهها . ووصف السقاة حسنَ وجوه واعتدال اجسام وجمال زي وسهولة خلق وانعطاف سير واطاعة عند الطلب . وبين حقوق المنادمة وآدابها بين الكبراء ومن هم دونهم ، ثم بين النظراء ، وأخذ القدح والمحادثة عليه والاصغاء الى الغناء ، ووجوب تأخر الساقي عن الشرب ، وحفظ النفس عما لا تقدر عليه من الشرب ومتابعته ، وعدم التخطي الى السرف وحسن الاقتصاد ، والتهادي بالخمر بين الاصحاب.

وهو يرى الخمر عروس المجالس وتحفة النفوس وشفاء الاحزان ، تؤلف الود وتجمع الشمل وتصدُق الحس وتذكي النفس وتفرغ البال وتطيل باع الاديب وترحب ذراعه وتزين لنفسه الكرم وتنسي الآلام .

ويرى سرور الخمر لا حد له ، فالشراب ينشىء القوة ويبسط الهوى ويعفي من الحذر ويحرر من التعب ، ويحبب المزاح والمفاكهة ، ويبغض الاستقصاء ، ويبعد الحشمة مع الهم الثقيل .

ومع هذا كله فابن المعتز مسلم متدين متكلم حنفي المذهب ، فلا بد

له في تنسكه هذا من ان يدلي برأي مذهبه فيها ، ولا يكتفي بقول الادباء والشعراء ، بل يورد اقوال اهل الدين الذين يقولون « ما دامت حلوة فهي حلال ، وحد السكر ان يخلط في الكلام وينعقد اللسان ويثبل البدن » فعند ذلك تحرم ، ويحل للسلطان ان يضرب السكران ويجلده . ثم يرقى الى التفلسف فيرى السكر اقبح ما يكون حين يذهب بالعقل ، وهل من فائدة في السكر سوى الهم بفقدان الهموم ؟ قد بينت ذلك الاحاديث وروايات الثقات عن النبي واصحابه الاجلاء .

ومهما يكن من تشعب بحوث ابن المعتز في الخمر فالصفة التي تغلب عليه، انه شاعر ناقد حافظ اديب ، يستشهد في كل باب باقوال الشعراء الجاهليين والاسلاميين والمولدين قدمائهم ومحدثيهم ، المنشىء منهم والسارق والمعقب والمفرّع والناقل والمبتدع والمقتصد والمغالي .

وانه ليسأل ويجيب ويستقبح ويستحسن ويتمنى ، وينسب القول الى قائله حين يعجز الرواة او المسؤولون ، ويسوق حكمة الحكماء واقوال الظرفاء في حبس الصوم النفوس عن المسرة بالشراب ، ولا يختار في كل ذلك الا كل مطرب معجب ، ولا ينشد الا كل قويّ النسج ذي روعة فتان .

المدح

لماذا مدح ؟

ليس المدح من شيمة امير حتى ولو كان شاعراً ، وان الغنى ليرفع الرجل عن المدح ويعجزه عنه لو حاوله ، ومثل هذا اولى به ان يشتغل بنفسه واحوالها وشهواتها كما اشتغل امرؤ القيس بنفسه ، وابن ابي ربيعة بلهوه وغزله ، وامراء العباسية الشعراء بعبثهم ، وكما عجز الفرزدق عن المدح لأنفته من التكسب ومكانته من الغنى والجاه ، وكذلك كان اليق بابن المعتز

ان تصدق حياته قوله الذي يقول :

لا تشيم البروق عيني ولا اجـ ـعل الا الى العـــلا اسفاري

ولكنه زال عن مكانه هذا وصار واحداً من وحدان الناس، يصيبه ما يصيبهم من فقر وبؤس وطرد وحرمـان ، وأظن صلته لم تتوثق بالخلفاء على الدوام ، ففي شعره ما يدل عـلى انهم كانوا يقصونه ولا يقربونه ، ولا يأذنون له بالدخول عليهم فيعتذر اليهم يطلب عفوهم والقربى منهم ، ومن هؤلاء الخلفاء المعتضد مع قرب ابن المعتز منه واكثاره من امتداحه ، فقد قال يعتذر للمعتضد :

واني كالعطشان طال به الصدى اليك ولكن ما الذي انا صانع

ايذهب عمري والعوائق دونـــه على ما ارى ، اني الى الله راجع

وما انا في الدنيا بشيء انــاله سوى ان ارى وجه الخليفة ـقانع*

وهبني اريت الحاسدين تجـــلدا فكيف بهم ضمّنته الاضالـع

واني لنعمـاه القديمـــة شاكـر وراءٍ بعين النصح فيه وسامـع

وما انا من ذكراه امري آيسٌ ومن دام حيا عالته المطامـــع

واقعدني عنه انتظاري لاذنـــه وما قـال من شيء فـاني طائع

وكان المعتضد يزعه ويؤدبه وينصح له ، فألجأه مثل هذا الى ان يمدح ويصير من شعراء المدح ويصطنع صنعتهم ، ولكنه عـلى كل حال لم يقصد بمدحه سوى خليفة او وزير ، ولم يقربه الى مجالس الخلفاء الا اتساع افقه وعلمه بالرواية فقد كانت مجالس الخلفاء حافلة بالمنادمة من هـــذا النوع من الادب : يذكر الخليفة بيتا فينشده فيسأل عن قائله وعلى النديم ان يغني ويورد الابيات التي يكون فيها هذا البيت *

---

* قانع خبر أنا التي في اول البيت وهو لهذا ضعيف .

* حلبة الكميت صفحة ٧٩

لم يكن المدح كما قلنا من طبعه وانما حمل نفسه عليه او قسره الزمن على ان يمدح ، ليستعين بممدوحيه على الدهر خشية ان يناصبه العداء ، فجاء التكلف واضحا في مدحه ، ويكاد يكون هذا الفن اضعف فنون شعره ، لا نرى فيه معاني المجتهدين ولا غوصهم عليها ولا تفننهم في ايرادها ، ولا نرى حتى مبالغاتهم المقبولة فيها ، بل تراه مقصرا عن حلبتهم ، يسرد صفات الممدوح سردا مكتفيا بما ابتذل من صفات الهيئة والجود والشجاعة وما الى تلك من الصفات ، وكل هذا في الفاظ دانية قريبة لا تثير النفس — اللهم الا القليل - ويخيل إليّ ان مدائحه لم تثر حتى نفوس الذين قصدهم بها .

ولقد يظهر في شعره جليا فراره من التورط بذكر اسماء من يمدحهم او من يعتذر اليهم — ما عدا القليل — فتراه يذكر لفظ الخليفة والامام والوزير دون ان يصرّح بالاسماء ، حتى بات القارىء ولا سيما من ابتعد عن عصره ومضى به الزمن في البعد كثيرا يمضي تعبا ساهرا باحثا في كتب التاريخ والاخبار ليعثر على صاحب اوصافه وامداحه في الشعر الذي قاله كما لقيتُ انا في ذلك جهدا جهيدا .

وانه ليتغزل ، او يتغزل ثم يصف الخمر ، او يصف الخمر مبتدئا في معظم مدائحه ثم يطيل فلا يبقى لممدوحه سوى ابيات قليلة من قصيدة مدحه ، ثم ينتقل من بدئه هذا فجأة للمدح على عادة الجاهليين ، ولا يحتال افكرة الانتقال ويدبر لها كما احتال شعراء عصره وتلطفوا ، ومن انتقالاته المفاجئة قوله :

ومضى يخطر في المشى كجبار عنيـــد
سحرا من قبـل ان ترجع ارواح الرقود
مرحبا بالملك القـــادم بالجـــد السعيد

ومنها قوله .

رشأ كساه الحسن خلعته   وجرى على خديه رونقُهُ

اهلا وسهلا بالامام فقد جلى الدجا وانار مشرقه

ومنهـــا :

يا هلالا تحته غصن بان اي ذنب فيك للعاشقينا
يا امير المؤمنين المرجّى قد اقر الله فيك العيونا

وهو يكرر المعاني في مدائحه ، وتكاد قصائده هذه تتشابه في الفاظ كثيرة كما تقاربت في المعاني ، ولعل الذين نعوا عليه تقصيره نقدوه لعدم تبريزه في المدح تبريز ابي تمام والبحتري واضرابها فظلموه .

ولقد ظل مترفعاً ترفع الامراء ، فلم يذهب قط مذهب الغلو اذا مدح لذلك الطبع الذي تحدثنا عنه ، ولمكانه من الممدوحين وقربه من مقاماتهم او علو عنصره عليهم ، وكما لم نره مبالغاً لم نره كاذباً ، وما يليق به ان يكون كالبحتري في مدح ابن الزيات وكان احد الجبابرة الذين امتلأوا حقداً إذ يقول له :

مستريح الاحشاء من كل ضِغن بارد الصدر من غليل الحقـــود

وما درت العباسية حشاً يحمل ضغناً او صدراً احرقه الحقـــد كابن الزيات الذي كان يقول كلما عذّب احداً في التنور فاسترحمه : « الرحمة خور في الطبيعة » .

ممدوحوه من الخلفاء

واخص من مدح من الخلفاء العباسيين الخليفـــة المعتمد على الله ابو العباس او ابو جعفر احمد بن المتوكل بن المعتصم ، والمكتفي بالله ابو محمد علي بن المعتضد ، ولكن المعتضد فاز منه بالقسط الاوفر ، امـا المعتمد فصاحب الفضل في حمـل ابن المعتز وجدته من المنفى الى سامرّا ، وفي اطلاق سراحه وهو صبي ليؤدّب ويُعلم كما يشتهي ، وقد قضى ابن المعتز معظم صباه وبلغ اوطار لهوه وعبثه ومجونه في عهده ، فقد مكثت خلافة المعتمد ثلاثـاً وعشرين سنة ، واوشك ابن المعتز ان ينيف على الثلاثين .

وكان سليمان بن وهب وزير المعتمد ينصره وينصر اهـل بيت المعتز على خصومهم فاستحق بذلك ان يُمدَح الخليفة والوزير بما فعلا من جميـــل ، ومن مدحه المعتمد قوله :

يا خير من تزجى المطيّ له ويُمرّ حبْل العهد مُوثِقهُ
اضحى عنان الملك مقتسراً بيديك تحبسه وتطلقـــه
فاحكم لك الدنيا وساكنها ما طاش سهم انت موفقه

المعتضد *

وافضت الخلافة الى المعتضد فأسكن الفتن وهدّأ الهرج واصلح البلدان وارخص الاسعار ورفع الحروب ، وسالم كل مخالف وإن كان هو مظفراً ، فدانت له الامور وانفتح له الشرق والغرب ، فلما هبت اعاصير المخالفين والخارجين ادّبهم وعاقبهم وأديل له ، وكان يقال : لبني العباس فاتحـة وواسطة وخاتمة فالفاتحة السفاح والواسطة المأمون والخاتمة المعتضد .

والحق ان خلافة المعتضد حفلت بالحوادث الجسام ، وما من حـادثة في شأن المعتضد الا وقد سجلها ابن المعتز في شعره من اول يوم الى آخره ، فقد هنأه وهنأ الملك به اول ما وَليَ الخلافة ، وكان مما قاله :

اما ترى ملك بني هاشم عاد عزيزاً بعد ما ذللا
يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك والا فلا

ولما مرض المعتضد بعلة موته قال ابن المعتز يخاطبه :

طار قلبي بجناح الوجيب جزعاً من حادثات الخطوب
وحذارا ان يشاك بسوء اسد الملك وسيف الحروب

وحتى الدم كان يسيل من ذراع المعتضد في الفصد فينشد فيه شعراً *
فلما مات المعتضد رثاه بقصيدته الاينية التي اكثر فيها من قوله « أين »

---

* اقرأ صفة الخليفة المعتضد في كتاب « يوم وليلة » صفحة ٢٥ وما بعدهـا طبعة بيروت للمؤلف .

* انظر هذا الشعر في صفحة ٤٠ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

وقد استحسنا ان نذكر شيئاً منها في هذا الباب لانها شبيهة به ، ولن نفرد لمراثيه باباً خاصاً لأنها من القلة بمكان لا يُلتفت اليه . قال فيها :

يا ساكن القبر في غبراء مظلمة بالطاهرية * مُقْصَى الدار منفردا
اين الجيوش التي قد كنت تسحبها اين الكنوز التي لم تحصها عددا
اين السرير الذي قد كنت تملؤه مهابة من رآته عينه ارتعدا
اين الاعادي الالى ذللت مُصعبهم اين الليوث التي صيرتها بددا
اين الجياد التي حجلتها بدم وكن يحملن منك الضيغم الاسدا
اين الرماح التي غذيتها مهجا مذ مُتَّ ما وردت قلبا ولا كبدا
اين الجنان التي تجري جداولها وتستجيب اليها الطائر الغردا
اين الوصائف كالغزلان رائحة يسحبن من حلل موشية جددا
اين الوثوب الى الاعداء مبتغيا صلاح ملك بني العباس اذ فسدا
ما زلت تقسر منهم كل قسورة وتخبط العاليَ الجبار معتمدا
ثم انقضيت فلا عين ولا اثر حتى كأنك يوماً لم تكن احدا

وهذه اطول مرثية رأيتها له ، وهي كما ترى خامدة النفس خالية من الابتكار ليس فيها من نغم الحزن ما كان جديراً بشاعر على المعتضد ومن اهله القريبين اليه ، ولكن ابن المعتز فاتر في الرثاء كما هو فاتر في المدح لمخالفة ذلك الفن لطبعه وما جبل عليه ، وربما كان له في بعض الاحيان رثاء مدوٍّ شديد الاسر ولكنه لا يطول كقوله :

قد ذهب الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر اين الرجال
هذا ابو العباس في نعشه قوموا انظروا كيف تسير الجبال

ارجوزته في المعتضد

واشمل ما قال ابن المعتز في المعتضد تلك الارجوزة الشهيرة التي ارخ فيها لاعمال المعتضد واصلاحاته وانشاءاته ، وقالها بعد موت المعتضد واولها:

---

* الطاهرية دار محمد بن عبدالله بن طاهر في الجانب الغربي من بغداد او قرية من قرى بغداد لعلها منسوبة لطاهر بن الحسين .

باسم الاله الملك الرحمن ذي العز والقدرة والسلطان
والحمد لله على آلائه أحمده والحمد من نعمائه
أبدع خلقاً لم يكن فكانا وأظهر الحجة والبيانا
وجعل الخاتم للنبوة احمد ذا الشفاعة المرجوة
الصادق المهذب المطهرا صلى عليه ربنا فأكثرا
مضى وابقى لبني العباس ميراث ملك ثابت الاساس

وكذلك يقتضب المقدمة وينتقل من النبي لبني العباس لانهم مقصده ، ثم ينتقل بعد بيت واحد الى ذكر المعتضد فهو بيت القصيد فيقول :

هذا كتاب سيرة الامام مهذباً من جوهر الكلام

ويمضي فيها يقص ما اصاب الملك العباسي قبله من نهب وضياع وخلع وتخويف وقتل وانتهاك حُرَم ، ويخص العسكر من الترك وغيرهم بالذم لطغيانهم ومطامعهم وادعائهم الحقوق بطلًا وزوراً ، ذاكراً اسماء محلاتهم التي خربوها في ثوراتهم كالكرخ والتل والجوسق والقطائع ، ثم يمضي فيذم العاصي بمصر من بني طولون والخارجية بالنواحي والاطراف ، ويذم الرافضة والزنج والصفارية والشراة والاكراد ويهجو القرامطة وينعى عليهم ادعاءهم وجَعجعتهم وجبنهم ، وفي اثناء ذلك يذكر فتك المعتضد بهؤلاء الثائرين ، ويذكر خضوع مصر والبلاد له وكبسه اللصوص وتأمين العباد في البلاد والبر والبحر والعامر والخلاء والآهل والصحراء .

وقد كسر المعتضد حقاً عمرو بن الليث الصفار على يد اسماعيل بن احمد الساماني ثم حبسه في مطمورة تحت الارض كما كان يفعل بالعصاة ، ولما ظهر القرامطة في عهده وانتشر امرهم بسواد الكوفة وقتلوا الحجيج واقتلعوا الحجر الاسود واغاروا على البصرة ارسل اليهم عسكره فظفروا بابن ابي الفوارس رئيس القرامطة وبجماعة معه وعذبوا بانواع العذاب ، ثم صلبوا واحرقوا .

وفي عهده كذلك واقع صالح بن مدرك رئيس ُعرب طيّ الحاجّ العراقي

فقتل وقتل معه اعيان طي .

وفي عهده خضعت مصر ودفعت الخراج ، وقدم اليه جماعة من قواد مصر يقدمون الولاء ، ثم عقدت لهرون بن خمارويه الولاية عليها .

وكان اسماعيل بن بلبل امرف في بيوت الاموال والنفقات والجوائز والخلع ، وامد العرب واجزل لهم العطاء ، واصطنع بني شيبان من العرب ومن غيرهم زاعماً انه من بني شيبان ، وظلم الناس فطالبهم بخراج سنة مبهمة ، فثقل على الرعية وكثر الداعي عليه وثار به الناس وانتهبوا داره حتى اضحت خلاء . فلما آل الامر الى المعتضد قيده وحبسه وامر بضرب جميع الآنية التي كانت في خزانته (اي سكها نقودا) فضربت وفرقت في الجند . واسماعيل هذا يذكره ابن المعتز في الارجوزة فيقول :

واثبت الاعراب في الديوان	وقال اني من بني شيبان
مضطرب الآراء والاحوال	والزي والالفاظ والافعال
يستعمل الغريب في خطابه	وغامضات النحو في كتابه
ويزجر الناس اذا تكلـــما	مفخماً مجهوراً مغلصـــما

وكما يذكر ابن المعتز كل هذا في ارجوزته التعليمية التاريخية يذم رؤساء الفتن ويجادل مذاهبهم ويخاصمهم فيها بالحجة والدليل ، ويخص الكوفة بالذم لكثرة اديانها وافتراق ائمتها وانتشار الكفر بين ارجائها ، ويذكر سوءاتها القديمة والجديدة فما قاله فيها :

واستمع الآن حديث الكوفه	مـــدينة بعيبها معروفـــه
كثيرة الاديـــان والائمة	وهمها تشتيت امر الامـــه
مصنوعة بكفر بَخْتَنَصر	وكفر نمرود امـام الكفر
وعشش الشر بها وفرّخـا	ثم بـــنى بارضها ورسخا
وغرق العالم من تنورهـــا	جزاء شر كان من شرورها

ويقول في القرامطة اصحاب الرجعة :

والقرمطيون ذوو الآجـــام	صَغَوا فقد باءوا مع الآثام

وشرعوا شرائـــع الفساد وأهلكوا اهلاك قوم عـــاد
كانوا يقولون اذا قتلنـــا صبرا عـــلى ملتنا رجعنا
من بعد ايام الى اهلينـــا فقبح الرحمن هـــذا الدينا

ويجادل الرافضة مسقطا مذهبهم الذي يقول ان جبريل اخطأ في اداء الرسالة فابلغها محمدا وكانت لعليّ قائلا :

والمسلمون منهمُ براء رافضة ودينهم هباء
فبعضهم قد جحد الرسولا وغلطوا في فعله جبريلا
وبعضهم قالوا عليّ ربنا وحسبنا ذلك دينا حسبنا

وهكذا يخاطب المذاهب واهلهـا ، ويهجو كل من نهج منهج الفلاسفة والزنادقة فمدح افلاطون ، أو لاك في فمه السعود والنحوس والجوهر والعرض والنجوم ، او طعن في الفقه والحديث او انكر البعث . ومن قوله في ذلك عند الكلام على اسماعيل بن بلبل واصحابه يذمهم :

ومدْحَ افلاطون والفلاسفة وساعدته في هواه طائفة
وذكر السعود والنحوسا والجوهر المعقول والمحسوسا
والعرض الظاهر في التجسيم والقول في مطالع النجوم
واستثقلوا من قـام للصلاة فكيف من طـوّل في القِراة
وطعنوا في الفقه والحديث وعجبوا من ميت مبعوث

وقد كانت السياسة نزعتْ الى تأييد مذاهب اهل السنة من عهد الخليفة المتوكل ، وكان بطله ابو الحسن الاشعري ٢٦٠ – ٣٢٤ ﻫ يثير الجدل ويرد على المعتزلة بمثل ادلتهم ويوسع علم الكلام وينظمه ويضع قواعده .

ويمدح ابن المعتز المعتضد لما بنى وشيد وحفر وغرس من قصر الرباب والنهر والبستان والشجرة العظيمة ذات الغصون والثمار ، والبحيرة والقبة العالية ، محتجا بأن هذا البناء والغرس والتشييد يظهر قوة الاسلام ويعلي شوكته ، ومن قوله في ذلك :

وبالزبيدات ولن ننساها قرة عين كل من رآها

بنية فيهـــا جنان الخلد	لكل ذي زهد وغير زهد
ريع بهـا عدوها وذُعِرا	وملأت عينيه لما نظرا
كانت عـلى ساكنها دليلا	جليلة قـد وصفت جليلا
ومذكرات لجنان الخلد	لطيفة ما ان لها من ند
ومظهرات قوة الاسلام	على اعاديه من الانـام
تخبر عن عز وعن تمكين	وحكمة مقرونـة بالدين

ويمدح فيها الخليفة لرأيه وشجاعته وحسن سياسته وتدبيره وجهاده ، ويمدحه لتأمين ذوي العهود وغفران الذنوب ، ويذكر فيها ظلم الحكام قبل المعتضد وعدوانهم وأكلهم الرشوة واموال الناس وضياعهم ولا سيما التجار ، وقتلهم الاكابر ، وافاعيلهم بهم في الحبوس والقيود .

ويذكر ان الناس شكوا الى المعتضد امورهم فأصلحها ورفق بالرعية ، ومن ذلك الرفق انه غيرّ موعد النيروز العجمي وسماه النوروز المعتضدي ، ومنع الناس من اشعال النار وصب الماء على الناس كما كانوا اعتادوا ذلك *

وكذلك يذكر تأخير الخراج وتأجيله بامر الخليفة حتى ييسر الناس ، ثم يذكر فضل المعتضد ووزيره القاسم وقضاته العدول ، ويذكر غيرة المعتضد وحرصه على دينه .

وكذلك تجمع هذه الارجوزة الطويلة ما قبل عهد المعتضد ثم عهده ، وتنشره واضحاً محكما ولا تكاد ارجوزة في الشعر العربي او قصيـــدة — فيما عدا ما حاوله شوقي في عصرنا من التأريخ لدول الاسلام الاولى — تؤرخ لخليفة هذا التأريخ المفصل لسيرته سوى هذه الارجوزة .

وقد ساعده على اطالة نفسه فيها انه غيرّ القافية في كل بيت وضمّن ولم يدع كل بيت مستقلا ، وساق العلل والدعاوى للحوادث ، فاستطاع

* كان ذلك في النوروز وهو عيد فارسي قديم مدته عندهم ستة ايام كان يقضي فيه الاكاسرة حوائج الناس في الخمسة الاولى ثم ينتقلون الى مجالس انسهم وخواصهم ، وفيه كلام طويل وصفه ابن المقفع ، وكانت عادة عوام الفرس فيه رفع النار في ليلته ورش الماء في صبيحته . انظر صفحة ١٨٦ الجزء الاول من نهاية الارب .

ان يبلغ بها نحواً من اربعمائة وعشرين بيتاً من بحر الرجز من غير تكلف ولا ضعف ولا قلق ، وقد وقعت بها محسنات بديعية ولكنها واتته طبعاً وارتجالا .

وقد امتازت الارجوزة – فيما عدا ذلك – بكثرة الآراء السديدة والحكم المنثورة في انحائها في مقطوعات او ابيات كاملة او في نصف ابيات كقوله :

ومن اطاع رغبة او رهبه اكثرُ مِنْ قوم اطاعوا حِسبه
لا سيما ان طال عمر الامه ونظرت سلامة ونعمه
واختلفت واحدثت احداثاً والتاث امر دينها التياثا
فما لذاك الداء من دواء الا امتزاج الخوف بالرجاء

او قوله :

والحي منقاد الى الفناء والرزق لا بد الى انتهاء

أو قوله : ولا تكونوا حطباً للنار فربّ اشرار من الاخيار

او قوله :

ومَنْ يفوت قدراً اذا اقتربْ ؟

وتمتاز الارجوزة كذلك بدقة التأريخ لبعض الحوادث وتسجيل الأرقام كما في قوله يؤرخ لدخول عمرو بن الليث الصفار بغداد مكبلاً مغلولاً :

وأدخل الصفّار شر مُدْخَل يئن من عض حديد مثقِل
بغدادَ فوق جمل محمولاً أول يوم من جمادى الاولى

ويؤرخ لموت المعتضد قائلاً :

ثم انقضى أمر الامام المعتضد وكل عمر فالى يوم نفد
ومات بعد مائتين قد خلت في عام تسع وثمانين مضت

وقد استطاع ابن المعتز أن يضع الصلة بين الادب والتاريخ في أرجوزته هذه ويصور الحوادث تصويراً مؤثراً ، وبذلك أكبره عصرنا من هذه الناحية ، لأن عصرنا قد عني أكثر من كل العصور التي سبقته

بالصلات التي تربط الادب بالتاريخ .

ولم تخل الارجوزة من الفكاهة اللاذعة كقوله في هرون الشاري :

آكل خلق الله للعصائد ومضغه للحم والثرائـــد
يشرب جباً ويعرّي مائده وهي عليه في العشي عائده

ولست أدري لم لمْ يذكر ابن المعتز زواج المعتضد بقطر الندى بنت خمارويه في أرجوزته ، بل لم يذكرها في شعره ونثره قاطبة ؟

المكتفي

والمكتفي آخر الخلفاء الذين مدحهم ابن المعتز ، مدحه بجوده وفصاحته على المنابر واغاثة اللاجئين اليه بعد أن كان بابه قد سدّ في وجوههم ، ثم يهجو خصومه .

وكان المكتفي اديبا ظريفاً عالماً شاعراً راوياً صادق الحكم في نقد الادب ، وأول ما ولى الحكم هدَمَ المطامير التي اتخذها ابوه ، وصيّرهـا مساجد ، وأمر برد البساتين والحوانيت التى اتخذهـــا أبوه الى أهلها ، وكان يفـــرق الاموال في الناس ويتشدد في ضبط اللصوص ، وسار سيرة جميلة فمالت اليه قلوب الرعية وأحبه الناس ودعوا له ، ولكنه عاد فانتكس واغتصب ضياعاً كثيرة ومزارع بغير ثمن من ملاكها ، مدحـه ابن المعتز بكل تلك الخصال والفعال الطيبة فكان مما مدحه به قوله :

بالمكتفي كُفيَ الانام همومهم وغـــدا عليهم طالع مسعود
جاءوك يحشرهم إليك محبـــة طوعـــا وسيفك عنهم مغمود
ولطالمـا ظمئت اليك نفوسهم وطريق بابـك عنهم مسدود

ومما قال يمدحه بعد عودته من الرقة بعد القبض على القرمطيّ قوله :

مرحبا بالملك القـــا دم بالجـــد السعيد
يا مذل البغي يا قا تـــل حيات الحقود
عش ودم في ظل عش خالد باق جديـــد

فلقد اصبح اعـدا ؤك كالزرع الحصيد
ولقد صاروا حديثا مثـــل عاد وثمود
جاءهم بحر حـــديد تحت اظـلال بنود
فيه عقبان خيول فوقهـا اسد جنود
وردوا الحرب فمدوا كل خطيّ مديـــد
وحسام شره الحدّ الى قطـــع الوريد
ما لهـذا الفتح يا خير امام من نديد
فاحمـد الله وإن الـ حمد مفتاح المزيـد

ومدحه للمكتفي كما ترى ليس فيه من طريف ولا من بديع .

بنو وهب

اما الوزراء الذين فازوا بمدائحه فهم بنو وهب ، وأصل هؤلاء الوزراء نصارى اسلموا من قرية من اعمال واسط ، ثم أعرقوا في الكتابة فانجبوا ، ولسنا نستبعد ذلك فقد سنها من قبلهم البرامكة والفضل بن الربيع ، ظهرت نجابته ليحيى بن خالد البرمكي فقال له : أسلم اجد السبيل الى اصطناعك فاسلم على يد المأمون فكان ذا الرياستين * ثم استوزر المعتصم الفضل بن مروان بن ما سرخس وكان نصرانيا .

ومنذ عزل المعتمد الحسن بن مخلد واستوزر سليمان بن وهب اخا الحسن ابن وهب ودولة بني وهب في صعود ، وكان سليمان هذا احد كتاب الدنيا ورؤسائها فضلًا وادباً ، وأحد عقلاء العالم وذوي الرأي منهم ، كتب للمأمون وهو ابن اربع عشرة سنة ، وكان عالماً حسن الجواب صحيح التمثل بالشعر ، وكان ناقدا بصيراً بوجوه الكلام رقيق الشعور ، قال احمد بن اسماعيل :

ماتت ام سليمان بن وهب فجاءه ابو ايوب بن اخت ابي الوزير فعزاه ،

* زهر الآداب ص ١٤ الجزء الثاني .

وقال لابد من ان تسمع مرثيتي لها رحمها الله تعالى ! قال : هات اعزك الله ! فأنشده :

لأم سليم نعمة مستفادة ... علينا كمثل المرهفات البواتر
عراني همّ آخذ بالخناجر ... لأم سليم من كرام العناصر
وكنت سراج البيت يا أم سالم ... فصار سراج البيت وسط المقابر

فجزّاه خيراً وانصرف ، واقبل سليمان بن وهب على الناس فقال : ما امتُحن احد بمثل محنتي ، ماتت امي وهي اعز الناس عليّ ورثيت بمثل هذا الشعر وكنيت بكنيتين لانعرف واحدة منها ، وُجعلتُ انا مرة سليا مصغرا ومرة سالما ، وترك اسمي الذي سماني به ابواي ، فمن محن بمثل محنتي !

ثم وزر ابنه عبيد الله للمعتمد والمعتضد ، وكان عبيد الله من كبار الوزراء ومشايخ الكتاب بارعاً في صناعته حاذقاً ماهراً لبيباً جايلا ، ثم وزر القاسم بن عبيد الله للمعتضد ، واسمه اكثر اسماء بني وهب لمعاناً ، وكان من دهاة العالم ومن افاضل الوزراء شهما فاضلًا لبيباً محصلا كريماً مهيباً جباراً ، ثم وزر بعد المعتضد للمكتفي فجل امره وعظم شأنه : قيل صلى المكتفي بالناس يوم النحر ، وكان بين يديه ألوية الملوك ، وترجل الملوك والامراء بين يديه ما خلا وزيره القاسم فانه ركب وسايره دون الناس ، ولم ير قبله خليفة يسايره وزيره غيره ، وقد زوج المكتفي ولده ابا احمد من ابنة وزيره القاسم بصداق قدره مائة الف دينار وخلع على القاسم اربعمائة خلعة .

هؤلاء هم بنو وهب الذين كانوا رؤساء الدنيا وحذاقها وفضلاءها وكرماءها ، وكانت دولتهم ناضرة وايامهم مشرقة ، والادب في زمانهم قائم المواسم والكرم واضح المعالم ، وقد ربطتهم حبال الادب والسياسة بابن المعتز وقربته منهم فقربوه وساعدوه احتساباً لا رغبة ولا رهبة ، واقتصوا من قتلة ابيه المعتز بالله ، لا له ، وانما للدولة ليرهبوا المعتدين على

مقام الخلافة العباسية ، فتقدم اليهم الامير الشاعر مادحاً ومهنئاً وراجياً ومتمنياً وشاكراً ، واقواله فيهم كثيرة يمدحهم مجتمعين ومنفردين ، فمن مدحه جماعتهم قوله :

لآل سليمان بن وهب صنائع لديّ ومعروف اليّ تقدما
هم ذللوا لي الدهر بعد شماسه وهم غسلوا من ثوب والدي الدما

وقوله :

كم صنيع شكرته لبني وهـ ب بدا لي وما اهتديت اليه
وعدو يريد قتلي ولكن يد صنع منهم ترد يديهِ

ومن مدحه افرادهم مدحه عبيد الله في قوله :

عليم باعقاب الامور كأنه بمختلسات الظنّ يسمع او يرى
اذا اخذ القرطاس خلتَ يمينه يفتح نوراً او ينظم جوهراً

ومن قوله يهنىء المكتفي بوزيره القاسم لما عمل على مبايعته بالخلافة من ابيه المعتضد :

هنتك امير المؤمنين خلافة اتتك على طير السعادة واليمن
ولما اقرت في يديك عنانها نشرتَ على الدنيا جناحاً من الامن
لقد زفها في حليها رأي قاسم الى ملك كالبدر مقتبل السن
ولم يظلم الحق الذي هو اهله وانفذ حكم الله في والد وابن

وقال الصولي : لما عرض القاسم بن عبيد الله ليخلف اباه قال ابن المعتز في قلم القاسم :

قلم ما أراه ام فلك يجـ ري بما شاء قاسم ويسير
خاشع في يديه يلثم قرطا سا كما قبّل البساط شكور
ولطيفُ المعنى جليل نحيف وكبير الافعال وهو صغير
كم منايا وكم عطايا وكم حتـ فٍ وعيشٍ تضم تلك السطور
نقشت بالدجى نهاراً فما اد ري أخط فيهن ام تصوير
هكذا من ابوه مثل عبيد الله ينمى الى العلا ويصير

عظمت منة الالــه عليه   فرآك الوزيرَ وهو وزير

واغلب الظن ان قاسماً هذا صار عليه جواداً فلم يشح قط ، وفي ذلك يقول ابن المعتز :

وقد حكت الامطار نائل قاسم   ويا ربما شحت وليس له شح

وقد كان هـذا حال ابن المعتز مع بني وهب لانه مـا كاد يدنو من العاشرة حتى رآهم وزراء الدولة ، ثم اقترنت حياته بحياة دولتهم وانقضت بانقضاء ايامهم ، فعرفوه منذ كان صبياً وردوا عنه العدوان ومدوا له يد المساعدة ، فاستحقوا ان ينزل الامير لهم عن كبريائه صادقاً مخلصاً ، وان يعطر الدنيا بذكرهم والثناء عليهم .

بعض ممدوحيه

وقد مدح غير اولئك ابا الحسن علي بن محمد بن الفرات وزير المقتدر في اول ولاية المقتدر ، وقبل الخلاف الذي كان بينهما .

كما مدح أبا احمـد بن المتوكل الملقب بالناصر او الموفق ، وكانت حاله قد راجت في أيام المعتمد الى غاية لم يبلغهـا خليفة . وشعر ابن المعتز فيه من أجزل الشعر واقواه ، ومنه قوله :

اليك امتطينا العيس تنفخ في البُرَى   وللصبح طرف بالظــلام كحيل
صدِينَ من التهجير حتى كأنهــا   سيوف جلاهـا الصقل وهي فحول

ومن القصيدة ذاتها في السيف :

وجُرّد من اغماده كل مرهف   اذا مـا نضته الكف كاد يسيل
جرى فوق متنيه الفرند كأنمـا   تنفس فيه القين وهو صقيل

ومنها :

سريع الى الاعــداء اما ذبابه   فمــاض وأما وجهه فجميل
ويقرى السؤال العذرَ من بعد ماله   ويستصغر المعروف حين ينيل

وكان ايضا قد مدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

هـذا ، ومهما يكن فجملة شعره في المـدح ليست بذات بال ، ما عدا ارجوزته في المعتضد من ناحيتيها الادبية والتاريخية كما قدمنا .

الهجاء والسخرية

لم يبلغ ابن المعتز مبلغ ابن الرومي في الهجـــاء والذم ، فقد انفرد ابن الرومي بملكة السخرية والغلو في جدّها ومرارتهـا ، وانفرد بلاذع الهجـاء ومره انفراد ابن المعتز بالتشبيهات لطبعيهما المختلفين والمواعيـــن البيئية واختلاف البيئتين ، وقليلا ما اقذع ابن المعتز في هجاء او جاء به نابيا مكشوفا .

وأدق هجائه كان لأصحاب المذاهب التي يبغضها ، ذلك الهجاء الذي اصله التعصب للأهل او للمذهب الديني او للفريق السياسي ، وقد ضربنا له الأمثلة في أرجوزة المعتضد ولكنا نتكلم هنا عن صنف آخر له من الهجاء قد امتلأ سخرية ومجونا ، كهجائه للمغنين والقيان ، ومن هجائه لقينة زامرة :

كايدكم دهركم بزامرة ... تحدث غما في كل سراء
اربطوا شدقها اذا نفخت ... فذاك أولى بها من الناء

وقال في قينة :

غناؤهـا يصلح للتوبـه ... وريقها من زبد الحوبه
فعجلوا بالشرب قد أمسكت ... من قبل ان تلحقها النوبه

أما بَدعة المغنية فكأنما له عندها ثار ، فهو يهجوها ويكرر هجاءها، وكانت ذات منظر قبيح ، كانت نحيفة خفيفة الشعر صغيرة الرأس ، ومن قوله فيها :

حدّثونا عن بَدعة فأبينـــا ... فتغنت فظُن في البيت بوقُ
واذا شوكة تقصّفُ يُبساً ... فوقها رأس فأرة محـــلوق

ولعل أفحش هجاء له قوله في مغنية اسمها دبسية :

ودبسية بالاسم لكن صوتها ... كصوت حمار قطع النهق مفحما
يلامس منها الكفُّ عيدان مصخب ... كنباش ناووس يقلب أعظما

وعابدة لكن تصلي على القفا وتدعو برجليها اذا الليل أظلما

ويهجو المرأة التي تخلف الوعـــد والمتصابية والمرخصة نفسها ، فيقول في المتصابية :

عجوز تصابى وهي بكر بزعمهـــا ومن الف عام قد وَجى خدها الواجي

ويقول فيها ايضاً :

عجوز كأن الشيب تحت قناعها على الرأس والاكتاف قطن منفش

خبيثة ريح الريق تحسب هدهـداً يبيض بفيهـــا ثاويـــاً ويعشش

ويهجو الزائر الثقيل فيقول :

وزائر زارني ثقيــــل ينصر همي على سروري

اوجـع للقلب من غريم ظـــل ملحاً على فقـير

وكان من عاداتهم قيام الاسواق للتجارة فى الثلاثاء ، فتمتلىء الاسواق بالضوضاء والزحام فتخلى الكتاتيب في هذا اليوم ، وابن المعتز لا يحب الضوضاء فاجتمع في مجلس ذات مرة في ثلاثاء وقامت به ضجة وضوضاء فقال :

بالله يا بن عـليّ فضّ جمعهم وأعفِ نفسك من غيظ وضوضاء

تجماون الثلاثا لاجتماعكـم ان الكتاتيب تخلو في الثلاثاء

وزار حماماً متسخاً مرة فوجد أكثر المستحمين به صلعاً وقــد أطالوا المكوث فقال :

يا مُدخل الصلع حماماً يزيدهم بطول مكثهم في جوفه وسخا

حتى اذا عرقوا من حره شرعوا وكلهم بخلوف منه قـد لطخا

وقد هجا بعض معارفه وجلسائه ممن لم تربطهم به أواصر الصداقـة الخالصة ، ولم يرض هو بصداقتهم اما ترفعاً واما استثقالا .

فهجا من هؤلاء علي بن منصور بن بسام والقاسم بن محمد النميري * وامره مع ابن المعتز مشهور ** ومن قوله في ابن بسام :

---

* انظر صفحة ٣٧ من كتاب يوم وليلة للمؤلف .

صفحة ١٤١ الجزء الثاني من نهاية الارب طبعة دار الكتب المصرية .

من شاء يهجو علياً فشعره قد كفاه
لو انه لابيــه ما كان يهجو اباه

وهو هجاء لاذع لما يشم فيه من هجاء امّ علي بن بسام في البيت الثاني . ومن هجائه للنميري قوله وقد صلى بهم صلاة خفيفة جداً ثم دعا بعد انقضاء صلاته وسجد سجدة طويلة جداً حتى استثقله جميع من حضر بسببها :

صلاتك بين الورى نقرة كما اختلس الجرعة الوالغ
وتسجد من بعدها سجدة كما خُتم المزود الفارغ

ثم قال يصفها مرة اخرى :

اخفّ من لا شيء في سجدته كأنــه يلسع في جبهتـه

ثم قال فيها :

لنا امام ثقيــل خفيف روح الصلاة
يظل يركض فيهـا نقراً بغير قِراة
كراكب وتراه مستعجَل بــبزاة

وقال في خصومته للنميري :

جفاني النميريّ فيمن جفـا وما كان الا كمن قد سرى
ويزعم اني له حــافــظ واين خليــل تراه وفي
وما ليَ منه سوى الاعتذا ر نصيبٌ وسائره للعدا *
وما جمـع الله حب امرىء وحبك أعـداءه في حشا
باي سلاح تلاقي العــدو وسيفك في كفه منتضى

اما المعجب الرائع من فنه هذا فهو ما يميل فيه الى السخرية كقوله يسخر من بخيل :

يا بخيلا ليس يدري ما الكرمْ حرّم اللؤمُ على فيــه نعمْ
حدثوني عنــه في العيد بمــا سرّني من لفظه فيما حــكم

*** الضمير في سائره للنميري .

قــال لا قرّبتُ الا بدمي ذاك خـير من اضاحيّ الغنم
واستخـار الله في عزمتـــه ثم ضحى بقفـــاه واحتجم

وقوله لاحمد بن موسى بُغا

يا ذا الذي تخبر الحاظهُ عنــه بتخليط وتشويش
انت أميرٌ مـله جنده وأنت خركوش بلا كوش

ولا تحسب انها الفاظ لا معنى لهـــا ولكنها قبيحة الهجو ، وهـــذا ما يريده ابن المعتز وهــو نوع من المجون الذي فرع فيه وتفنن واجاد . وما الطف ذمه لبستانه الذي لا ينبت فيــه البذر ولا يثمر فيه الشجر ، قال يرتجز :

لله مـا ضيعتهُ من الشجر اطفال غرس ترتجي وتنتظر
ومعجبات من بقول وزهر مصفرة قد هرمت على صغر
في بقعة لا سقيت صوب المطر حالقة لنبتها حلق الشعر
ضميرها نار وان لم تستعر كم اكلت غبراؤها من الخضر
كل امرىء عَلِمته من البشر بستانه أنثى وبستاني ذكر

وقال ايضا في داره وبستانه وقد اطبق عليهما المطر من فوقها وفيضان دجلة من تحتها :

أتتني دجــلة لم أدعهـــا فما يصنع البحر ما تصنع
طفيلية لم تكن في الحسا ب تأكل داري ولاتشبع
فكم من جدار لنــا مائل وآخر يسجد او يركع
ويمطرنا السقف من فوقنـــا ومــن تحتنا أعــين تنبع
واصبح بستاننا جَوْبــة يسبّح في مائــها الضفدع

الحكمة والشكوى

قيم الناس

اذا كنت ذا ثروة من غنى فأنت المسوّد في العـــالم

وحسبك من نسب صورة تخبر انك من آدم

هذا قول ابن المعتز وهذا رأيه في عصره الذي يعيش فيه ، ولكنه ايضاً رأى حكماء عصره ، ولا اخشى ان اقول انه رأي الناس جميعاً منذ عرف الناس المال ومنذ صار التعارف على قضاء الحاجات ، وسيظل كذلك ابداً . ومن قبل ابن المعتز قال ابن قتيبة : « فاني رأيت اهل زماننا هذا عن سبيل الادب ناكبين ومن اسمه متطيرين ولأهله كارهين ، اما الناشىء منهم فراغب عن التعليم، والشادي تارك للازدياد، والمتأدب في عنفوان الشباب ناس او متناس ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . »

فالسيادة كانت لاهل اليسار والنضار ، وكان ابن المعتز يحس نفسه تصغر في عينه كلما رأى ذلك التسويد والتمجيد فيتهكم ويندب حظه ويكبر خطبه ، وقد كان من اهل السياسة فزالت عن بيته السياسة ، وكان من الاغنياء فصودرت كل بقية من مال اهله ، واخص ما صودر اموال صبيحة جدته وهي من هي في الغنى والثروة ووفرة الجواهر واليواقيت ، ومهما جاءه من جود الخلفاء والوزراء فما هو الا وشل قليل ينضب في ليلة يجتمع فيها عليه الندماء او تمتد اليه فيها يد الاصحاب والطلاب . ومع هذا الفقر فان امره لا يستقر على حال من القلق بل كل يوم يمضي يسلمه الى غدٍ أسوأ ، وليس ذلك في المال فحسب وانما في العافية والعاطفة والاهل والصحب والآمال .

ومن الحق ان هذا حال الامراء جميعاً في عصره ، ولكن احساس ابن المعتز به صيّره كله كأنه حاله وحده لا يشركه فيه انسان ، وذلك لانه يتكلم ويبكي ويصور فيقول :

عجباً للزمان من حالتيه وبلاء دفعت منه اليه

رب يوم بكيت فيه فلما صرت في غيره بكيت عليه*

---

* تنازع هذا البيت لشهرته من رواه لابي العتاهية ومن رواه لابن المعتز ومن رواه لغيرهما .

ويظهر ان ابن المعتز كان مغترا بالناس يظن فيهم الخير ، فلما خطا في السن والتجاريب عرف حقائقهم من جديد فرأى الكبار من اهله يقصونه والصغار يخافون مودته ، واهل المودة من الاصدقاء لا يبقون عليها ، والغرباء يئدون المروءة ، ورأى الدنيا كلها تكتئب فلم تبق الدور على الهيئة التي كان ينزلها ولا المجالس على البشر الذي كان يعهده ، ثم ماتت جدته نهات بها كثير من الاوفياء ولم يبق من الناس إلا الذئاب الجياع . وهذا كله واكثر منه كان وابن المعتز يبتسم للدنيا مغرورا فلم يكن يراه ، فلما تفتحت عينه عليه بدا في عينيه ضخما يسد الافاق ويقطع الانفاس ويحرمه الآمال .

ولا يخطر بالبال ان ابن المعتز تقدم كثيرا في السن حين ادرك ذلك ، بل ادركه وهو صبي منذ نفي الى مكة مع جدته صبيحة بأمر صالح بن وصيف مقـــدم الترك ، ومنذ حبس مرة ومرتين عند كل تولية جديدة مخافة ان يتحول الامر اليه . هـذه حوادث تخللت ايامه فكانت ايامه مختلطة لا تستطيع ان تفرد منها قسما بسرور وآخر بأحزان ولكنها كانت ملفوفـة بهما معاً لفا محكما . ولهذا نراه ينطق بالحكمة منذ كان صبيا ، ويفطن لما يدور حوله من حوادث الزمان فيكتم منهـا ما لا قدرة له على اظهاره ويبدي ما يستطيع .

مشيبه

لم تشيّبه السن ، وانما شيبته الهموم في قوله :

شيّبتْني وما تشيبني السنّ ... هموم تترى ودهر مَريد

وقد ادركه الشيب في الصبا وعاجله قبل الثلاثين حيث يقول :

ومشى الشيب قبل عقد الثلاثـ ... ـين فلمـــا انتهى اليها أغذّا

وقد كاد يُغفل امره اغترارا بصباه ، ولكن ساعات سروره نبهته على بوادره حين أومأت اليها عيون الغواني فابتدأ يدافعهن بقوله :

رأت طالعا للشيب اغفلت امره ولم تتعهده اكف الخواضب
فقالت اشيب ما أرى؟ قلتُ شامة فقالت لقد شانتك عند الحبائب

فلما اغذّ الشيب سيره وفشا احتال عليه بالخضاب ولكنه غلبه فاتقد واشتعل ، فألح في المدافعة والمغالطة والاحتيال وكان يقول :

يا هند ما شاب الفتى وإنما شاب الشَّعَرْ

فإذا نصل الخضاب وبان تحت سواده الصباح عاد اليه فقال :

وقالوا النصول مشيب جديد فقلت الخضاب شباب جديد
إساءة هـذا باحسان ذا فإن عاد هـذا فهذا يعود

وكان ابن المعتز في كل هذا يعلم انه يخادع الناس كلما استطاع ان يخدع نفسه ويزور عليها ، فلما دب الشيب في لحيته لم يبق بد من ان يعلن انه لم يعد مخدوعاً ، وبدأ يتهكم بنفسه قائلًا :

ولحيـة كأنهـا غراب زوّرها التسويد والخضاب
اذا تبدت ضحك الشباب

وكذلك لم يبق بدّ أن يدخل في زمرة من انتصحوا بالشيب وهجروا التصابي وحلموا ويئسوا واقصروا ، يبين ذلك في امثال قوله :

مات الهوى مني وضاع شبابي وقضيت من لذاتـه آرابي
واذا رأيت تصابياً في مجلس فالشيب يضحك لي مع الاصحاب

وقوله :

تولى العمر وانقطع العتـاب ولاح الشيب وافتضح الخضاب
لقد ابغضت نفسي في مشيبي فكيف تحبني الخود الكعاب

وله بعد ذلك في الشيب صفة عجيبة ذهب فيها مذهب المكثرين من المحدثين ترفعه الى صفوف البحتري وابن الرومي وابي دلف ومسلم بن الوليد وابي تمام وكشاجم وابي العتاهية ، فهو يحسن مثلًا وصف اللمة المخضوبة حين يزول خضابها ويظهر بياضها فيقول :

مسودة لها خضاب أبيض نام الخضاب والشباب يربض

وحين يقول في ذم الشيب :

قل لمشيبي اذ بدا وابيضّ مني المفرق
يا فضة حليتها لكنها لاتنفق
ويانهارا لايرجي صبحه من يعشق
لا مرحباً لا مرحباً انت العدو الازرق

عتابه

ولم يقصر ابن المعتز عتابه على ناحية ، فعاتب الاهل والصحب واهل المودة والمروءة والزمان والاقدار ، عاتب هؤلاء جميعاً وكرر عتابهم حتى مل العتاب ويئس من عودة الود ورجوع النعيم ، وكان كلما جدت به الحاجة والعزلة واسرع به العمر رأى الموت ادنى من كل امل دانٍ فقال :

يدعو الى الامل الفتى والموت اقرب منه جانب
ينبو على طول العتا ب فقد مللت ومن اعاتب

ولقد تفتقت له معاني العتاب فضرب فيها بسهم ، ومن اروع ما عاتب قوله لصاحب له استغنى عنه ببستانه :

اتعمر بستاناً زكا لك غرسه وتخرب وداً من خليل موافق
فأعجبه كرم يروق نباته واعذاق عيدان رواء الحدائق
يقيل الحمام الورق في شجراته فمن هادر يدعو الاناث وصافق
وجياشة بالماء طيبة الثرى تفور على ايدي السقاة الدوافق
وما ذاك الا خدع دنيا وزخرف واسباب انفاق لمالك ماحق
لعلك في الارض التي لك واجد بنا بدلا ! كلا ورب المشارق

وهل كان لمثل ابن المعتز ان يقف امام عمال داره حين هدمها السيل يراقبهم وتسفع الشمس وجهه ولا معين له من اهله ولا اصحابه حتى يقول :

الا من لنفسي واحزانها ودار تداعت بحيطانها
اظل نهاري في شمسها شقياً معنّى ببنيانها

ولا احد من ذوي قربتي — يساعدني عند اتيانهـا
أسوّد وجهـي لتبييضها — واهدم كيسي لعمرانها

زهده

وكذلك لم يكن ما ورد في شعره او نثره من زهد وليد الاربعين او ما بعدها ، ولم يكن وليد الثلاثين كما كان الشيب ، ولكنه ورد في شعره مذ قاله صغيراً لتقلب احواله ، فوردت حكم الحياة وحكم الزهد في شعره ونثره عفو الخاطر غير متكلفة ولا مقلدة ، وانما كانت نتيجة آلامه وتجاربه وتقييده الخواطر والمشاهدات * وفطنته لما يدور حوله من الحادثات وخوضه غمار الكلام مع المتكلمين من أهل المذاهب ، وتأثر عقله بالدراسات المستفيضة المختلفة الاتجاهات ، والفلسفة الدخيلة في ارض العراق — رضي بها ام لم يرض — وقد دعا العصر العباسي الشعراء والكتاب والفقهاء الى الافراط في هذا النحو من الكلام وتزهيد الناس في الدنيا لاقبالهم عليها وعلى مادتها وملذاتها اقبالاً شاملاً عنيفاً صورنا جانباً منه حين تحدثنا عن الخمر والغناء .

وقد نضجت حكمه مبكرة فلما كبر زاد عليها اقبالاً ، وليس أصهر لقلب الشاعر من نقلة من الصبا وتذكر عهده ونظرته للهرم يدنومنه فيروعه ، فيقف محتاراً بين ماضيه ومستقبله يقلب الطرف الى ذاك ويرده على هذا فيهش مرة وتتغضن اساريره اخرى ويضحك ويبكي ثم يذكر الماضي بخير كأنه يفخر ويذكر المستقبل من الخوف بخير ولكنه ذكر اليائس المستسلم ، وما اقدر ابن المعتز حين صور نفسه في هذه الوقفة المتحيرة وقد رأى الدنيا مولية فقال مرتجزا :

يا رب ليل اسود الذوائب — سريتـه بقلص نجـائب
حتى نهته زهرة الكواكب — وصغت العقرب للمغـارب

---

* سنوفي هذا البحث عند الكلام في نثره.

بذنب كصولجــان اللاعب قد ملىء الزمان بالعجائب
وارتفع المنسم فوق الغارب عد بالكفاف من رجاء كاذب
واقعد فقد أعذرت في المطالب

وانه ليرى الموت مقبلاً لا محالة، ويرى ان انفراده عن الاهل والصحب والاوفياء ليس الا طريقاً يدلل الى انفرادٍ اكثر سكوناً وانقطاعاً هو الانفراد في مضجع القبر فيقول :

آه من سفرة بغــير اياب آه من حسرة على الاحباب
آه من مضجعي فريداً وحيداً فوق غرش من الحصا والتراب

وانه ليروّعه ذلك الانفراد وذلك التقاطع الذي بين الموتى على فرط ما ازدحموا وتكاثروا فيصف ديارهم قائلاً :

وسكان دار لا تواصــل بينهم على قرب بعض في التجاور من بعض
كــأن خواتيا من الطين بينهم فليس لها حتى القيامة من فض

وكيف لا يبرم بالدنيا واهلها وقد زايلتها اصوله قبله ولم يترك له بها أخاً ولا فرعاً حيث يقول :

سكنتك يا دنيا برغمي مكرهــاً وما كان لي في ذاك منع ولا امر
وجربت حتى قد قليتك خــبرة فانت وعاء حشوه الهــم والوزر
فان ارتحــل يومــاً أدعك ذميمة وما فيك من فرعي غراس ولا بذر

واذا كان قد تأثر بالفلسفة في هذه الابيات فتأثره بها في الابيات الآتية اكبر :

ذمتك يا دنياي مدحُ نفسي أقللت زادي واطلت حبسي
غداً امانيّ وبــأسي أمسي واليوم من مــآتم وعرس
لا افقد الوحشة عند الانس طوبى لثاوٍ تحت ترب الرمس

لا يعرف الهمّ اذا ما يمسي

وها هوذا الماجن المقصي المأمور من الخلفاء بالاعتدال ينقلب في بعض الاحيان متنسكاً أواها ينادي الله في جوف الليل قائلاً :

مسهد في ظلام الليـــل أوّاه | عضته للدهر أنيـــاب وأفواه
ان كان يخطىء حظي ما أقدره | فليس يخطىء ما قد قدّر الله

ويقول :

سأكتم حاجاتي عن الناس كلهم | ولكنها لله تبـــدو وتظهر
لمن لا يرد السائلين بخيبـــة | ويدنو من الداعي فيعطي ويكثر

فاذا ذهبت الدنيا مبغضة كما وصف ، وجائرة كما شاهد ، فليس بعدهـــا الا العدل الذي يلي الجور ، والحياة الآخرة التي تديل له من الدنيـا ، فهو يسلم أمره لله راجياً أن يفوز بعدله حيث أخطأه هنا عدل البشر فيقول :

رب أمر تتقيـــه | جر أمرا ترتجيـــه
خفي المحبوب منـه | وبدا المكروه فيـه
فـاترك الدهر وسلمـــه | الى عـــدل يليـه

وفي مثل هذا الكلام تظهر نزعة ابن المعتز الدينيـة ظهوراً واضحاً ، هي نزعة نقية طاهرة من كل ريب وشك ، فهي خالصة لله مهما اقترفت من سوء وارتكبت من صغائر ومنكرات .

حكمه

أما الحكمة في شعره فقد ملأت جوانب ديوانه ، وقلما تخـلو قصيدة من حكمة له في الحياة او نظرة فلسفية فيها ، يتخذها حيناً في صورة الوعظ والنصح ، وحيناً في صورة الحقيقة المجردة ، فتجري أبياته الـــتي تحوي تلك النظرات مجرى الامثال .

ونحن نعده لأكثاره في هذا الباب أحد حكماء الشعراء ، وننزله في الطبقة العليا منهم ومنها قوله :

ويا رُبّ السنة كالسيوفِ | تقطع أعناق أصحابهـــا
وكم دهي المرء من نفسه | فـلا تؤكلن بأنيابهـــا
فان فرصة امكنت في العدو | فلا تَبدَ فعلك إلا بهـــا

فان لم تلج بابَها مسرعاً أتاك عدوك من بابها
وماينتقص من شباب الرجال يزد في نهاها وألبابها

ومما جرى له مجرى الامثال :

ما إن أرى شبهاً لها فيما أرى أم الكرام قليلة الاولاد

....

يموت الفتى من عثرة بلسانه وليس يموت المرء من عثرة الرجل

....

وهـل يروع بازيـاً زَقْوُ أفراخ القطا *

---

* اختار له البارودي جملة صالحة منها في مختاراته .

الأراجيز

قبل العصر العباسي

قطـــع العرب الاراجيز قصيرة في العصر الجاهلي ، فلما كان عصر المخضرمين أطال الاغلب العجلي فيها ، ثم تبعه الامويون فأطالوا اراجيزهم وتناولوا بها اغراض الشعر ولا سيما المدح والوصف ، والوصف اخص . وسلكت الاراجيز الاموية مسلكا وعر الالفاظ ، فرميت الارجوزة بضعفها عن ان تبلغ مقام القصيدة ، ورمي اصحابها بقصورهم عن بلوغ مقامات الشعراء ، وقد عف عنها قوم ، وتخصص لهـــا آخرون فسموا بالرجاز كرؤبة والعجاج وابي النجم ودكين بن رجاء وذي الرمة .

والحق ان الارجوزة — ولا سيما ان طالت — تجـــبر الراجز ان يصطنع البيوت او المصاريع لالفاظ القافية ، وان يقتصد من حريته في الذهاب وراء المعاني اقتصاداً كبيراً ، لان الراجز ما يكاد يذكر في شطر الارجوزة « مستفعلن » مرتين حتى يضطر ان يأتي بالقافية في التفعيلة الثالثة ،

وفي لفظتين وثالثتها لايستطاع ان يؤتي بالابداع كما يتيـــح البيت في القصيدة للشاعر ، وخصوصاً ان كان من وزن طويل .

وانا انما اتحدث الآن عن الارجوزة المصرعـــة ذات الروي الواحد لا التي يتعدد حرف الروي في قوافيها ، والارجوزة من هـــذا النوع لا تصبر على الاستيعاب ، حتى الراجز المطبوع على الشعر كالشمّاخ يتعذر عليه الاستمرار في رويّ الفاء في ارجوزته :

لم يبق الا منطق واطراف

فيتركها بعد ثلاثة ابيات ويرتجز في القاف استخفافا لها ، اما صانع الرجز فيقدر مع فسحة الزمن ان يطيل ،ولكن لا بد له ان يتنقل بأبياتها سريعاً الى معانٍ جديدة ويثب من موضوع الى موضوع حتى يعثر على القافية المرجوة ، ولعلك تجد ذلك واضحاً في اراجيز الامويين . فذو الرمة في ارجوزته التي مطلعها :

ما هاج عينيك من الاطلالِ المزمنات بعـــدك البوالي

يجعل عمودها الفقري بكاء الاطلال ، يبتدىء به ويعود اليه في اثنائها ، ولكنه يتنقل فيها الى وصف بقر الوحش ونجم الثريا وعادات العرب ازمان اجتماعهم وتفرقهم ، ويصف المطر والابل عليها الهوادج ، والصحراء واعلامها وسرابها ، والركبان والقطا والذئاب والصبـــح والخمر وبعض الامكنة والصيد والكلاب ، ويضطر مع الاغراب في هـــذا الجمع بين الاشياء الى الاغراب في الالفاظ ، وكان هيـام ذي الرمّة في الصحاري والفلوات يضطره الى وصف ما يرى في ألفاظ خشنـــة مسئمة يعوزها الشرح الطويل .

ولم ينج من الاغراب الا نفر قليل ، وذلك حين يقصرون كما اقصر جرير في أرجوزته التي يمدح بها الحكم بن ايوب الثقفي ابن عم الحجاج وعامله على البصرة اذ يقول :

أقبلن من ثهلان او وادي خِيَمْ على قلاص مثل خيطان السلم

قد طويت بطونها على الأدَم اذا قطعن علماً بدا علم
يبحثن بحثاً كمضلات الخدم متى تناهين الى باب الحكم
خليفة الحجاج غير المتهم في ضئضىء المجد وبحبوح الكرم

في العصر العباسي

اما في العصر العباسي فقد اكثر الشعراء من الرجز ، ولم ينفصل اسم الراجز عن الشاعر ليدلوا على علو كعبهم في نسج الشعر من كل بحوره وصوره وقيوده وقوافيه ، ولكنه جاء مطبوعاً بطابع الحضارة ، فسهلت فيه الالفاظ وحسنت فيه المعاني وكثر فيه الافتنان .

والقارىء لارجوزة عباسية كأرجوزة بشار :

يا طلل الحي بذات الصمد بالله خبر كيف صرت بعدي

او لارجوزة لابي تمام في وصف الغيث :

لم أر عيناً جمة الدءوب تواصل التهجير بالتأويب

او لارجوزة للبحتري في وصف سحابة ماطرة :

ذات ارتجاز بحنين الرعد مسفوحة الدمع لغير وجد

او لارجوزة (العُماني) في (الغضبان) فرس المهدي حين جلى في حلبة السباق :

قد غضب الغضبان اذا جدّ الغضب وجاء يحمي حسباً فوق الحسب
من إرث عباس بن عبد المطلب وجاءت الخيل به تشكو التعب
له عليها ما لكم على العرب

يرى رقة ألفاظها بالنسبة لاراجيز الامويين مهما بقي بها من الغريب . بل لعله يكون أجلى للقارىء والموازن ان يقرأ وصف البازي في رجز الامويين لذي الرمة ووصفه لاحد شعراء الطرد من العباسيين ككشاجم مثلاً فينجلي له الامر وتتضح السبيل :

وفضلا عن ترقيق العباسيين للرجز فقد هلهلوه فصيروه جزءاً جزءاً مستفعلن مستفعلن ، واول من عمل ذلك ، سَلْم الخاسرُ تلميذ بشّار يمدح

موسى الهادي اذ قال :

موسى المطر غيث بكر ثم انهمر ألوى المرر
كم اعتسر وكم قدر ثم غفر عدل السير
باقي الاثر خير وشر نفع وضر خير البشر
فرع مضر بدر بَدَر لمن نظر هو الوزر
لمن حضر والمفتخر لمن غبر

ثم تبعه الشعراء في هذا التجزيء فمدح احدهم المعتضد بارجوزة منها هذه الابيات :

هو العلم والمعتصم خير النسم خالا وعم
حوى الهمم وما احتلم طود اشم سمح الشيم
جلا الظلم كالبدر تم رعى الذمم حمى الحُرم
له النعم مع النقم والخير جم اذا ابتسم
والماء دم اذا انتقم

وفي هذا التجزيء تضعف المعاني ضعفاً ظاهراً ، بل تصاب بالسخف والسماجة من كثرة التكلف والبحث عن الالفاظ السهلة والقافية المطلوبة ، على حين يعدم الشعر معنى طريفاً او مقبولا .

وكانت الارجوزة تقصر فتصير مقطوعة تعبر مسرعة عن معنى مركز فتحلو وتنصع فكرتها ، وكانت تطول فيفرغ فيها الشاعر باله وجهده تليناً وتحسيناً فتأتي كذلك مستساغة الالفاظ دالة على العصر العباسي ومكان الحضارة منه ، الا انها لم تبرأ قط من الاغراب لطبيعة الأرجوزة كما قدمنا وقد صدقوا حين قالوا إن الأراجيز موطن الغريب من كلام العرب. ووصف المرئي والواقع من طبيعة الأرجوزة أيضاً ، وقد قيلت اكثر ما قيلت في العصر العباسي في المدح وغيره ، وبرع فيها بشار وابو نواس وابو تمام وابن الرومي وابن المعتز وغيرهم ، وكان اكثر هؤلاء براعة فيها واكثاراً من قولها الشعراء الذين خرجوا في

الطرد وراء الصيد على جيادهم وفي صحبتهم الطهاة والبزاة وطلاب الصيد في اجمل الرحلات ، واكثرهم جميعاً ابن المعتز .

طرديات ابن المعتز

وابن المعتز قد ارتجز في كل غرض : في الغزل والمدح والشكوى والعتاب والهجاء ، ولكنه كاد يلزم الارتجاز في الطرد كل اللزوم لان الطرد من الوصف ، والرجز يوافقه .

ويحاول ابن المعتز ان ينسج اراجيزه سهلة فتطاوعه هذه السهولة في الاراجيز التي تتغير قوافيها . ولكن طبيعة الارجوزة المصرعة تأبى عليه تلك السهولة فتحمل اغرب الفاظ شعره .

ولقد ولع في اراجيز طرده بافتتاحات ذي الرمة بقوله : وقد اغتدي «ولقد غدوت» وأكثرُ منها حتى صارت طابع اراجيزه في الطرد. ومن ابتداءاته :

قد اعتدى والليل في مآبه ــ قد اغتدى والصبح في المشيب ــ قد اغتدى والليل كالغراب ــ قد اغتدى في نفس الصباح ــ قد اغتدى على الجياد الضمر ــ قد اغتدى قبل غدو بغلس ــ قد اعتدى بصبح ليل فاش ــ قم صاحبي نغدو لجيش الوحش ــ قد اغتدى والليل قد تقضى . . . . .

ولا ريب فقد تأثر ابن المعتز بذي الرمة في الطرد لانه استاذه في وصف الفلوات وما فيها من وحش وطير ، ولكن اراجيزه لم تجزأ مهلهلة فتسقط ، وانما حافظت على مكانتها فكانت اروع شعره وادق وصفه .

وكان لا بد لهذا السابح على متن جواده او فرسه او على سنام ناقة بطلب الصيد ــ من قوس وسهم ، وسيف ورمح ، وكلب وباز وصقر ، يرسل كلاً منها وراء الطريدة ، وكلٌ يعمل عمله فيها ، ويقف هو مترقباً ليصف كل ما يراه من صغير وكبير وقريب وبعيد ، وكأن شعره عدسة المصوّرة الصافية يزاح عنها الغطاء فتنقل ما ترى كما هو ، ويزيده الاسلوب والخيال والوزن جمال الوان وبراعة فن وحسن انغام .

والارتحال للطرد يكون قبل الغدوة والليل لم يزل مرخياً قناعه والضوء

لم ينتشر بعد ، او في الغدوة ولما يبتسم الصبح الا ابتسامة غامضة ، ثم يربض للوحش حتى تجتمع كالجيش وتتكتب ، ولأسراب الظباء وقد أمن وتطاولت اعناقهن الى الشجر ليأكلن من اوراقه ، وللطير حين تهبط الى الثرى الرطيب او على وجوه الغدران وهي ساكنة ، اذ الطير لا تسقط الا على ساكن ، فاذا بذين انقضت عليهن الخيل انقضاض الصواعق وترامت الاسهم ترامي الاقدار ، وطارت وراءها البزاة والبواشق والصقور والكلاب يأتي كل منها بما قدر عليه ، وكلهن قوادر يأتين بكل ما سبحن وراءه لا يفلت منهن صيد .

اما الفرس التي تفترس الارض بسرعة مشيها فكالطائر لا يعوقها غدير ولا ضحضاح عن ان تجري جريتها ، وتظل في نشاطها على سنّتها ، وقد يغتدي بالناقة المزيلة كما يغتدي بالجواد . واما البازي فاسرع من اللحظ وأهوى من الماء المنحدر ، يركض في الهواء ركض الطّرف في الفضاء *

---

* البازي جمعه بزاة ويقال للبزاة والشواهين وغيرها مما يصيد صقور ، ولفظه مشتق من البزوان أي الوثب ، وكنيته أبو الاشعث وأبو البهلول وأبو لاحق ، وهو من أشد الحيوان تكبراً وأضيقها خلقاً ، قال القزويني في عجائب المخلوقات : قالوا : إنه لا يكون الا أنثى وذكرها من نوع آخر كالحدأ والشواهين ، ولهذا اختلفت أشكالها، وهو خمسة أصناف : البازي والزرق والباشق والبيدق والصقر .

والبازي أحرها مزاجاً لأنه قليل الصبر على العطش ومأواه مساقط الشجر العاليـة الملتفة والظل الظليل وهو خفيف الجناح سريع الطيران ، وإناثه أجرأ على كبار الطير من ذكوره ، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيهما . ودونـه الازرق الأحمر العينين ، والأصفر دونهما ، ومن صفاته المحمودة أن يكون طويل العنق عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين شديد الانحراف الى ذنبه ، وأن تكون فخذاه طويلتين مسرولتين بريش ، وذراعاه غليظتين قصيرتين ، وفرخ البازي يسمى غطريفاً .
ويضرب بالبازي المثل في نهاية الشرف : فيقال : وكم طير يطير ولا كباز .

وأما الباشق فاعجمي معرب وكنيته أبو الآخذ وهو أيضاً حار المزاج يغلب عليـه القلق ، يأنس وقتاً ويستوحش وقتاً وهو قوي النفس ، فاذا أنس منه الصغير بلغ صاحبه من صيده المراد ، وهو خفيف المحمل ظريف الشمائل يليق بالملوك أن تخدمه لأنه يصيد أفخر ما يصيد البازي من الدراج والحمام والورشان ، وهو إذا قوي عليه صيده لا يتركه

وأما الباشق فقد عشق الموت ، وهو يمر كالسهم المصيب لا يتقيه هاربٌ بغوث ، يعجل الطير ان وسخ ويلحق به ان طار .

وأما الكلاب فضمّر سلوقية * قد علمها المكلّب كيف تعدو كلما مثلت العدو طائرة كالفراش ، بل كيف تسبق الريح ، ويعلمها وهي شديدات البطش ألا يسفكن الدم كما أبيح للبزاة ، وانما يعلمها كيف تمسك بالصيد مشفقة عليه ان يجرح منهـا او ان يهرش او يخدش ، وكيف لا تمنعها قرون بقر الوحش ، وهي أشبه شيء بالمعز الاهلية ، عنها وعن اولادها حين تطيف بها ، وقد لا يفوتها ظبي ولا حمار وحش ولا ثور ولا وعل .

وأما السهام فمن الطين قد دام عليها صناعها فمهروا فيها ، واشبه بعضُها بعضاً في الشكل والحجم ، اذا انطلقن كن كالشرر المطير يصبن القلوب والصدور والنغور ، او الأظلاف أو القرون ، كما شاء الرامي ، وكأنما ترميها يد القدر لا ايدي البشر .

حتى اذا جيء بالصيد وجمع ، ذبح واطعم الصحب من لحمه شواء غضا ، وشرب عليه العقار والمدام ، وحملت بقيته الى سامرا أو بغداد ليفرق هدايا في الاصحاب والاحباب .

اصطحب ابن المعتز كل اولئك في طرده ثم وصفهن واعمالهن وصفاً دقيقاً ، فوصف البازي ومقلته وحدتها وصفاً منقطع النظير فقال :

ذي جؤجؤ محبّر موشى ومقلة تلحق بالقصيّ

إلا أن يتلف أحدهما .

وأما البيدق فضعيف لا يصيد إلا العصافير وربما فرت منه . والصقر الطائر الذي يصطاد وهو الاجدل وكنيته أبو شجاع وأبو عوان ، ومنه ما هو أخف من البزاة جناحاً ، ويصيد أشياء من صيد الماء ، ويعجز عن الغزال ، ومن أنواعه البؤبؤ الذي يسميه أهل مصر الجلم .

* نسبة الى سلوق وهي بلد باليمن واناثه اسرع تعلما من ذكوره .

وقال في قدرته على صيد ما يريد :

بأنسُرٍ مثل السنان المختضب　　قد وثق القوم له بما طلب
فهو اذا عزّي لصيد فاضطرب　　عزّوا سكاكينهمُ من القرب

وقال في البازي وما أروعه :

يطارح النظرة في كل أفقْ　　ذي منسر أقنى اذا شك خرق
مختضب في كل يوم بعلق　　ومقلة تصدقه اذا رمق
كأنها نرجسة بلا ورق　　مبارك اذا رأى فقد لحق
يسبق ذعر الطير من حيث انبرق　　حتى يرون الموت من قبل الفرق

وقال فيه ايضاً :

ويذعر الصيدَ ببازٍ أقمر　　كأنه في جوشنٍ مزرّر
ذي مقلة تسرح فوق المحجر　　ومنسر عضب الشبا كالخنجر
تخاله مضمّخاً بالعصفر　　وشامة كالحاجر المدوّر
وجؤجؤ منمّم محبّر　　كأنه رق خفي الاسطر
وذنب كالمنصل المذكر　　وقبضة تفصل ان لم تكسر

ويقول في الصقر :

وأجدلٍ مُحكّمَ بالتأديب　　صبّ بكف كل مستجيب
أسرع من لحظة مستريب

ويقول فيه ايضاً :

بأجدل يلْقَنُ نطْقَ الناطق　　ململم الهامة فخم العاتق
ذي مخلب أقنى كنون الماشق　　وجؤجؤ لابس وشيٍ رائق
كأثر الاقلام في المهارق　　او كبقايا الكحل في الحمالق

ويقول في الكلاب السلوقية :

بكلبة سريعة الوثاب　　تفوق سبقاً لحظة المرتاب
لم يُدم صيداً فمها بناب　　حفظاً وابقاء على الاصحاب

ويقول في سرعتها :

تمرح في الاطواق والسيور   تدني وراء القنص المذعور
تسمية الله من التكبير

ويقول في سعة أشداقها :

كأنها في حلق الاطواق   ضواحك من سعة الاشداق

وما الرحلة الى الصيد تحت جناح الليل المسود كخافية الغراب مع الفتية البطارقة الغطاريف ، على الجياد المحجلة والافراس تثير النقع ويرعد بعدوها الفضاء وتروع الوحوش ، وقد عدت الكلاب في اطواقها تطوي الارض مع الجياد وقد اتسعت اشداقها ، ومع الفرسان القسي والبندق ، ومع السقاة والخدم البزاة والصقور والشواهين – ما الرحلة بهذا كله الا موكب يثير الخاطر ويهيب بالشاعر ليصف المنظر يلي المنظر والحادث يتلو الحادث . وليس اقدر على الوصف من امير الحاشية الذي يقف من خلفها يراقب ماذا يعمل كل جندي منها كما كان ابن المعتز فيصفها تلك الاوصاف التي قرأت بعضها ويستعصي علينا ان نسردها هنا كلها او ننقي احسنها ، وانما نورد لك رحلة واحدة يصفها من بين تلك الرحلات وفيها كفاية هذا الباب ، قال :

لما غدونا بسحر   والليل مسود الطرر   نأخذ ارضا ونذر
جاءت صفوف وزمر   يطلبن ما شاء القدر   عند رياض وزهر
وهن يسألن النظر   ما عنده من الخبر   فقام رام فابتدر
أوتر قوساً وحسر   اذا رمى الصف انتثر   فبين هاو منحدر
وذي جناح منكسر   فارتاح من حسن الظفر   ومسه حز الاشر
وقلن اذ حق الحذر   وجدّ رمي واستمر   ما هكذا يرمي البشر
صار حصى الارض مدر

هذا ولو شئنا ان نورد ، مثل هذه الأوصاف لهذه الموصوفات في غير الأراجيز لوجدنا شيئا كثيرا مثل قوله في البزاة :

وفتيان غدوا والليل داجٍ   وضوء الصبح متهم الطلوع
كأن بزاتهم امراء جيش   على اكتافها صدأ الدروع

وقال في الناقة في غير اراجيزه :

كأنا عنـــد نهضتها رفعنا   خباءً فوق اطراف الرماح

وقال في الفرس :

ولقد غدوت على طمرّ قارح   رفعت قوائمـه غمامة قسطل

وقال فيها أيضا :

ولقد اغتدي على طَرَف الصبـ   ـح بِطرْف اذا ونى الجري بذّا
طاعن في العنان يستنكر السو   ط مدلا ويأخذ الارض اخذا
واذا ما عـــدا فنار اذاعت   بدخان تهذه الريح هـــذا
بحر شر يشاغب الصخر قرعـا   بصخور وينبـذ الترب نبذا
يصرع العير والشبوب ولا أد   ري أهـــذا اليه أقرب أم ذا

الموشحة

قد نسبوا الى ابن المعتز هذه الموشحة :

ايها الساقي اليك المشتكى   قد دعوناك وان لم تسمع
ونديم همت في غرتـه
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس اليه واتكا   وسقاني أربعاً في اربـــع
مـا لعيني عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
واذا ما شئت فاسمع خبري
عشيت عيناي من طول البكا   وبكى بعضي على بعضي معي
غصن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الاحشاء موهون القوى

كلما فكر في البين بكى ويحه يبكي لما لم يقع

ليس لي صبر ولا لي جلد

يا لقومي عذلوا واجتهدوا

انكروا شكواي مما اجد

مثل حالي حقه ان يشتكى كمد اليأس وذل الطمع

كبدٌ حرى ودمع يكف

يذرف الدمع ولا ينذرف

ايها المعرض عما أصف

قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحب اني مدع

يريدون بنسبة هذه الموشحة اليه ان يردوا للشرق كل فضل في البدء والابتكار، ويتعصبون له على المغرب، ولكنا حين نعرض الامر ونجادل هذا الادعاء يبين لنا الحق من خلال ما نقول ، ولن نهب ابن المعتز اكثر من قدرته وطوله ، ولن نغمط مغرب الاندلس حقه في الابداع والاختراع .

فهذه الموشحة الكاملة لم تُسبق بمحاولات ولا نظم مقطوعات صغيرة من نوعها او قريب منه ، لتفضي بعد عهد الى هذا الكمال ، بل لم تتبع بمحاولات اخرى من ابن المعتز ولا من طبقته حتى نحكم بانها له ونقطع بهذا الحكم او ننسبها للمشارقة على الوجه الاقل .

على اننا اذا قلنا ان ملكة الشرق كانت ناضجة في ذلك العصر نضجاً لا ضرورة معه الى محاولات صغيرة تتدرج بالصغير الى الكمال ، وادعينا انه في القدرة ان تقال الموشحات الكاملة الطويلة بادىء ذي بدأة احتجنا في تأييد هذا الرأي الى موشحات اخرى غيرها تشيع شيوع المخمسات ، ولكننا لم نجد قط ، فالظاهر ان بعض الادباء نسبها للمشرق والى من تشبه ويشبهها ، ووجد في حرية ابن المعتز في مذهبه الشعري ما يقبل

هذه النسبة فنسبها اليه ليكون كلامه اكثر قبولاً ، ولان المغرب مولع بالمشرق ، وكل مـــا يصدر عنه يقلده فيه حتى الاسماء والكنى والالقاب وترجمة كتب الفرنجة الاوائل .

ولماذا لم تتواتر روايتها لابن المعتز وهـي حدث جليل في الشعر اولى بالكلام والضجيج ؟ ولم لمْ يتحدث عنها ابو الفرج في اغانيه وهي اقرب الشعر اتصالاً بفنه الغنائي واقرب الاحداث الادبية من عصره ، وهو يتعصب لابن المعتز ويدافع عنه ويشهر فضله ويعدد مناقبه ؟

على اننا لو سلمنا جدلاً بانها لابن المعتز لاضطررنا ان ننسبها اليه في شبابه ، ولو كان هذا من انتاج الشباب وهو شبهه فلماذا لم يعاود الصنعة مع لياقتها بالغناء ، وقد اعتاد ابن المعتز ان يعاود ما ينسجه فيجيء بمثله مرة واثنتين وثلاثا ؟

وهناك في طبيعة الاختصاص بفن في نظر اهل المعرفة ما يثبت انها ليست له ، وذلك انه قلما يخلو واحد من الشعراء المجيدين او الكتاب من الفاظ يديرها في شعره او معان تحلو له او تعلق بنفسه فيكررها ، او اساليب تروقه فيعيدها ، والموشحة خلو مما اختص به ابن المعتز من معان ، ولا تتصل بفنه في النسج وادب الشرب والغزل ، ومثله لا يقع في التكرير الكثير الذي كان للفظة بكى ويبكي والبكا في فقرات قريبة من الموشحة وكذلك للفظة عشيت .

وسذاجة المعاني وخلوها من الترتيب والتعليل وتنقلها السريع من فكرة الى فكرة يدل على انها من صنعة العصر الاول الاموي في الاندلس لا صنعة المشرق في عصر ابن المعتز ، لان الشرق كان قد اولع بالترتيب والدقة والتعمق واولع ايضاً بالصنعة والبديع .

ولقد أتاحت السعة لابن المعتز ان يضيق على نفسه في الاسلوب الشعري أحياناً فيرتجز ملتزماً قافية واحدة في الارجوزة ليدل بهـذا الالتزام على سعته اللغوية ومقدرته الشعرية ، وطالما تحرر من هذا المضيق فخرج عنه

وعن قيود الرويّ في قافية القصيدة الى الارجوزة ذات القوافي المتعددة والى القافية المطلقة فأتى في بحبوحة هذه الحرية والانطلاق بالشيء الكثير وذلك في مثل وصفه السحابة الممطرة التي يقول فيها :

وسارية لا تمل البكا جرى دمعها في خدود الثرى

وقصائد له أخرى في الشكوى والهجاء والعتاب والوصف ، ولكن لا أظن حرية التجديد قد وهبت لشعراء المشرق في ذلك العصر ان يخرجوا على التقليد لدائرة الشعر العامة عندهم ، ولا هم فكروا في الخروج عن تقليدهم – والشرق من طبيعته المحافظة على التقاليد – ولا اظن التفنن في الغناء ونغماته والحانه بلغ الحد الذي بلغه في الاندلس فتدعو الحال فيه الى ابتداع الموشحات كما ابتدعت في قطر الاندلس .

الذوق الغنائي

وكان السبب في ابتداع الموشحات بالاندلس تلك الطبيعة الموهوبة جمالاً فريداً ، والمعيشة الغارقة في الترف والغنى ، واقبال العامة على اللهو والاستمتاع ، وامتزاج الذوق العربي بالقوطي والفرنجي امتزاجاً شديداً ، وطبعُ المغرب الذي لا يتمسك بالتقاليد ، كل اولئك كان سبباً في ان تتغير حال العرب في المغرب عنهم في المشرق ، وان يخضع الشعر للغناء ويُسبق به ، وان تتغير الطريقة المشرقية في خضوع الغناء للشعر وتبعيته له .

كان المشارقة يهتمون اولاً بالانشاء ثم بالغناء فكان الشاعرُ ينشد في المعنى اولاً ثم يؤمر المغني فيضع في الشعر صوتاً ويغني فيه لحناً ، وحين ذلك يسبق الانشاء الغناء ، والغناء يتبعه ، واليك المثال :

شخص اسحق الموصلي الى الواثق بسرمن رأى واهله ببغداد فتصيد الواثق وهو معه الى نواحي عَكبراء فلما قرب من بغداد قال :

طربت الى الاحيبة الصغار وهاجك منهم قرب المزار

وكل مسافر يزداد شوقاً   اذا دنت الديار من الديار
ولحنه وغناه الواثق فاستحسنه واطربه فصرفه الى بغداد على ما احب..
وكان اسحق قال اولاً :
وكل مسافر يشتاق يوماً   إذا دنت الديار من الديار
فعابوا قوله يوماً وقالوا هي لفظة قلقة في هذا الموضع لم تحلّ بمركزها ولا لها هنا موقع ، فغيرها الى ما انشدت اولا . ومن هذا ترى أن الشعر ينشد ثم يعرض على النقد فيصلح ثم يغنى فيه .

ومما حكى ابو الفرج في اخبار ابن المعتز قال : حدثني جعفر بن قدامة قال : كنا عند ابن المعتز يوما وعنده نشر وكان يحبها ويهيم بها ، فخرجتْ علينا من صدر البستان في زمن الربيع ، وعليها غلالة معصفرة وفي يديها جُنابي باكورة باقلا فقالت له : يا سيدي تلعب معي جنابى ؟ فالتفت الينا وقال على بديهته – غير متوقف ولا مفكر – :

فديت من مرّ يمشي في معصفرة   عشيةً فسقاني ثم حياني
وقال تلعب جُنابى ؟ فقلت له   من جاد بالوصل لم يلعب بهجران

وأمر فغني فيه . قال ابو الفرج : غنت فيما أرى فيه هَزَار لحنا ، وهو رَمل مطلق .

هذان مثلان لما كان يحدث في الشرق من إنشاد الشعر ثم غنائه ، يتلذذ اولا بالشعر وفنه ، ثم يتلذذ بالغناء ولحنه .

أما الموشحة فدون القصيدة في الانشاد ، فلا تبلغ من نفس السامع اذا أنشدت ما تبلغ تلك ، لكثرة القلق الناشيء من تنقل الموشحة بين القوافي المختلفة ، فكانت احدى مخلوقات الغناء . وكان المغاربة أكثر اهتماماً بالغناء من الانشاد اذ نقلوا فنون الايقاع ونغمه من المشارقة وزادوا غناءهم جلبة وتطريبا ، وطما منه بأشبيلية بحر زاخر – على ما قال ابن خلدون – . وقد تصارع في ارضهم الوزن والنغم ، كل منهما يريد غلبة اخيه ، وساعدت البيئة النغمَ ، وسرعان ما خضعت أوزان الشعر

لنغمات الغنـاء ، وصار على الشاعر ان يصوغ شعرا يطابق اللحن لا أن يضع لحنا في شعر ، فرأى الشعراء – وقـد كانت أمزجتهم وأذواقهم قد تحولت مع هذا الحال ، وتغلبت على نفوسهم حياة الترف والمجون ، وقادتهم الى مجـاراة الناس في اذواقهم – رأى الشعراء ضرورة ان يتصرفوا في الاوزان اطالة وتقصيراً وزيادة واقلالا مع خضوعهم لتفاعيله في المشرق ، فتعددت عندهم التقاسيم والقوافي فكانت الموشحات .

وابن خلدون – وهو ممن يعتد برأيه في التأريخ للموشحات لنشأتـه بالمغرب والاندلس وقربه من عصور تأليفها – يؤيدنا فيما ذهبنا اليه وليس في قوله مطعن ، لأنـه جاء الشرق وعرف ادبه وكتب مقدمته وتاريخه ، وكان في فسحة من الزمن ليغير رأيـه او يعدّله لو انه رأى المشرق مصدر الموشحات * وقال الاسكندري : أما الأندلسيون فأدخلوا أوزانا شتى تناسب ايقاع الغناء ونغمه لا لأنهم كانوا أكثر تفننا من المشارقـة في الغناء وصناعـة الايقاع ، بل كأنهم وجدوا ان ايجـاد وزن يناسب النغم اسهل من ايجاد نغم يناسب الوزن ، وتفننوا ما شاءوا في تقسيمه وتقفيته وسموا ذلك موشحات .... إلى انه قال وكان المخترع الموشحات مقدم ابن معافى – نزولا على رأي ابن خلدون .

عود الى ابن المعتز

أما المشرق فـلم يجر فيما جرى فيه المغرب ، وليست الموشحة للشاعر الأمير ، وابن وصف الساقي في هذه الموشحة من وصفه للساقي في قوله :

ألا فاسقنيها قد مشى الصبح في الدجا عقـارا كمثل النار حمراء قرقفا
فناولني كأسا اضاءت بنانـه تـدفق ياقوتا ودرا مجوفـا
ولمـا اريناهـا المزاج تسعّرت وخلت سناها بارقا قـد تكشفا
يطوف بها ظبي من الانس شادن يقلب طرفا فاسق اللحظ مدنفـا

---

* مقدمة ابن خلدون في فصل « الموشحات والازجال للاندلس »

عليـــم بأسرار المحبـــين حاذق بتسليم عينيـــه اذا مـا تخوفـــا
فظـل يناجيني تقلب طرفـــه بأطيب من نجوى الاماني والطفـا

والقطعة تحتشد فيها القوة وضجيج الالفـاظ وكثرة الاستعارات كمذهبه الذي بيّنّاه .

النقد والبلاغة

الشعر ديوان العرب

ورث القرن الثالث الهجري اصلح جملة من اللغة العربية الخالصة نثرها وشعرها ، اما النثر فمنه القرآن والحديث وكثير من الرسائل والقصص والتاريخ والجدل ، ومنه الخطب التي عرفها المسلمون ، واما الشعر فما ورث منه كان اضخم من ذلك كله ، ورث منه شعر الجاهلية والاموية وجملة كبيرة من شعر العباسيين الاول ، اعدل ما يقال فيها ان امة من الامم قديمها وحديثها لم ترث من شعرها ما ورثه العرب من الشعر الغنائي في القرن الثالث ، ولذا كان حقاً ما قيل من ان الشعر ديوان العرب ، حتى ولو وقف تياره عند الحدّ الذي بلغه الى ذلك القرن الذي نتحدث عنه .

واذا تفاضل النثر فيما بينه عند العرب ففضل القرآن والحديثُ ما عداهما من الانواع فصارا افضل الكلام ، فان الشعر عندهم فاضل ، حتى ولو جعل

في خدمة القرآن فحسب ، لانه كما قال ابن عباس « الشعر ديوان العرب ، فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه . »

من اجل هذه المكانة للشعر اقبل الناس على دراسة قديمه ولا سيما اهل هذا القرن الثالث ، وقد خصوه بالعناية والتقدير لانه يعتبر بحق ميراث الامة العربية الخالصة والفكرة العربية المحضة قبل ان تتأثر بغيرها من الامم تمام التأثر .

وكان الشعر منذ العصر العباسي الاول قد اتخذ له رتبة غير الرتبة التي كان عليها في الجاهلية والاموية ، فقد كان هؤلاء يقدسونه لأثره وفعله في النفوس ، اما العباسية فقد اتخذته غرضاً يقدس لذاته ، وانتبهت الى صناعة الشعر للشعر وابلاغه حد الكمال الفني كما قلنا من قبل .

وباتت للشعر في هذا العصر غير هذا ظاهرة الشيوع والانتشار فوق ما كان عليه الامر في القبائل واحزاب الامة والملة في العصرين القديمين ، فقد كنت تراه امامك في كل مجلس تغشاه حتى في مجالس الفقهاء والحفاظ وائمة الحديث ، وقال الشعرَ الناضج الخلفاءُ والامراء والوزراء والحكام والفقهاء والعلماء ثم اولاد الصناعات وابناء الطريق والمصابون بالعته والجنون ، ولا تعجب من ذلك فقد قيل ان بزازا نهض من حانوته في نيسابور حين قدم اليها عبد الله بن طاهر عامل المأمون وكان المطر قد انقطع ثم هطل فاستقبل العامل قائلا :

قد قحط الناس في زمانهم حتى اذا جئت جئت بالدرر
غيثان في ساعة لنا قدما فمرحباً بالامير والمطر

ولا تعجب ايضاً حين تعرف ان شاعراً مؤلفا كابي العبر الهاشمي لم تكن في الدنيا صناعة الا وهو يعملها بيده حتى العجن والخبز ، وهكذا شاع قول الشعر ونشط له الناس نشاطاً كبيراً .

قدسية الشعر

وهل ينسى احد مكان الشعر في الجاهلية واثره في النفوس ، وما اظن قدسيته حين ذلك الا شبيهة بقدسية الشعر في الملاحم اليونانية والشعر التراجيدي ، ولم تخلع عن الشعر العربي قدسيته في الملة الاسلامية ، فلم يمنع القرآن على الصالحين من الشعراء شعرهم ، واباح النبي لحسان ولشعراء المسلمين ان يقولوا الشعر في مسجده وعلى منبره ، ونصح عمر بن الخطاب ان يروّوا اولادهم الشعر وان كان قد امتنع عن اعطاء الشعراء ، واعطى عمر بن عبد العزيز الشعراء وهو والي المدينة وادخل عليه جريراً بدمشق في خلافته ، وقال ابن عباس فيه قولته ، فليس بدعاً ان يقبل العرب والمسلمون على الشعر لان الزمن والدولة جعلاه مجداً من امجادهم التي يفخرون بها .

دراسة النقد

ومن قبل القرن الثالث الهجري أقبل المسلمون على دراسة الشعر القديم يحفظونه ويروونه ويحتجون به للقرآن والحديث ، ويحلونه في المكان الاول قبل النثر حتى كاد يصير فنهم الوحيد ، ودفع كما دفع النثر الى طوائف من علماء النحو واللغة والادب والجدل ، فاخذ اللغويون يعللون لصوغ الكلمات على ما صيغت عليه ، ويتعرضون لاصول الكلمات ومآخذها في مضيق ضيق لايتعدونه ، واخذ النحويون والصرفيون يفلسفون اللغة كما فلسف الفقهاء آيات الاحكام والاحاديث والفتاوي ، وكما فلسف المتكلمون العقائد ، واخترعوا كليات القواعد واختلفوا فيها ، كما اخذ علماء الكلام يرتبون الافكار ويقيسون القضايا ويبحثون القول بالعقل ويصلونه بالعلم .

واخذ اهل الادب وجلهم من اللغويين والنحويين يروون الخطب والاشعار ويبذلون جل همهم للشعر ، يبينون حسنه ويوضحون غلطه ويحصون سرقات المعاني ويفضلون السابق بها او الزائد عليها ،

وكل ذلك في جمل قصيرة او طويلة لا تعدو ان تكون دراسة مضطربة ليس لها قواعد جامعة تخضع لها او أصول تبنى عليها، ولم يتخلص اكثرهم من نزعة التعصب والميل مع الهوى، ولم يخضعوا للروح العلمية النزيهة مع تعمق الناس في فهم الادب، والموازنة بين شعر وشعر وبين شاعر وآخر، ولعل همهم جله كان منصرفاً مع ذلك الى ما يتعلق بصورة الكلام وتنسيقه.

ولقد اختص البيان بالنثر فجعله اهم موضوعاته، واختص النقد الادبي بالشعر فجعله أهم موضوع له، وما زال النقد الادبي كذلك حتى بلغ حلبة هذا القرن وعلمائه وادبائه، فاتخذ طريقاً اوسع واشمل، ثم كان ان اتصل النقد الادبي بالبلاغة وامتزجا، ثم اخذ تاريخ الادب ودراسته تعين عليها، ولو استطعنا ان نلخص الاهداف التي بلغها النقد الادبي في القرن الثالث الهجري لراعنا انها هي الاهداف التي نرمي اليهـا في عصرنا، من حيث ما زلنا في شك واضطراب، وذلك العصر في وثوق واستقرار.

ولعلنا نستطيع ان نلخص هذه الاهداف فيما يأتي:

« ان المراد من الكلام البليغ ان يتحرز في معانيه عن النقص والخطأ ويمتاز عن غيره بالفصاحة والسلامة، وأن لا يقاس بمقاييس الذاتيـة فيحمده سامعه لميله اليه أو للفظه الذي يبره او لشرف قائله كما كان يقول الفرزدق:

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

وإنما يخضع لذوق عام وقوانين علمية ثابتة من البلاغة والنقد، فلا يختلف في الحكم عليه اثنان. »

وقد ساعد على قوة ملكة النقد في ذلك العصر – وملكة النقـد أهم خصائص النشاط العقلي – كثرة مجالس المناظرات وما احدثتـه الثقافات المختلفة والاجناس المتباينة والعلوم الكثيرة التي عرفت في القرن الثالث، وفي مقدمة من خدموا فن النقد علماء الكلام *

* زهر الآداب الجزء الثالث صفحة ٢٠.

وهكذا تحوّل فن النقد في هذا العصر الى رجال من طراز جديد ، ممن تهذبوا أكثر مما يتاح لغيرهم ان يتهذب ، على جمهور زاخر من العلماء والادباء والشعراء وعلماء الكلام ، ولم يفتهم ان ينظروا في كل ناحية خطابة وكتابة ونثراً ونحواً ولغة وفقهاً وكلاماً .

ورزق النقد في هذا العصر – كما رزق العلم – رجالاً من الشجعان احرار الفكر وممن اقدرتهم مراكزهم الاجتماعية على ان ينقدوا في قوة وجهر ، وهيئ لهم ان يطاعوا ويُخضع لرأيهم متى أحسنوا ، ومن هؤلاء بشر بن المعتمر صاحب اول صحيفة في البلاغة – على ما يقولون – وثانيهم الجاحظ ، ومن بينهم ابن سلام وابن قتيبة .

ابن المعتز وقدامة

ولكن رقاب الفن اسلمت قيادها آخر الأمر لابن المعتز وقدامة بن جعفر ، وكان علينا ان نتكلم عنهما ، ولكننا ندع قدامة الآن لانه ليس موضوع البحث ، ولانه تأخر فعدّ من علماء القرن الرابع ، ونفرد بطل القرن الثالث بالكلام ، وهو يعتبر حقاً الرجل الذي نضج على يده هذا الفن اول ما نضج بعد بدء ابن سلام ، ومن اهم الاشياء ان نتحدث عن الاسس التي وضعها ابن المعتز امامه لينضج لنا فن النقـــد ، وليضع اول نظام محكم في قواعد بلاغتنا .

(١) كان النقد قبل هذا العصر يكتفي بالكلمة القصيرة او الجملة الطويلة يقف فيها موقف المعجب من الكلام او الساخط عليه ، او يغلب عليه مذهب النحويين واللغويين باخضاعه للمألوف من النظم القديم ، ولكن ابن المعتز ومن على شاكلته رأوا ان ينقد الكلام نقداً علمياً لغوياً ادبياً ، وحبذا لو كان الناقد شاعراً اديباً لان طائفة الشعراء الادباء تحسن النقد ، وهم الذين يهتمون بتيارات الادب في عصرهم ولا يجمدون جمود غيرهم ، وكذلك فعل ادباء ذلك العصر وان لم يتخلصوا من الذوق القديم جملة ،

فانفسح باب النقد في هذا العصر انفساحاً عظيماً ، وخف فيه اثر اللغويين ، وصار علم الشعر ونقده اكثر اتصالاً بالادباء منه باهل النحو واللغة .

(٢) انه جعل اليقين العلمي والحجة اساس النقد ، لا المغالطة ولا الذوق الخاص ، واستند في ذلك الى سوق الأدلة مما روي من قبل في آراء الادباء ، وكان يعقب على آرائهم في بسط وسعة ، وقد ذكر صاحب الموشح له في ذلك احاديث مستفيضة . وقد ساعد ابن المعتز على الانصاف انه تتبع شعر الطوائف والافراد وعرفه منحدراً وصاعداً ومختلطاً او نقياً ، ولم يدع حتى الشعر الرديء الا قرأه ، فعرف المخترع والمزيد والمبتكر والمسروق . قال ابو بكر الصولي — في حديث طويل — : اجتمعت مع جماعة من الشعراء عند ابي العباس عبدالله بن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع تحققاً ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته ، فلم يبق مسلك من مسالك الشعر الا سلك بنا شعباً من شعابه ، وارانا احسن ما قيل في بابه ... ثم قال الصولي : فما احد من الجماعة انصرف من ذلك المجلس الا وقد غمره من بحر ابي العباس ما غاض فيه معينه .

(٣) انه اقام ميزان العدالة في نقد الشاعر ، فلا ينقده ارادة الحط من قيمة شعره ، ولا يتفق عليه مهما قلت سقطاته ، ليعلم ما في المخلوقين من النقص . ونقد الشعر عنده نقد فني محض ، ومن قبل كانوا يزنون الشعر بمقام قائله كما روينا عن الفرزدق ، وكما حكوا ان المبرد لم يكن يحب ابا تمام لأن الحسن بن رجاء كان قد عاشر الطائي واتهمه في دينه لتقصيره عن الصلاة ، فسوأ سمعته عند المبرد ، فلم يتسع صدره مدة طويلة لدراسة شعره ، ولم يصطبر عليه .

(٤) ولم يتحيز ابن المعتز الى جانب ، فلم يكن من المدرسة التي يمثلها ابو العباس ثعلب العالم المتزمت الذي لايعنى الا بشعر زهير والأعشى والنابغة وطفيل والطرماح ، ويمثلها كذلك ابو العباس المبرد الذي ابى ان يدرس شعر الطائي لانه يقصر عن الصلاة . ولم يكن من المدرسة

الجديدة التي يمثلها محمد بن هبيرة المعروف بصعودا والذي لم يكن يُعنى إلا بشعر المحدثين يحفظه ويحتج به ويعرف له فضله .

وقف ابن المعتز من هاتين المدرستين بين بين فان كان في القديم فضل ميزه ، وان كان في الجديد فضل ابرزه ، ولم يقدس القديم على اطلاقه لوقوعه في شبهة الزمان وقدمه ، ولم يترك الجديد لعيوف الناس عنه لقربه ، ولكنه درس كل ما عنّ له من اقوال الشعراء .

وكان قد جدّ على الشعر الجديد من اول العباسية شيء جديد رأوه في شعر بشار ومسلم وابي نواس واشجع وابن الجهم ، فقد شاع مع هؤلاء استعمال البديع ، فوجدت بذلك فتنة لغوية تحرز الناس منها اولا ، ولكنها كانت اصلح ارض للدراسة الجديدة ، واعطى ابو تمام اكبرُ مَخطر بشعره في هذا الباب فرصة عظيمة ومادة غزيرة لحلقات النقد ، وقد اعانت ابن المعتز خاصة على انضاج نقده ووضع اصول قواعده .

واذا تعرض ابن المعتز لشعر ابي تمام لم يهضمه حقه فيما اجاد فيه ، ودافع عنه ونافح ، ولم يغفر له سقطه فأنحى عليه باللائمة في مجالس المباحثة والجدل ، او كتب فيه الرسائل الطويلة المسهبة ، وهو في كل ذلك لا يُفرط في تقديه ولا يحطه عن مرتبته السامية ولا يقصر في مدحه حين يبلغ غاية الاجادة ولا يرحمه حين يبلغ غاية الاساءة .

ويروقك لابن المعتز في ابي تمام خطرات لطيفة في نقده حتى فيما يروع النفوس من شعره ، وتظنه قد بلغ غاية الاجادة فيه كما في قوله يمدح :

تكاد عطاياه يجن جنونها اذا لم يعوذها بنغمة طالب

فيقول ابن المعتز : ولم يجن جنون عطاياه انتظاراً للطلب ؟ يبتدىء بالجود ويستريح . قال ابن المعتز ذلك وامثاله في رسالة طويلة له نبه فيها على محاسن شعر ابي تمام ومساويه ، اورد بعضها المرزباني في الموشح عن الكلام على الطائي ، ومن رسالته تلك في ابي تمام ومدارساته الاخرى

تتضح لنا موازين نقده .

مذاكرة ابن المعتز

يذكر صاحب الموشح ان ابن المعتز كان يحفظ الشعر ويرويه وينقده ويروي نقد الادباء له ، ويعقب عليهم في بسط وسعة ، فيذكر انه روى عيب الناس على امريء القيس قوله :

أغرك مني ان حبك قاتلي وانك مهما تأمري القلب يفعل

قال : وقالوا : اذا لم يغرها هذا فأي شيء يغرها ؟ قال وانما هذا كأسير قال لمن اسره : اغرك مني اني في يديك ؟

ويذكر الموشح عن ابن المعتز انه قال : عيب على النابغة قوله في وصف النعام :

مثل الاماء الغوادي تحمل الخَزَقا

قال : وقال الاصمعي : انما توصف الاماء في هذا الموضع بالرواح لا بالغدوّ ولانهن يجئن بالحطب اذا رُحن .

وَحكى عن ابن سلام او غيره انه قال : مما قدّم به زهير على الشعراء انه كان ابعدهم عن سخف ، واشدهم اجتناباً لحوشيّ الكلام ... ثم اورد ابن المعتز لزهير كلاماً حوشيا وآخر سخيفاً ، وقال : فأي شيء نصنع لهذا ؟

ولقد قرأ شعراً رديئاً جداً لمتوّج احد شعراء آل ابي حفصة فلم يعجبه فقال : أشبّه لكم شعر آل ابي حفصة وتناقصه حالاً بعد حال ؟ فقالوا ان شاء الامير ، فقال : كأنه ماء أُسخنَ لعليل في قدح ثم استغنى عنه ، فكان ايام مروان الاكبر على حرارته ، ثم انتهى الى عبدالله بن السمط وقد برد قليلاً ، ثم الى ادريس بن ابي حفصة وقد زاد برودة ، والى ابي الجنوب كذلك ، والى مروان الاصغر وقد اشتد برده ، والى ابي هذا متوج وقد ثخن لبرده والى متوج هذا وقد جمد ، فلم يبق بعد الجمود شيء.

وأخبر الصولي قال : سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو لم يكن البحتري الا قصيدته السينية في وصف ايوان كسرى فليس للعرب مثلها ، وقصيدته في وصف البركة ، واعتذاراته الى الفتح التي ليس للعرب بعد اعتذارات النابغة مثلها . وقصيدته في دينار التي وصف فيها ما لم يصفه احد قبله ، وصفة المراكب في البحر لكان اشعر الناس في زمانه فكيف اذا انضاف الى هذا صفاء مدحه ورقة تشبيهه في قصائده ؟

وقال صاحب الاغاني : حدثني الصولي قال : سمعت عبد الله بن المعتز يقول : لو قيل : ما أحسن شيء تعرفه ؟ لقلت شعر العباس بن الاحنف :

قد سحّب الناسُ أذيال الظنون بنا وفرّق الناسُ فينا قولهم فرقا
فكاذب قد رمى بالحب غيركم وصادق ليس يدري انه صدقا

وشيء آخر يتصل بهذه الدراسة ، وهو دراسة السرقات والموازنات بين الشعراء ، ولابن المعتز لطائف في هذا الباب من فضل تحققه بالبديع والاستعارات ، ففيما حكى الصولي انه كان يسأل : ما احسن استعارة اشتمل عليها بيت واحد من الشعر ؟ فيجيب احد الجلساء فيستحسن ابو العباس قوله ، ثم يروي مأخذه وما هو اجود منه . ومن استعاراته التي كان يستحسنها :

ألقت ذُكاء يمينها في كافر – وأيدي الثريا جنّح في المغارب –
نطاردهم نستودع البيض هامهم – امتدت اليه المنايا عينها ورسولها .

وكان له خاطر نفاذ في النقد ، فقد قال له احد جلسائه ان من احسن الاستعارات قول ذي الرمة :

أقامت به حتى ذوى العود في الثرى وساق الثريا في ملاءته الفجر

فقال ابو العباس : هذا لعمري نهاية الجبرة ، وذو الرمة ابدع الناس استعارة وابرعهم عبارة الا ان الصواب : حتى ذوى العود والثرى ، (على ان الثرى مفعول معه) لان العود لايذوى ما دام في الثرى وهذا

منقول من مذاكرات الفرزدق مع عمرو بن العلاء ... وفي الموشح من هذا كلام طويل .

المنهج التطبيقي

ويتصل بهذه المذاكرات ما سميناه من قبل عند الكلام على البيئة العامة في أول الكتاب بالمنهج التطبيقي ، وقلنا ان ذلك يكون بأن يُعرَض المعنى القديم ويدرس وتحصى عيوبه ثم يقترح أن يقال في ذلك شعر يخلصه من عيوب القدامي ، فيسلم المعنى حين ذلك سلامة لا ينتقص أطرافها عيب . وقد اهتم ابن المعتز بهذا المنهج اهتماما بالغا حتى صار له في ذلك جملة صالحة من الأمثال قد لا تجدها عند غيره ، واليك بعضاً منها ، ومنه ما هو روايته ومنه ما هو عمله :

قال عابوا على الأعشى قوله :

ونبئت قيسا ولم آتــه وقد زعموا ساءَ أهل اليمن

فعابوه بهذا الشك (الذي في قوله وقــد زعموا) ويقال ان قيسا أنكر ذلك عليه فجعل مكان وقــد زعموا : « على نأيه » فصار البيت هكذا الى السلامة :

ونبئت قيسا ولم آتــه على نأيه ساء أهل اليمن

وينسب اليه بعض الرواة خبر نقــد الرشيد لأبي نواس في مدحه الخصيب بقوله :

فان يك باقي افك فرعون فيكم فان عصا موسى بكف خصيب

فقال له الرشيد ألا قلت :

. . . . فباقي عصا موسى بكف خصيب

(وذلك لتحسن المقابلة)

وروى قول اسحق الموصلي في غنائه :

وكل مسافر يشتاق يومــا اذا دنت الديار من الديار

ثم غير البيت فصار الى قوله :

وكل مسافر يزداد شوقـــا

وقد سبق الكلام عنه .

ولما كان ابن المعتز قد أوغل في حلبات الأدباء واللغويين ورواة الشعر ونقدته ، وصار من المقدمين فيهم رسالة وحفظا ورواية ونقـــدا ، فقد أراد لنفسه ألا يقع فيما وقع فيه السابقون وان يتحرز مما يُطعن عليه ، فانحنى على الشعر يصنعه وينضجه ويحسنه فيأتي بما يتحرز منه خفيا لطيفا دقيقا كقوله في صفة الخيل :

صببنا عليهـــا ظالمين سياطنا فطارت بها أيد سراع وأرجل

وانه لو لم يقل (ظالمين) لكان لمعترض عليه ان يقول : انما ضربت هذه الخيل لبطئها ، كما عابوا على امرىء القيس قوله :

فللزجر الهـــوب وللساق درة وللسوط منها وقع اهوج مُتْعِبِ

وقالوا : اذا أحوج الى هذا كلـــه فليس بسريع ، فقال عبد الله : (ظالمين) : تحرزاً من هذا الطعن .

فهو اذن يخشى ان يؤخذ بسذاجة بدو الجاهلية والأموية ، وينسج القول محكماً لا تهي جوانبه ولا يشوبه نقص ولا عيب .

اصول وموازين

ويهيب ابن المعتز بالشاعر ان يبتعد كل الابتعاد عـــن اللفظ الغريب والمصدود عنه . وقد جرى في ذلك على عادة اولاد الملوك ، ومقت ان يميل الشاعر الى البديع كل الميل فيُمقت كمسن الجد ومشيب الفؤاد وزند الدهر ، ولا يستجيد المطابقة ان خرجت خروجاً غـــير حسن او تكلفها الشاعر ، والمطابقة ان حسنت حيناً فلا تحسن احيانـــاً كثيرة ، فوجب الا يؤتى بها في كل آن ، ولا يعجبه ان يسوء التشبيه فيشبه الممدوح بما لا يستساغ كالتشبيه بالتنين اوالفيل ، ولا يعجبه ان يُنتحل التجنيس ويتكلف تكلفاً .

ويرى الا يتشبه ابن القرية المتأدب بالبدوي الجلف في كلامه ، ولا المحدث مع تصفحه اشعار الاوائل وعلمه بها ان يقف عندما وقفوا عليه من غير ابتكار وتجديد ، ولا يغتفر للشاعر ان يجيء بالمعنى خطأ ، او يرق في تأدية الغرض فيكون كلامه مثل كلام المخنثين كقول القائل :

« تقطع قلبي رحمة للمكارم » .

ولا يعذر الشاعر ان يُسبق بمعنى ولا يكسوه احسن مما كساه الاوائل من ثوب الالفاظ ، او يزيد في اضاءة المعنى او يسنح له منه معنى يفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به ، وينظر الى ما قصده نظر مستغن عنه لا فقير اليه .

كل هذه الاصول والموازين عرض عليها ابن المعتز شعر ابي تمام لكثرة نتاجه وغزارة شعره ، وتقليبه ضروب القول وفنونه وتعدد ينابيعه ، ولامتيازه بخصائص في صياغته ومعانيه ، فاستجاد منه ما استجاد وزيف ما زيف ، واقتصر فيما كتب على ما يبهر الحجة ويفل حد النصرة ، ولكن ابن المعتز اورد ما اورده على العموم في نفس قصير ودون تشعب في البحث وسوق العلل الا قليلا ، الا انه مع هذا النقص فتح الباب لمن بعده على مصراعيه واضاء لهم السبيل ، فلم يمض على علم البلاغة الا قليل حتى صار الى النضج الذي صار عليه .

كتاب سرقات الشعراء

وكان كتابه سرقات الشعراء كله يجري في هذا الباب ، وقد روى الآمدي ان ابا العباس بن المعتز انشد في كتابه هذا لسلم الخاسر يعيبه برديء الاستعارة في قوله يرثي موسى الهادي :

لولا المقادير ما حط الزمان به   لا بل تولى بأنف كلمه دام

وقال هذا رديء كأنه من شعر ابي تمام الطائي *

---

* الضمير من تولى للزمان ، والمعنى لولا المقادير أرادت موته لما قدر الزمان على حطه في القبر بل وارتد عنه الزمان ان اراده بسوء وهو دامي الانف مجروحه .

ولعله من ارفق الامور ان نقول كلمة قصيرة هنا عن سرقات ابن المعتز نفسه جرياً على اصوله التي رسمها للنقد ، وليُعلم ما في المخلوقين من النقص ، وكنا نود ان نفرد لسرقاته بابا ، ولكنا رأينا من المستطاع رد معانيه كلها الى من سبقه ، الا اننا رأينا — كما يرى النقاد المنصفون انه لا ضير ان يعير المعنى من شاعر فيتجاذبه الشعراء ويتناولونه من قرب او بعد ، ويولدون منه كل خفي لطيف .

وقد بينا في مذهبه الشعري انه لايبالي بأخذ المعاني ما دام يعقب عليها بما يزيدها حسناً او يفرّع عنها ، ومما عدوه عليه من السرقات قوله :

انا جيش اذا غدوت وحيداً ووحيدٌ في الجحفل الجرار

مأخوذ من قول الفرزدق .

وقوله : كأن اخفافها والسير ينقلها دلاء بئر تدلت بين اشطان

مأخوذ من قول عنترة :

يدعون عنتر والرماح كأنها اشطان بئر في لبان الأدهم

وقوله : وتقدم ولا تخف فاز بالحب من جسر

مأخوذ من بشار وسلم الخاسر ، والأول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

والثاني : من راقب الناس مات غما وفاز باللذة الجسور

وكلاهما اقوى منه واعم .

وقوله: وكنت كرامي كوكب ببصاقه فردّ عليه وبله ومواطره

أخذه من المثل العربي الذي يقول : أحمق ما توّجه * .

وقوله : « يارب ليل سحر كله » . أخذه من قول عبد الملك بن صالح ابن علي ، وقد سأله الرشيد عن ليل منبج فقال : سَحرٌ كله .

---

* امثال الميداني .

وقد يسبق ابن المعتز بالمعنى مسروقاً ممن قبله او مبتكراً من عنده فيبين الك سهلاً خفيفاً ، فاذا تناوله احد من بعده كالمتنبي ضخمه وجعل له طنيناً حتى ليظن انه صاحبه ويُنسى فضل ابن المعتز فيه ، من ذلك قوله :

وردّ عليّ الدهر حدّ سلاحه فقطّعني جَرْحا وأوجعني عضا

أخذه المتنبي فقال وأوضح :

عركت صروف الدهر طفلاً ويافعاً فعرقني نابـــاً ومزقني ظفرا

وقد قال المتنبي :

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الليل يُغري بي

وقد عثر ابن جني على الموقع الذي أخذه منه المتنبي وقد كان ينكره ، وذلك من قول ابن المعتز في شطر صغير :

« فالشمس نمّامة والليل قوّاد » .

ومنه قوله يصف النار :

كأن الشرار على نارها وقد راق منظرُها كلَّ عينْ
سحالة تبر إذا ما عـــلا فاما هـوى ففتاتُ اللجينْ

أخذه العسكري فقال وأحسن :

أوقدتَ بعـــد الهدوّ ناراً لها على الطارقين عـــينُ
شرارهـا إن علا نضـــار لكنه ان هوى لجـــينُ

كتاب البديع *

وكان لا بد لناقـــد بصير دروب كابن المعتز ، وَضع الموازين لنقد الشعراء وأشعارهم وطالت مجادلاته ومباحثاته فيهـا ، ورأى غيرَه يسبقه

* نشر كتاب البديع أغناطيوس كراتشقوفسكي المستشرق الروسي وطبع في لندن سنة ١٩٣٥ مصدرا بمقدمة انجليزية مذيلا بترجمة لصاحبه وفيها بيان عن أثر الكتاب في الأدب العربي . ثم أعيد طبعه بالقاهرة .

لتأليف كتب تصور حياة النقد والاذواق المختلفة منذ نشأ في الجاهلية الى القرن الثالث كابن سلام في كتابه طبقات الشعراء - كان لا بد له أن يفكر في وضع أصول وقواعد لفن من بلاغـة القول لم توضع فيه غير صفحات ، ولم تُقل فيه غير جمل مبعثرة هنا. وهناك في كتب من سبقوه كرسالة بشر وبيان الجاحظ وأدب ابن قتيبة ، وكان لا بد له ان يجمع تلك القواعد في كتاب يكون له بـه فضل السابق المجلي في الحلبة ، فما إن راقته الفكرة حتى شمّر عن ساعد جده يؤلف كتاب البديع .

وكل مسائل البلاغـة التي فصلتها الكتب منذ ابن المعتز الى اليوم وقسمتها الى ما يبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، والى تنوع أساليب الاداء والى تحسينها او تحسين المعاني مما سُميَ اخيرا معاني وبيانا وبديعا ، كل ذلك اسماه المحدثون لما رأوه قـد كثر في شعرهم بديعا ، وكذلك سار على هذه التسمية ابن المعتز فسمى بحوثه في هـذه النواحي جميعا بالبديع .

ولقـد ادّعى المحدثون ان بشارا ومسلما وأبا نواس وحلباتهم هم الذين أدخلوا في شعرهم كلاما ذا مذاق خاص سموه بالبديع ، ولكن ابن المعتز الذي نظر في كل الكلام أنكر على المحدثين ان يقصروا نسبة ذلك البديع على أولئك الشعراء وان يخصوهم وحدهم بعمله وصناعته وان كان اسم البديع هم الذين ابتدعوه .

ولعل هذا هو كل غرضه،او غرضه الاول من تأليف الكتاب،لينبه الناس على ان المحدثين لم يسبقوا المتقدمين الى باب من ابواب البديع ، وانما كان عملهم ان وضعوا الاسم لا غير واكثروا منهُ في صناعتهم .

والقرآن والحديث ولغة القدماء شعرها ونثرها ممتلئة به سابقة اليه في اقلال واعتدال ، وكل ما هنالك ان هذا النوع قد كثر في شعر هؤلاء الشعراء كثرة امتاز بها. شعرهم عن شعر السابقين .

على ان ابا تمام قد اقبل على هذا البديع بعـد اولئك الشعراء اقبالاً

لا مثيل له من قبل ، وكان كلما اراد البديع خرج الى المحـــال واحتطب واستكثر .

وقد كان الشاعر القديم يأتي بنوع واحد منه في البيت او البيتين من القصيدة ، فيستحسن ذلك منه ، وربما لم يأت بشيء منه قط ، اما ابو تمام فقد شغف به حتى غلب عليه وتفرع فيه واكثر منه ، واصبح صاحب صناعته ، محسناً في بعضه ومسيئاً في بعضه ، متطرفاً في الجودة والاسفاف ، وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف .

قال ابن المعتز في كتابه هذا : « ان بشاراً وابا نواس ومسلم بن الوليد ومن تقيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ، ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ، ثم ان الطائي تفرع فيه واكثر منه واحسن في بعض ذلك واساء في بعضه وتلك عقبى الافراط وثمرة الاسراف ... » ويكثر من الاستشهاد للطائي في اثناء كتابه .

والكتاب لا يعدو خمسة ابواب : الاستعارة اولها ثم التجنيس ثم المطابقة ثم رد الاعجاز على الصدور ثم المذهب الكلامي ، وعدّ ما سوى هـــذه الانواع الخمسة محاسن ، واباح ان يسميها من شاء ذلك بديعاً . *

وان استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء آخر قـد جاءت في القرآن الكريم والحديث وشعر القدماء ونثرهم ، وكذلك وقـــع في كل ذلك الكلام انواع من التجنيس ولا سيما تجنيس الاشتقاق، والمطابقة والتشبيه والكناية ، فهو في كل باب من ابواب كتابه يعرض الادلة من القرآن فالحديث فأقوال الصحابة ** والمشهورين من الاسلاميين ، ويتعرض في اثناء

(*) عرف ابن المعتز الاستعارة في البديع قال : هي استعارة الكلمة من شيء قد عرف بها الى شيء لم يعرف بها .

(**) مثل هذا البحث والترتيب نقله الآمدي في موازنته منقولا من ابي علي محمد بن العلاء السجستاني ، وكان صديق البحتري ص ٥ ، ٦ ، ٧ من الموازنة طبعة صبيح ، ثم قال ذكر ذلك كله ابو العباس عبدالله بن المعتز في كتاب البديع فلما اطلعنا على كتاب البديع وجدناه كما قـــال الآمدي .

الابواب لمحاسن الكلام ومساويه لتتميز باضدادها الاشياء .

ومع قلة امثلة الكتاب وقصره وانحصاره في انواع قليلة من البلاغة تبلغ سبعة عشر نوعاً فان مؤلفه يعتز به فيزعم انه عرض فيه احسن ما وجده ويرى انه جاء كافياً مفيداً ، ويقول : وما جمع قبلي فنون البلاغة احد ولا سبقني اليه مؤلف ، ومن احب ان يقتدي بنا ويقتصر على ما اخترعناه فليفعل ، ومن رأى اضافة شيء من المحاسن اليه فله اختياره .

ولو رأى ابن المعتز ما صار اليه هذا العلم بعده من التقسيم والتفريع وما خاض فيه علماؤه من بعده ، ورأى انه بعد ذلك كله لم يعد كافياً لراعه ذلك ، ولكنه ظل صاحب الفضل في السبق اليه والبدء به . *

وقد رأى مؤلف البديع ان الاسانيد وكثرة العنعنة التي يمتاز بها مؤلفو عصره استكثار لا ضرورة له ، ولعل ذلك شيء ان أباحته لهم رواية الادب فلن تبيحه رواية الدين لما في هذه من وجوب التورع وضرورة العنعنة او ذكر الاسانيد ليُعرف الحق وطريق السداد ، ولكنه لم يستطع الخلاص جملة من فكرة الاكثار والاسناد فاختصر على ذكر المعروف المشهور .

وانك لتكاد تلمس نفس ابن المعتز في كتاب البديع لانه لايختار فيه الا ارشق الاساليب ، ويعجبه تجنيس الاشتقاق ، وحقاً فانه لا يحمد الاشتراك في اللفظ الا في هذا النوع من التجانس ، ولم يفته ان يكون في كتابه لغوياً صرفيا ناقداً ، فهو يعنى في كتابه بتفسير الكلمات وتصريفها كبقية مصنفي كتب الأدب في ذلك الزمان .

أثر الكتاب

ومهما يكن من شيء فحسب ابن المعتز انه اول من بذر النواة التي نبتت منها دوحة هذا الفن المتعددة الاغصان الوارفة الظلال الطيبة

* انظر فن القول لأمين الخولي .

الثمرات . وكانت تعاليم كتاب البديع سبباً لاتساع نطاق بحث الالفاظ والاساليب والمعاني ، ووضع القوانين لهـا ، وبلغت بالاعتقاد العلمي في القرآن فوق ما بلغه الاوائل فيه ، وقد كان الكتاب تهييجاً للأفكار وللبحث والتفنن في اسس البلاغة ، وقد مهد الطريق لمن بعده حتى اتى عبد القاهر فانتهت اليه فلسفتها وصار اليقين في بلاغة القرآن الى غاية الكمال . فابن المعتز سقراط بلاغة هذه اللغة بعد عهود السفسطة الطويلة وله الفضل الاول في توطيد اركانها .

أنواع نثره

نثره العلمي

هدأ ابن المعتز في أسلوبه العلمي وسكن ، وبذل فيه من منطقه وسليم فكره وقدرته على التوضيح ما وسعه ذلك ، وبعُد به عن الخيال الشعري والأسلوب المجازي ، وتوجه به الى العقل يخاطبه والى الفكر يناجيه ويشرح حقائق ما يتعرض له من مسائل العلم ، في بسط وسهولة وتقديم أمثلة وحجج وسلامة ذوق في اختيار الكلمات وحسن تقريب للمعاني في أفهام الناس .

ولسنا نريد الاطالة في نثره العلمي الذي ورد في رسائل نقده وكتبه التي ألفها واطلعنا عليها ككتاب البديع ، فقد يتساوى هو وآخرون أقل منه شأناً او أكبر في هذا الأسلوب الذي يظهر عليه سلطان العقل أكثر من ظهور سلطان الفن ، ومثله قوله في التأريخ للشراب في كتاب فصول التماثيل :

« الروم أعرف الناس بالشراب وأوصفهم له وأعلمهم بمنافعه ، واعدلهم مذهباً في استعماله ، واكثر ما يختارون منه الاحمر المشبع التمين لانه اسهل عندهم في توليد الدم من غيره ، فاما الفرس فهم شركاء الروم في معرفة فضائل الشراب ، الا انها تختار منه الاصفر لذكاء رائحته ولذاذات طعومه ، ولان فيه ضرباً من حركة النار ولونها ، واما العرب فانها بين هاتين الحالتين تتصرف بلطائف مدائحهـا الى ما أحبت من اوصاف الالوان ومن اوصاف الاجناس ، فتصيب منه المعنى او تقارب الاصابة » .

ولكنا نريد ان نحدث عن نثره الفني الذي هو قسيم الشعر في الادب فهو اولى بالبحث والدراسة لانه يدل على شخصه وفنه كما دل الشعر عليهما ، بل قد يكون النثر الفني ادل على صاحبه من الشعر واكثر هداية اليه منه .

نثره الادبي

كان كلٌ من نثر ابن المعتز وشعره أحدهما في خدمة الآخر ، فاذا قيد خاطراً من خواطره نثره ووضعه في بابه ثم لاح له منه بارق شعري نسجه شعراً او استعانه ووضعه في فنه الذي يناسبه ، واذا انشد شعراً وبانت من خلله ملامح حكمة او عظة او فكرة نثرها ووضعها في بابها من النثر ، فكان نثره وشعره كلاهما خادما وكلاهما مخدوما ، ولكن نثره كان اكثر خدمة لشعره فقد جاء اكثره قريباً من الشعر كقوله في احد رسائله : وقد لبثت بعدك بقلب يود لو كان عينا ليراك ، وعين تود لو كانت قلباً فلا تخلو من ذكراك » . او قوله : « والله يعلم ان خيالك شمس نفسي اذا نمت ، وذكراك سراجها اذا انتبهت » ، وهذا وشبهه كان الشعر به اولى ، فانه لم يفارقه الخيال الشعري ، وبرزت فيه صور الجمال والخيال والتصوير الدقيق بروزها في شعره وتشبيهاته ، وكان اسلوبه جزلاً موجزاً حينا مسهباً حينا آخر حسبما يقتضي المقام وتطلب الحال كما كان شأن عصرهم غلوا في طرفي الايجاز والاطناب ، فتراه مرة كالجاحظ مطيلا منوعاً عباراته مردفاً

مستطرداً متظرفاً متندراً ، كما كتب في رسالته التي تفضل سامرا على بغداد وهي التي يقول فيها مناظراً احد اصدقائه :

« كتبت اليك من بلدة قد انهض الدهر سكانها واقعد جدرانها ، فشاهد اليأس فيها ينطق ، وحبل الرجاء فيها يقصر ، فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر ، وقد وُكلت الى الهجر واستحشت باقيها الى فانيها ، وقد نزقت باهلها الديار فما يجب فيها حق جوار ، فالظاعن منها ممحو الاثر والمقيم بها على طِرف سفر ، نهاره ارجاف وسروره احلام ، ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع ، فحالها تصف للعيون الشكوى وتشير الى ذم الدنيا بعد ما كانت بالمرأى القريب جنة الارض وقرار الملك ، تفيض بالجنود اقطارها عليهم اردية السيوف وغلائل الحديد ، كأن رماحهم قرون الوعول ودروعهم زبد السيول ، على خيل تأكل الارض بحوافرها وتمد بالنقع سائرها ... على انها وان جفت معشوقة السكنى وحبيبة الثوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، وحصاها جوهر ونسيمها معطر وترابها مسك أذفر ، ويومها غداة وليلها سحر ، وطعامها هنيء وشرابها مريء ، وتاجرها مالك وفقيرها فاتك ، لا كبغدادكم الوسخة السماء الومدة الهواء ، جوها نار وارضها خبَار ، ضيقة الدار قاسية الجوار ساطعة الدخان قليلة القتيان ... ثم ختم الكلام مضمناً كلام امرىء القيس :

غدت سرمرا في العفاء كأنها قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
واصبح اهلوها شبيها بحالها لما نسجتها من جنوب وشمأل
اذا ما امرؤ منهم شكا سوءحاله يقولون لا تهلك اسى وتجمل

وتراه حينا جرى مجرى ابن المقفع تحتشد قوته للفكرة وتحتشد للفظ نتبرز المعاني في ثياب لم يُقدّ مثلها حسناً ورشاقة وتجانساً ، وسنورد امثلة ذلك عند الكلام على الفصول القصار .

وهو في اسلوبيه كليهما شديد المرّة عظيم القوة يدل على عمق النفس وحدّتها وصهر الحوادث لها وبصرها بالامور .

ولم يكن نثره الفني إلا سهلا رائقا قليل الصنعة والتكلف لانه لم يقصد فيه الى اظهار براعة أو سعة تحصيل ، وانما كتبه في المناسبات وللمناسبات وحدها ، فجاء معبرا في صدق وانسجام عن الافكار التي أملته والاغراض التي كتب من اجلها .

ولم يكن ابن المعتز معنيا بالسجع عناية من جاءوا بعده به ، بل كان فيه على طريقة من تقدموه من الكتاب أمثال الجاحظ وجعفر بن يحيى وابراهيم بن العباس واحمد بن يوسف وابن ثوابة وأشباههم ، فان السجع في كلامهم قليل ، لكنهم لا يكادون يخلون بالمناسبة بين الالفاظ في الفصول والمقاطع الا في اليسير من المواضع ، وكانت له عناية قليلة بالمحسنات البديعة ، وانما انصرف همه الاكبر الى المعاني ، وما وقع من المحسنات فقد جاء ابن الصدفة وعفو الخاطر .

وهل بلغ عصر عربيّ – قبل هذا العصر أو بعده – ما بلغ هذا العصر من رقي الكتابة على انواعها كافة ! لقد أصبح النثر على رقيه فنا تؤدّى به جميع العلوم على كثرتها واختلافها ، وأصبح فنّ لهو وترف يقوم مقام الشعر في ارضاء العواطف والشعور .

فنون نثره

قلنا ان ابن المعتز كان دءوبا على تقييد خواطره ومشاهداته ، وكأنما كانت له يوميات يسجل فيها كل ما يمر بسمعه أو تحت عينه لئلا تفوت ثواني الحياة ولم يثبت فيها له وجودا ، او لم يقترح لمسائلها المعقدة حلا ، أو يحكم عليها حكما .

وكان هذا التقييد نثرا ، يجري في مسالك شعره او مسالك اخرى غير التي يجري فيها شعره وان كان الخيال الشعري لم يفارقه فيه كما قلنا ، فكان هذا النثر في معظمه ، سالكا طريق الجد بعيدا عن المجون يدل على العمق وسمو الفكرة وتعددها واتساع الافق والثروة اللغوية ،

وكان هذا النثر - في القليل منه - يسلك الاغراض التي ينشدها الشعر ويعبر عنها من مدح وعتاب ورثاء ووصف .

وانك لترى في نثره رقة اولاد الملوك وحسن مداخلهم ورفق عتابهم ، من ذلك انه ارسل ذات مرة الى قينة لتلحق به في مجلس حظ ، فلما مرت في الطريق الى المجلس وجدت فيه حارسا حراميا فرجعت ، فأرسل يعاقبها فكتبت اليه اعتذارا بخطها فأجاب فكان مما قال :

فمن يجيرني من توكله على تقديم العذر ووقوعه موقع التصديق في كل وقت ، فتتصل ايام الشغل والعلة ، وتنقضي ايام الفراغ والصحة ، فتطول مدة الغيبة وتدرس آثار المودة ، ثم كتب في آخر الرقعة :

اذا غبتِ لم تعرف مكاني لذةٌ ولم يلق نفسي لهوُها وسرورُها
وبدلتُ سمعا واهيا غير ممسكٍ لقول وعينا لا يراني ضميرها

رسائله

وقد كتب رسائل اخوانية قد غزرت غزرا ، وفتقت له الحوادث والمناسبات فيها معاني لم يكن ليبلغها لو كان احد كتاب الدواوين ، وكان معظم هذه الرسائل في خدمة الرؤساء والوزراء ، من تهنئة بقدوم من سفر او ولد يولد او تعزية بوفاة او شفاعة ، وطلب وتنفير وشوق وشكر ودعاء ، يراسل هؤلاء العلية والكبراء بما يليق بهم من معانٍ والفاظ فيعلو اسلوبه ويقصر ، وتسمو معانيه وتغزر ، وليس له غير هؤلاء من اصحاب .

وكان العصر عصر استبداد - كما تعلم - شاع فيه احتكار المنافع والثروات في ايدي الحكام ولا سيما الوزراء ، والسيطرة على كل شيء من أيّة السبل ، فكثر الطلب والرجاء والوساطة والاستشفاع كثرة استقر بها في اذهان الناس ومواضعاتهم ان الاستبداد شيء لا بد منه لاستقرار الدنيا .
وشاع هذا الاعتقاد وتفشى ، فكان ابن المعتز الامير احد اولئك الطالبين

الراجين المستشفعين ، وكان احد الوسطاء الذين استقرت في اذهانهم تلك القواعد فكان ان قال : « الشفيع جناح الطالب » . ومن رسائله يهنيء عبيد الله بن سليمان بن وهب في يوم عيد ويعتذر لانه لم يسع بنفسه :

« .. أخرتني العلة عن الوزير اعزه الله ، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني ويَعمُرَ ما أخلته العوائق مني ، وانا اسأل الله تعالى ان يجعل هذا العيد اعظم الاعياد السالفة بركة على الوزير ، ودون الاعياد المستقبلة فيما يحب ويُحبّ له ، ويقبل ما تُوسّل به الى مرضاته ، ويضاعف الاحسان اليه على الاحسان منه ، ويمتعه بصحبة النعمة ولباس العافية ، ولا يريه في مسرة نقصاً ولا يقطع عنه مزيدا ، ويجعلني من كل سوء فداه ، ويصرف عيون الغيرِ عنه وعن حظي منه » .

وله اليه :

« .. لو كان في الصمت موضع يسع حالي لخففت عن سمع الوزير ونظره ولم اشغل وجهاً من فكره ، وما زالت الشكوى تعرب عن لسان البلوى ، ومن اختلت حالته كان في الصمت هلكته ، وقد كان الصبر ينصرني على شر امري حتى خذلني » .

ومن استشفاعه بعض الرؤساء قوله :

« لا تشن حسن الظفر بقبح الانتقام ، وتجاوز عن كل مذنب لم يسلك من الاعذار طريقاً حتى اتخذ من رجاء عفوك رفيقاً » .

وفي هذه الرسائل يظهر أثر النثر الفارسي الكثير التفخيمات المتفنن في الاساليب .

وصفه

وكان وصفه كشعره يصف الاشياء والاحداث في أسلوب موجز قوي ، وكان بعض وصفه في التأليف نثراً ادبياً فنياً ولا سيما إذا مهّد بـه الطريق الى الشعر ، وذلك مثل بعض نثره في كتاب فصول التماثيل كقوله

يصف الكرمة :

« الكرمة شجرة مكرمة شريفة العنصر ، تزهر بورق يجلو البصر كانه السندس الاخضر ، تضحك عن ثمر حلو الخبر كأنـــه شماريخ الجوهر وكبائس الشذر المعنبر ، استخرجته الايام من الغمام ونقلته الازمان الى ضمائر الاغصان فصار غذاء يراه العميان بعد ان كان هواء خفيّ المكان ، ثم عاد ماء كالزعفران أو كعصارة المرجان ، لطيف المنظر جميل المصوّر ، يدل على حقيقته شيئان : لون معصفر ونسيم معطر كأنه المسك الاذفر . »

ومثل قوله في الشراب :

« الشراب مشمة الملك وتاجُ بدره وعروس مجلسه وتحفة نفسه وشفاء حزنه ، لم يزل بتوليد التودد معروفاً وبتأليف الشمل المتبدد موصوفاً ، ان تمشى في عظام الاخوان صدق الحسّ وذكّى النفس ، وان جرى في مفاصل الزمان أباحهم فراغ البال وكثرة المال ، وان يطرب الى شربه ذو أدب او ارتاح لمصافحته ذو حسب طال باعه ورحب ذراعه ، وزيّن لنفسه الجود وبذل منها فوق المجهود ... »

ومثل وصفه العلمَ والجهل والكتاب والقلم في اقواله :

العلماء غرباء لكثرة الجهال – زلة العالِم كانكسار سفينته تغرق ويغرق معها خلق كثير – المتواضع في طلاب العلم أكثرهم علماً كما ان الماء المنخفض اكثر الماء بقاء – اذا علمت فلا تذكر من دونك من الجهال واذكر من فوقك من العلماء – النار لا ينقصها ما أُخذَ منها ولكن ينقصها ألا تجد حطباً كذلك العلم لا يفنيه الاقتباس منه ، وفقد الحاملين له سبب عدمه – مات خزنة الاموال وهم احياء وعاش خزان العلم وهم أموات – ازهد الناس في عالِم جيرانه .

كلما حسنت نعمة الجاهل ازداد فيها قبحاً – لسان الجاهـــل مفتاح حتفه – لا ترى الجاهل الا مُفرِطاً او مُفرّطاً .

العاقل من عقل لسانه والجاهل من جهل قدره .

الكتاب والج الابواب جريء على الحجاب ، مفهم لا يفهم وناطق لا يتكلم ، به يشخص المشتاق اذا اقعده الفراق .

القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الارادة ولا يمل الاستزادة ، ويسكت واقفاً وينطق سائراً ، على ارض بياضها مظلم وسوادها مضيء ، وكأنه يقبل بساط سلطان او يفتح نوار بستان .

وقال في الصديق والعدو والصادق والكاذب والمكثر من المزاح :

انما سمي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدعيه لك ، وسمي العدو عدواً لعدوه عليك اذا ظفر بك – نصح الصديق تأديب ونصح العدو تأنيب – لا يزال الاخوان يسافرون في المودة حتى يبلغوا الثقة فاذا بلغوها القوا عصا التسيار واطمأنت بهم الدار ، واقبلت وفود النصائح وامنت خبايا الضمائر ، فحلوا عقد التحفظ ونزعوا ملابس التخلق .

علامة الكذاب جوده باليمين لغير مستحلف ، وقد نظم هذا المعنى فقال :

وفي اليمين على ما انت فاعله   ما دل انك في الميعاد متهم

اجتنب مصاحبة الكذاب فان اضطررت اليه فلا تصدقه ، ولا تعلمه انك تكذبه فينتقل عن وده ولا ينتقل عن طبعه – يعتري حديث الكذاب من الاختلاف ما لا يعتري الجبان من الارتعاد عند الحرب – لا تصح للكذاب رؤيا لانه يخبر عن نفسه في اليقظة بما لم ير فتريه في النوم ما لا يكون ، وقد نظمه قائلاً :

لا يكذب المرء الا من مهانته   او عادة السوء او من قلة الادب

من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به او حقد عليه .

وله في المشورة والمستشير :

من رضي بحاله استراح والمستشير على طرف النجاح – من استكثر المشورة في الاصابة لم يعدم الصواب وكان في الاصابة ممدوحاً وفي الخطأ عاذراً .

وله في الزهد وذم الدنيا :

الموت سهم مرسل اليك وعمرك بقدر سيره اليك ، وقد نظمه قائلا :

لا تأمن الموت الخئو ن وخف بوادر آفته

فالموت سهم مرسل والعمر قدر مسافته

وعد الدنيا الى خلف وبقاؤها الى تلف ، وبعد عطائها المنع وبعد امانها الفجع ، طواحة طراحة آسية جراحة ، كم راقد في ظلها قد ايقظته وواثق بها قد خانته حتى يلفظ نفسه ويودع دنياه ويسكن رمسه ، وينقطع عن امله ويشرف على عمله ، وقد رجح الموت بحياته ونقض قوى حركاته وطمس البلى جمال بهجته وقطع نظام صورته ، وصار كخط من رماد تحت صفائح أنضاد ، وقد اسلمه الاحباب وافترش التراب في بيت قد نجرته المعاول وفرشت فيه الجنادل ، ما زال مضطربا في امله حتى استقر في اجله ، ومحت الايام ذكره واعتادت الالحاظ فقده .

***

ولابن المعتز في الاوصاف الادبية القدم الراسخة والقدح المعلى ، وقد وصف البلاغة والبيان بقلمه فأجزأ وأبدع حين قال يصف البيان :

« البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول ومجلي الشبهة وموجب الحجة ، والحاكم عند اختصام الظنون والمفرق بين الشك واليقين ، وهو من سلطان الرسل الذي انقاد به المستصعب واستقام الأصيد وبُهت الكافر وسلم الممتنع * »

وله ايضا في المعاني والالفاظ كلام صحيح الفكرة سليم النظرة قال : « لحظة القلب اسرع خطرة من لحظة العين وابعد مجالا ، وهي الغائصة في اعماق اودية الفكر ، والمتأملة لوجوه العواقب ، والجامعة بين ما غاب وحضر ، والميزان الشاهد على ما نفع وضر ، والقلب كالملي للكلام على اللسان اذا نطق ، واليد اذا كتبت ، والعاقل يكسو المعاني وَشْيَ الكلام

* زهر الآداب الجزء الاول ص ٩١ الطبعة الاولى .

في قلبه ثم يبديها بألفاظ كواس في احسن زينة ، والجاهل يستعجل باظهار المعاني قبل العناية بتزيين معارضها واستكمال محاسنها » .

الفصول القصار

ان دأب ابن المعتز على تقييد خواطره كلما همس في نفسه خاطر ، وعلى تصوير مشاهداته كلما مرّ به حادث قد جمع له في النهاية جملة كبيرة من الحكم والآراء السديدة والمواعظ الصادقة ما لا يجتمع لغيره من حكماء الكتاب الذين لا ينهجون نهجه في هذا التقييد والتدوين ، ولو طالت اعمارهم الى مثلي عمر ابن المعتز او الى امثال عمره .

ولو اتيح لكاتب من كتاب الناس وحكمائهم في ذلك الزمان ان ينحو نحوه لما استطاع ان يدون من الحكم والآراء الا ما يمس طبقته التي يعيش فيها من طبقات الناس ، اما هذا فقد علا حتى عاشر الخلفاء والوزراء والعلية من العلماء والرؤساء والمثقفين وذوي الجاه والمال والفن ، ثم دنا من الطبقات الدنيا فعاشر اهلها ، فدرس الناس جميعاً على مختلف مشاربهم وهيآتهم .

واتاح له هذا التقلب بين الطبقات ان يعرف احوالها ويرى امورها عن كثب ، وأن يدرس ما يفسدها وما يصلحها ، فذهب يصور ذلك في شعره حيناً وفي نثره حيناً ، الا ان الشعر لايستقيم في كل آن ، ولا يسعف المريد الا بعد المحاولة والتليين والوزن ولا سيما في عصور الصنعة لا الطبع ، اما النثر ففني عن تلك القيود ولا سيما ان كان تقييداً لخواطر ومشاهدات في عبارات قصيرة موجزة لا ترى ضرورة الى ارتباط فصلها وبسطها في اطالة واسهاب .

وربما كان تقييد هذه الخواطر المنثورة اولا مدداً للشعر من بعد فيعود عليها فيزنها ولم تفرّ منه ، ويجعل ما يليق منها للشعر شعراً ، ويقسمها بين فنون شعره ، كل فن يأخذ منها ما يناسبه من حيث تبقى

هي مادة مستقلة للادب النثري تزيد من ثروته وغناه .

وما من شك في انه قرأ لابن المقفع كلامه ، وقرأ لغير ابن المقفع ما نثروا من الحكم والمواعظ والآراء والخواطر والوصف ، فأراد ان ينشبه بابن المقفع ويترسّم طريقه فيكون له أدب كبير مثله أو أدب صغير ، فسمّى ما أشبه فيه ابن المقفع وما جرى فيه مجراه بالفصول القصار .

ولا اتهيب ان اقول ان سلوكه هذا المسلك وكثرة اقواله في الاخلاق والسلوك والآداب قد يكون اعجب الادباء والمثقفين والآملين في صلاح الامور فأحبوه من نثره حيث كرهوه من شعره ، ونثر الكاتب اقرب في الدلالة على خلقه من شعره ، لان الشعر احوج الى الصنعة واقبل للكذب والمبالغة والمجون والشر ، والشاعر لا يجيد شعره الا وهو في حمى الانفعال الشعري وفي غيبوبة البحث عما يعجب ويطرب من المعاني والالفاظ والمجازات ، ومهما يكن من قرب لسان ابن المعتز الى قلبه في الشعر كما حدثنا من قبل فانه كان لا بد له حين يقول الشعر من هذا الانفعال . اما النثر فلا يحتاج كل ذلك ، وخصوصاً اذا كان تدويناً لمشاهدات وخواطر تعبّر عما يحدث في محيط الناس لا داخل النفس ، فانه حينئذ يكون اسهل ولا سيما ان كان في فصول قصار وجمل موجزة كما فعل ابن المعتز ، ويكون أدل على الطبع واقرب الى الخلق ، والنفس تميل الى ما يشبهها ويماثل صفاتها .

فابن المعتز محبوب من هذه الناحية ، يظن الناس فيه الخير كلما رأوه دؤوبا على تدوين خواطره واذاعتها ، وكلما شاع عنه انه يعنى بروابط الناس وشئون الحياة يعالجها معالجة الادباء الحكماء في فنهم الجميل .

ولا أتهيب مرة ثانية أن أقول : ان بين فصوله القصار ورغبته في الخلافة وسعيه لها ، او سعي الناس له من اجلها نسباً وصهراً ، فانه ينظم فيها شئون المُلك وآدابه وواجباته ، ويذكر عيوبه ويقترح ما يصلحه ، وما يجب ان يكون بين الناس من معاملة حسنة واخلاق كريمة ، فلا غرابة ان

ود الادباء والعلماء والآملون أن يجدوا في هذه الفصول دعاية واغراء على نصرته ليحقق لهم ما جاء فيها من الواجبات التي فرضتها على السلطان وأعوانه للرعية وأفرادها وصلاح حالها . ولا غرابة ان يقتصر أنصاره على هذا العنصر من الادباء والعلماء والفقهاء ، وان يكونوا — فقط — من عنصر العرب المظلوم .

وما من شيء تحدثنا عنه قبل الآن لابن المعتز يرشحه للخلافة او يدنيه منها ، فامارته لا تمت الى ولاية العهد بصلة ، وكبر سنه لا يُطمِع الوزراء والحجاب فيه ، وليس الشعر بسلّم يُرقى فيه الى المنصب الرفيع ، وليس تأليف الكتب والقدرة على النقد بمؤدية اليه ، وحياته الخاصة اكثر ما يبعده عنه ، بل ان هذه الخصال جملة لتبعده وتتساند في ابعاده عن هذا المقام .

ولكن شيئاً واحداً كان كفيلاً ان يكون دعاية لترشيحه للمنصب ، ويجعل له انصاراً يعينونه عليه ، هو هذه الآراء المنثورة في الفصول القصار ، وما يُسمع عنه منها ومن أمثالها في الرسائل والكتب والاحاديث والتأميلات :

واليك جملة منها على سبيل المثال :

السياسة

فساد الرعية بلا ملك كفساد الجسم بلا روح — اذا زادك السلطان تأنيساً فزده إجلالاً — الملك بالدين يبقى والدين بالملك يقوى — من نصح الخدمة نصحته المجازاة — . لا تعينَنّ من وليته على جباية بقلة جراية فليس يكفيك من لم تكفه — أشقى الناس بالسلطان صاحبه كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها احتراقا — لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطراب الامور عليه فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه في حال سكونه ، فكيف عند اختلاف رياحه واضطراب أمواجه — من صحب السلطان صبر على قسوته كصبر

الغواص على ملوحة بحره .

الزهـــد

الدهر سريع الوثبة شنيع العثرة – أهل الدنيا كركب يُسار بهم وهم نيام – الناس وفد البلى وسكان الثرى وأقران الردى – الدنيا تهين من اكرمَتْ وتأكل من أطعمت – كل عاو خطر وربما أدّى الى الهلاك الحذر .

الآمال :

المرء اسير الاغترار – الآمال حصائد الرجال – من جرى في عنان امله عثر بأجله – ربما شرق شارب الماء قبل ريه – الاماني تعمي اعين البصائر – من لم يتأمل الامر بعين عقله لم يقع سيف حيلته الا على مقاتله .

الصفات الذميمة :

الحرص : الحرص ينقص المرء من قدره ولا يزيد في رزقه ، من أرحله الحرص انضاه الطلب .

الكذب : الكذب والحسد والنفاق اثافيّ الذل .

الحسد : الحاسد اسمه صديق ومعناه عدو – الحاسد ساخط على القدر ، مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملكه ، طالب لما لا يجده ، يشفيك انه يغتم في وقت سرورك .

الشهوة : عبد الشهوات اذل من عبد الرق .

التقريع : لا تشن وجه العفو بالتقريع .

الطمع : ربما اورد الطمع ولم يصدر ، وضمن ولم يوفِّ .

البخل : بئس مال البخيل لحادث او وارث .

الجهل : غضب الجاهل في قوله .

الظلم : كفى بالظلم داعيا لنقمة وطاردا لنعمة – انتظر عند

الظلم عدل الله فيك ، وعند المقدرة قدرة الله عليك .

اللجاج : لا يحملك اللجاج على اقتراف اثم فتشفي غيظك وتسقم دينك .

الصفات الحميدة :

الصبر : الصبر على المصيبة يَفُلّ حد الشامت بها ويطمل عوس المتضاحك منها .

التواضع : التواضع سلم الشرف .

الجود : الجود صوّان العرض من الذم — من كرمت عليه نفسه هان عليه ماله .

الصمت : وعاء الخطأ بالصمت يُختم .

الرفق : الخرق بالرفق يُلحم .

الانجاز : الوعد مرض المعروف والانجاز برؤه والمطل تلفه — خير المعروف ما لم يتقدمه مطل ولم يتبعه منّ — المعروف رق والمكافأة عتق .

الوفاء : شكرك نعمة سالفة تقيض لك نعمة مستأنفة .

اليقظة : الفرصة سريعة الفوت بطيئة العود .

متفرقات :

العقل : قلوب العقلاء حصون الاسرار .

الحكمة : الحكمة شجرة تنبت في القلب وتثمر من اللسان

السر : كلما كثر حفاظ الاسرار ازدادت ضياعا .

البشر : البشر دال على السخاء كما يدل النوْر على الثمر .

الغريزة : كما ان الشمس لا يخفى ضوؤها وان كانت تحت السحاب كذلك الصبي لا تخفى غريزة عقله وان كان مغمورا بأخلاق الحداثة ...

صفته وأخلاقه

صفته

كان ابن المعتز فتى ممتلىء البدن رطيب العود معتدل القوام كقضيب البان ، وكان شديد السمرة مسنون الوجه ، ورث ملامح ابيه في جمال الوجه واساريره ، وقد بادره الشيب قبل الثلاثين فأهمله حيناً حتى اذا فشا ستره بالخضاب ، ثم أغذّ الشيب اليه بعد الثلاثين فابيض رأسه ثم ابيضت لحيته فخضبها ، ثم اسرع اليه الهرم من انكبابه على اللهو والسرف فلما امتنع عن لهوه او منعه الامام أسرع اليه الهمّ ، ولكنه كان يصرفه عنه الفينة بعد الفينة مختفياً او مقتصداً .

وليس فيما وصل الينا من اخبار ابن المعتز انه تزوج او اعقب نسلا بل هو يقول في ذلك بما لايدع مجالا للشك ، وهو يخاطب الدنيا :

فان ارتحل يوماً أدعك ذميمة وما فيك من فرعي غراس ولا بذر

ولا عجب ، فمثل الحياة التي عاشها ابن المعتز في شبابه لاتشجع على

الزواج وبناء الاسر ، بل هي حياة ان لم تكن بوهيمية فهي اشبه بها .

طباعه واخلاقه

وقلنا من قبل انه كان ذكياً حاد الذهن من طبيعته ، ورث ذلك عن ابيه ، وزاد هذه الموهبة قوة ومضاء مؤدبوه الذين تولوه صبياً ويافعاً ثم مدارس علمه ، وحريةُ البحث والمناظرة للوصول الى الحقائق في تلك المدارس والمجالس ، وكثيراً ما اسعفته بديهته في المناسبات واعانته على الارتجال ليتخلص احسن تخلص ، من ذلك ما حكاه الصولي في أدب الكتاب :
قال : جاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع الى ابي العباس احمد بن يحيي — يريد ثعلباً — ليسلم عليه ، فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابن المعتز قاماً فكسره ، فلما جلس قال لمن حوله :

لكفّي وتر عند رجلي لأنها أثارت قتيلاً ما لأعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرعة بديهته .

ولكنه كثيراً ما كان يؤثر الروية على البديهة ليكون آمن له وأوثق وكما يقول :

والقول بعد الفكر يُؤمَنُ زيغه شتان بين روّيةٍ وبديه

ويبدو أن ابن المعتز كان في حياته — مهما اختلط بالناس — متعالياً تعاليَ الامراء ، فان غضب وكان الحق في جانبه او رآه كذلك لم يلن جانبه او ينزل عن مكانه لصاحبه الذي غاضبه ، وهذا النميري صاحبه كاشفه ابن المعتز بسره في شرير حبيبته فاذاع سره فجفاه فقاطعه فرجع ذات مرة فكتب الى الامير من دير جرجس يذكره بالخمر ويدعوه اليها في آخر شعبان فلم يرد عليه ابن المعتز جواباً وأبدله من ذلك هجاء وتكراراً في الهجاء .

ولما كان من مراسم العقلاء ان يضع المرء نفسه في مكانه الذي يليق به لم يتعال ابن المعتز على من هو أسمى منه او يتساوى معه ، معتقداً

أنه إن فعل ذلك أصابه الضر وانحدر اليه الأذى وقد قال في ذلك :

وكنت كرامي كوكب بحصاته فردّ عليه وبله ومواطره

والعلماء أولى الناس عنده بالتجلة والاكبار فهو يقربهم اليه ويؤثرهم عليه

وقد تحاشى ابن المعتز الهجر في القول إلا قليلاً وهذا طبع الامراء وجبلتهم .

ولكنه حذر أقاربه ، ورأيه فيهم أنضج الآراء ، إذ العباسيون كانوا اقارب يتعادون ويتقاتلون بالمكر والخداع والحسد ، ولا عجب إذا ملك المرء قلوب الغرباء ولم يملك قلوبهم فصاحب الفضل مهما اتسع جاهه وعظم فضله وطال باله لا يفي بمطالب الحساد ، وفي ذلك يقول :

المجد والحسّاد مقرو نان (إن ذهبوا) فذاهب

وإذا ملكت المجد لم تملك مودات الاقارب

وكان طول حياته يرى بمنظار الفطن البصير فيحذر ويدعو الى الحذر ويكرر الدعوة اليه – الى أن جرى القدر بحتفه – وطالما نصح أهله بالحرص على قوتهم لملاقاة الاعداء ، ودعا أن يحذر الانسان عدوه فلا يأمنه ويكون منه على يقظة دائمة في مثل قوله :

لست تنجو من كل ما حدت عنه فاصحب الصبر دائماً واتبعنه

وتيقظ اذا اضطررت الى وصل عدو ودم على الخوف منه

وما كان لرجل كابن المعتز نشأ حراً وقدس الحرية ان يحجر على الحاسد ان يحسد او على متمني المجد ان يتمناه ، وانما يرجو ان يكون هذا وذاك اهلاً للحسد او بلوغ المأرب ان تأججت نار الحسد او اشتعلت ثورة الأماني فيقول :

يا طالباً للملك كن مثله تستوجب الملك والا فلا

فان ثار الحسد بغيا وظلما فانه يسكت حساده بخلائقه ، وهو يقول :

وأصمت عني حاسدي بخلائق مهذبة ليست لهن عيوب

فمن قال خيرا قيل انك صادق ومن قال شرا قيل انت كذوب

ولقد يكثر الحسد حين تختل موازين العدل بين الناس ، فيكثر ذم

الحساد للمحظوظين ، ولا دواء افعل للحساد من السكوت عنهم حتى يأكل الحسد قلوبهم وهو يعبر عن هذا بقوله :

يا من عناني حسده يقيمه ويقعده
فانه في حلقه طعم شجا يردده

وقوله :

كم حاسد حنق عليّ بلا جرم فلم يضرني الحنق
متضاحك نحوي كما ضحكت نار الذبالة وهي تحترق

هذا ، ولسنا من يقول ان الشاعر – ولا سيما في عصر الصنعة – يبين خلقه من شعره دائما ، فقد لا يعبر مذهبه الشعري عن صفاته ، وليس ابن المعتز فيلسوفا ولا صاحب مذهب حتى ينطبع خلقه في قوله ، وانما نجتهد ان نراه من ادلة يقينية اخرى ، وهو نفسه يحكم معنا على نفسه فلا يرى من الضروري ان تطابق الاخلاق الاقوال في مثل قوله :

اعقل في قولي ولكنني من بعده اجهل في فعلي

ونحن نعتقد – مما قرأنا – أنه كان رجلا ممازحا ظريفاً جوادا يحيط بـه اصدقاؤه ويتطرح حوله الندماء والظرفاء وهو يرتحل بهم ويتفقدهم ويخوض معهم في خوضهم ، ويخلع عليهم الالقاب ممازحة وتسلية .

وقد علمته التجارب والبيئة ان يكون رجلا كتوما للسر ، ولا عجب فهو خلق القصور واجدرها بالمراعاة ، وقد ظهر منه ذلك في كتمانه عن الناس اسم حبيبته التي كنى عنها بشرير ولم يخبر بـه – على ما اظن – غير النميري ، فكان من مضيعات التاريخ ، وظهر كتمانه اوضح من هذا في تدبيره وتدبير اصحابه للخلافة الذي لم يفلح ، فلم يعرف احد اسماء مبايعيه حتى أتي بالصندوقين اللذين احرقهما ابن الفرات وزير المقتدر .

***

والوفاء اجلى اخلاق ابن المعتز وابينها ، فما كان مدحه لآل وهب إلا ضرباً من الوفاء ، وقد أجلّ معلميه جميعا ووفى لهم ، وقد تعود

ذلك من نعومة اظفاره ، قيل : كان احمد بن سعيد الدمشقي يؤدبه فوسّطَ البلاذري قوما الى صبيحة جدة الامير ليلقاه بالتأديب وقتا من النهار فأجابت او كادت تجيب ، قال ابن سعيد : فلما اتصل الخبر بي جلست في منزلي غضبان لما بلغني عنها فكتب إليّ ابن المعتز وله ثلاث عشرة سنة :

أصبحت يا بن سعيد حزت مكرمة | عنهــا يقصر من يحفى وينتعــل
سربلتني حكمة قد هذبت خلقي | واججت نــار ذهني فهي تشتعل
أكون إن شئت قسا في خطابته | او حارثا وهو يوم الفخر مرتجل
وإن اشأ فكزيد في فرائضه | او مثل نعمان لمــا ضاقت الحيل
او الخليــل عروضيا أخا فِطَن | أو الكسائي نحوياً له علــل
تغلى بداهــةُ ذهني في مُرَكبها | كمثــل ما عُرِفت آبائي الاول
وفي فمي صارم ما سله أحــدٌ | من غمده فدرى ما العيش والجدل
عقباك شكر طويل لا نفاد له | تبقى معالمه ما أطت الابل *

ثم هو رجل مُجدّ دءوب لم يُضع يوما ولا لحظة دون ان يعمل وان يكتب وان ينشر وينقد ويحقق حتى انتج لنا كل تلك الثمار الطيبة من العلم والادب ، ولكن يظهر ان مقتله قد عصف ببعض ما كتب وانشد او بكثير منه .

وقد رأيناه في أخريات أيامه قانعاً برزقه مصابــاً بفلسفة القناعة كما أصيب بها كثير من ابناء عصره وأفذاذه ، ولعل هــذه القناعة من الاسباب التي قربته من الخلفاء حيناً وقربته من مريديه دائماً فأحبوا له الخلافة ، وفي القناعة يقول :

أرى المرء يدري أن للرزق ضامنا | وليس يزال المرء ما عــاش طالبا

---

* قس : ابن ساعدة خطيب الجاهلية . حارثا : الحارث بن حلزة أحد اصحاب المعلقات . زيد : ابن ثابت البارع في الميراث . نعمان : أبو حنيفة صاحب المذهب . الخليل : ابن احمد الفراهيدي صاحب علم العروض . الكسائي : النحوي المشهور .

وما قاعدٌ إلا كآخر سائرٍ   وإن أدأب العيس المراسيل إدآبا
فيا نفس إن الرزقَ نحوك قاصد   فلا تتعبي، حسبي من الرزق اتعابا

وابن المعتز كان ممن يتفاءل باختلاج أجفان العين، ويرى اختلاجها بشرى برؤية الحبيب، وقد عرف ذلك من قوله:

مرحباً باختلاج أجفان عين   بشرتْ نفسها برؤية خيرِ

وبعد فإن ابن المعتز قد خبر الدنيا منذ صغره وعرفها حق معرفتها فكانت أحكامه صادقة عليها وأقواله تدل على خبرته بها، فهل نستطيع ان نعرف من ذلك أنه رجل متزن معتدل الخُلق حصيف الرأي؟

لقد روى بعض أصحابه أنه كان عفيفاً * لا يشارك جلساءه فيما ينغمسون فيه ولكنها رواية فرد لم تؤيدها روايات أخرى، وحتى ذلك الفرد قد عاد فنمّ عن ابن المعتز بما يكتمه، وأكثر أخبار ابن المعتز تدل على أنه كان رجلا مسرفاً: مسرفاً في المال ينفقه على ندمائه وجلسائه، مسرفاً في اللهو والمجون، قضى فيه شرخ شبابه حتى نهاه الامام، مسرفاً في العاطفة يحزن فيشتد حزنه ويفرح فيشتد فرحه، وينأى عن الشيء فيبتعد في النأي ويتقرب منه فيشب عليه، قد ورث مزاج أبيه المفرط، وليس أدل على ذلك من تباعده عن الخلافة وعن الطمع فيها ثم إقباله عليها - وقد كبرت سنه - اقبال الجهلاء على الحتوف.

انه شرب الخمر ولها لهو الأمراء بالنساء، ما من شك في ذلك، ولكنه كان ايضاً كاتباً أديباً وشاعراً ذا مذهب شعري وعالماً أريباً ومفكراً حصيفاً وحراً مبتكراً. ولله في خلقه شؤون.

---

* نهاية الأرب الجزء الثاني ص ١٤١ طبعة دار الكتب المصرية.

العمدة لابن رشيق

العصر العباسي للاسكندري

ع

الغرر للوطواط

ف

فصول التماثيل لابن المعتز

الفخري لابن طباطبا

فهرس مؤلفات ابن المعتز بمكتبة جامعة فؤاد الاول بالقاهرة .

الفهرست لابن النديم

فوات الوفيات لابن شاكر

م

المكافأة لابن الداية

مروج الذهب للمسعودي

محاضرات الادباء للسيوطي

الموشح للمرزباني

معجم الادباء لياقوت

معجم البلدان لياقوت

المقدمة لابن خلدون

مسالك الابصار للعمري

المختارات للبارودي

الموازنة بين ابي تمام والبحتري

محاضرات الخضري

ن

نثار الازهار لابن منظور

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

نظرات في تاريخ الادب الكيلاني

نهاية الارب للنويري

هـ

هبة الايام للبديعي

و

وفيات الاعيان لابن خلكان

الوسيط للاسكندري

الفهرس

(١) العصر العباسي المتوسط

البيئة العامة :

البيئة الخاصة :

(٢) مذهبه الشعري

(٣) فنون شعره

الوصف :

الفخر :

الغزل :

الخمر والغناء :

المدح :

الحكمة والشكوى :

(٤) الاراجيز

(٥) النقد والبلاغة